جِرَابُ الخضر

رواية

كارم عبد الغفار

دار البشير

جرابُ الخضْر

الطبعة الأولى
1440 هـ
2018 م

اسم الكتاب: جرابُ الخضْر
التأليف: كارم عبد الغفار
موضوع الكتاب: رواية
المراجعة اللغوية: عبدالقادر أمين
عدد الصفحات: 400 صفحة
عدد الملازم: 25 ملزمة
مقاس الكتاب: 14x20
عدد الطبعات: الطبعة الأولى
رقم الإيداع: 2018/22867
الترقيم الدولي: 2 - 727 - 278 - 977 - 978

حقوق الطبع محفوظة

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع، والتصوير، والنقل، والترجمة، والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي، وغيرها من الحقوق إلا بإذن خطي من الدار.

دار البشير للثقافة والعلوم

elbasheer.marketing@gmail.com
elbasheernashr@gmail.com
01152806533 - 01012355714

جرابُ الخضْر

رواية

كارم عبد الغفار

إهــــداء

إلى الرّجل الذي أوحتْ سيرتُه بهذا العمل/ هشام عبد الغفار

إلى رباعيّ بهجة الثمانينيّات والتسعينيّات:

(أسامة أنور عكاشة، سيّد حجاب، عمّار الشريعي، ميشيل المصري)..

دار التنوير للثقافة والعلوم

(١)

جعلنا التوزيعُ الجغرافي والطبوغرافي لكوكبِ الأرض جيرانًا لأبناء المعلّم شعبان في الدّار والغيط والأعْمار؛ ففي الدّار لا يفصل بيننا وبينهم سوى شباكٍ خشبيّ وسور طيني، وفي الغيط لا يفصلُ بيننا سوى جسرٍ عرضُه ربعُ متر، وفي السنّ جميعُنا مواليد النّصف الثاني من السبعينيّات بفروق طفيفة.. لكن في الحياة تفصلُ بيننا مساحاتٌ واسعة ووديانٌ وجدْران، وذلك عادة دراما الزّمان؛ ممّا جعل معاركنا تندلعُ لأتفَه الأسباب.

اليومَ دقّ الولدُ عيدُ بن شعبان طبولَ الحرب عندما دقّ وتدَ جاموستهم الرّعناء على حافّة أرضنا؛ فقد تعمّد الماكر أنْ يرخي لها الحبلَ ويطيلَه فجاوزتْ حقلهم إلى حقلنا؛ فنهشتْ غُمر برسيم وربّما غمريْن، وعلى إثْر ذلك صاحتْ مبروكة (ابنة عمّتي) من أرضنا تنهرهم بخشونة:

- أبْعدوا جاموستكم يا جاموسة منّك لها، له..

كنتُ مشغولًا بتنظيف مَربَط بهائمنا من الرّوث كإجراءٍ رسميّ يوميّ لا بدّ منه علّمني أبي إيّاه، وهو بمثابة توقيعٍ في دفتر حضورِ الغيط..

التفتُّ أتابعُ المسرحية التي قد يُرفع ستارُها الآن، فوجدت الثّائرة مبروكة توجّه كلامَها لعيد وأختيْه الذين يلعبون في أرْضهم مُتجاهلين فعْلَتهم النّكراء.. لكنْ ما دام زمامُ المعركة في أيدي الفتيات فلن يتعدّى الأمرُ

الشتائمَ الطائرةَ «جَوّ جَوّ» وربّما قاذفة «شبشبيّة» طائشة، وتنفضّ الحرب مبكرًا، ويعلن قادةُ الطّرفين الانسحابَ، وعلى ذلك واصلتُ عملي غاضًّا الطرفَ عن مبروكة وجارتينا الشّقيات.

صاحتْ خضرة (أخت عيد الكُبرى) بصوتها الجَهير، واضعةً يديْها على خصْرها مع هزّة لها مغزى لكتفيْها وعنقها ووسطها:

- الجاموسة هي أنتِ يا مبروكة، والجحشُ الذي معك..

نعمْ بالضّبط، الجحشُ المقصودُ هو أنا.

تركتُ الفأسَ من يدي ليسقطَ وسط كومةِ الجَّلَّة ونفضتُ الرّوث العالقَ بقدمي، واستأذنْتُ الجاموسة والبقرةَ والأتان والعنزات، وقد تهيّأت للمعركة التي اكتملَ نصابها؛ فحشري في آتون الحرب بهذه السرعة وبتلك الإهانة؛ مبررٌ كافٍ ودعوةٌ جادّة متعمّدة لدخولي فيها؛ فأهلًا بالمعارك.. استدرتُ صائحًا موجّهًا كلامي لأخيها حتى يكون الكلامُ من عيِّل لعيِّل:

- لِمّ بهائمَك يا عيد.. وإلّا ربطتكم جميعًا مكانَ الحمار.

خططُ معاركنا صارتْ محفوظةً للفريقين؛ فمِن جهتي خلعتُ جلبابي وألقيتُه على سطح البرسيم، ومِن خلفي تأهّبت لمساعدتي مبروكة؛ فشمّرت أكمامَها كأنّها مقدِمَةٌ على نوْبة غسيلِ مواعين، واتّجهنا إلى الميدان متبخْترين.

وأمّا الولد عيدُ فألقى بقطعةِ الطّين التي كان يصنع منها «جرارًا» واقترب ليواجهني، ومِن خلفه أختاه الشّرستان، كلّ منهما قد خلعتْ

شبشبَها، وأمسكتْ به في يدها كسلاحٍ وحيدٍ يستخدمُه البنات في مثْل هذه المواجهات.

التقيْنا على السّكة المجاورة للقناة المارّة بجوار الحقليْن باعتبارها أرضًا محايدة، وبدأت المعركةُ دون كثير كلام.. لكمتُ «عيد» ولكمَني وصفعتُه وصفعَني، ثمّ انقضضْتُ عليه مستغلًّا طولي كالعادة، وأسقطتُه أرضًا، وجثوتُ فوقَ صدْره في غضونِ ثوان، بحيث أجذبُ إحدَى بنتي شعبان نحوي كي تحاولَ تخليص أخيها فأناوشُها، وبالتالي لا أدعُ للاثنتين فرصةَ الانفراد بمبروكة، وإلّا أسفَّاها ترابَ السّكة وأطعماها النّجيل، وسقَياها من القناة.

بشراسةٍ معتادة، قفزتْ مبروكة نحو خضرة وجذبتْها من شعرها الأكْرت، والفائز في النّساء مَن تسبق الأخرى إلى شعْرها، ثمّ ناولتها ضربةَ «مقصّ» من أسفلها فتطوّحت خضرة، وسقطتْ «زرْعَ بصل» بجوار القناة، وبركت فوقَها مبروكة.

أمّا شربات– أصغرُنا وأطولُ البنات– واصلتِ اللّكمات الناعمة، وأحيانًا العضّ والخمشَ في ظهري وقفاي كي تشتّتني وتخفّف صفعاتي عن أخيها، ولم تستخدمْ– مشكورةً– مداسَها لأنها تعرف أنّ هذا لا يليقُ مع الصّبيان، ثمّ قفزتْ سريعًا لفعل الشيء نفسِه مع مبروكة، وبالطبع دونَ تردّد في استخدام «الشّبشب»؛ فناولتْها مبروكة لكمةً عنيفة في أنفها؛ فأسقطتها ناحيتَنا دائخة.

لمحتُ مِن موقعي فوقَ صدرِ الولَد عيد دماءً بدأتْ تنسلّ من أنف الصّغيرة شربات وهي لا تشعرُ بها؛ فأردتُ أن أوقفَ المعركة؛ لأنّ ظهور

الدّماء بمثابة إعلانٍ تلقائيّ لوقف إطلاق اللّكمات، لكنّني فوجئت بلكمةٍ رائعة في ذقْني من السيّد عيد القابعِ تحتي، والذي عوّدني مثل هذه المفاجآت في اللكمات؛ فترنّحت وسقطتُ بجَواره واعْتَلاني القردُ في ثوان؛ فنسيتُ أمرَ شربات وانشغلتُ بإعادة الوضْع على ما كان عليه.

كانتِ العادة أنْ أتعب أنا ومبروكة باعتبار أنّنا الأكثرُ جهدًا في المعركة، وتتعب شربات من السعي بين الجبهتيْن؛ فأخْلي سراحُ عيد، وينهضُ نافضًا عن نفسِه التراب، ويتحرّك ثلاثتهم مهمْهمين إلى حقلِهم مزهوّين وكأنّهم همُ الذين انْتصروا، رغم أنّنا المنتصرون بفارقِ النقاط.

الجديدُ اليومَ أنّ السّيدة العفيّة مبروكة بعد أنْ أصابت شربات في أنفها تمرّغت مع خضرة دورتيْن على السّكة الصغيرة، التي نسمّيها المَحَدَّة؛ فسقطتا في القناةِ الصغيرة، ورغم أنّ كليْهما سبحت في الماء وابتلّت ملابسُها ذاتُ الألوان الزاهية إلّا أنّ المواجهة ظلّت مشتعلة، ولم يستطعِ الماء والوحلُ أنْ يطفآها، وكانتْ للسيدة مبروكة اليدُ العليا في المعركة توالي صفعاتها بلا رحمة على وجْه خضرة، ما دفعَ الآنسة الصّغيرة المدلّلة شربات، التي فقدت الأملَ في تحرير أختِها من مخالب مبروكة، وكذلك أفجعَتْها قطراتُ الدّماء التي سقطتْ من أنفها وظهرتْ كبقعة حمراء على ذقنها ووجهها الأبيض؛ أنْ تبحث عن شيء تضرب به هذه المصارعة يكون أقوى من نعْلها الطّري.

ورغم أنّ استخدام أيّ سلاح غير «الشّبشب» يعدّ مخالفةً صريحةً لميثاقنا غير المكتوب الخاصّ بالمعارك؛ لكنّ شربات المكلومة في أنْفها وأختِها التقطتْ غطاءً معدنيًّا يبدو أنّه كان لصفيحةِ سمْن، وألقتْه من موقعِها نحو مبروكة.

ولعبَ حظّ المبتدئين دوْرَه لصالح الرّامية شربات، وربما جاءت دقّة الرّمية بسبب خُضرة عينيها التي توافقت مع خضرة المكان؛ فأفلحت الجميلةُ في صيدِ مبروكة بشكلٍ مباشر كأنها تتدرّب على قنصها منذ عام؛ فرشقَ سنّ الغطاء الصّفيح في وجْهٍ مبروكة القمحيّ المتورّد، أو الذي كان متورّدًا.

أطلقتْ مبروكة صرخةً مدوّية أفزعتنا، فدفعتُ الولدَ عيد وقفزتُ نحْوها لأكتشف أنّها أصيبت في وجْنَتها بجرحٍ صغير، لكنّه غائرٌ أفسح المجالَ لتدفّق نهر دماءٍ من وجهها.

حلّ عيد النّذل بهائمَه وحمارَه الرقّاص وهربَ مسرعًا، وخلفه خضرةُ من المكان، ورفضتْ شربات أن تلحقهما ووقفتْ مكانها تبكي؛ لا أدري على حالها، أم على حالِ مبروكة ضحيّتها؟!

انشغلتُ بوقف نزيفِ الدّماء بماء القناة، ثمّ دنتْ شربات وهي على حالها في البكاء تمسح أنفَها بطرف ثوبها المزركش، وتناولني طرحتَها كي أربطَها على جرحِ مبروكة.. وأخيرًا وصل عمّ صبحي ليعيننا في نقلِ المصابة إلى الدّار.

حضرَ عمّ مستكاوي الحلّاق ضاحكًا كعادته مُستهترًا بالإصابة:

- والله سليمة إنْ شاء الله.

طهّرَ الجرحَ بملوّثاته الطبية، ووضعَ لها قطنًا ولصقًا، وهي تسأله أثناء إتمامِه التّعقيم:

- هل سيشفى الجرحُ قبل العيدِ يا عمّ مستكاوي؟

- بل قبل رمضان..

- كمْ يومًا؟

- عُدّي على أصابعك سبعةَ أيّام.

- هل سيبقى له أثرٌ في وجهي؟

- سيكون أجْمل.

نظرتْ إليه مبروكة مفتّشة في أسنانه الصّفراء كأنها تعايرُ حجمَ الحقيقة بحسبِ اتّساع بسْمَته؛ فالحلّاق لا تستطيع أن تنتزعَ منه الحقيقةَ بسهولة؛ خاصّة عمّ مستكاوي المستبشر دائمًا، وصاحب أكبرِ رصيدٍ من المجاملات والكلام الأنيق.. ثمّ التفتتْ مبروكة إليَّ بعدَ انصرافه وانصرافِ أمّي خلفه تُعطيه كَوزَيْن ذُرة.

- هل عاقبني اللهُ لأني أشعلتُ المعركة؟

هززتُ كتفي أبْدي جهالتي، فأردفتْ:

- أو ربّما لأني لكمْتُ البنتَ شربات بقسوة؟

هززتُ كتفي وقلّبت شفتيّ ما يعني (لا أدري) أيضًا.

- لكنّهم الذين بدأوا، فلمَ لم يصابوا مثلي؟

هززتُ عُنقي بالإيجابِ مؤيّدًا للسّؤال المنطقي، لكنْ ليس عندي إجابة.

شردتِ الجريحة وهي تتحسّس الضّمادة، وتنفخ غاضبةً ناقمةً على حظّها العاثر، ثمّ عادت تسألني:

- إذًا، لو لم أشتمْهم لم يكونوا ليشتموني، ولم نكنْ لنضربهم، ولم أكن لأصاب.. صحيح؟

أحْرجتني بأسئلتِها الكثيرة المعقّدة، فأنا فطِنٌ وأعرفُ كلّ الإجابات لكنّ ما تقوله غامضٌ ومثيرٌ ومنطقيّ.

- أجبْني أيّها الأحمق.

- لا أعلم أيّتها الغبيّة.

عادتْ مبروكة لشرودِها وتحسّسها لسطح الجرح، وشردتُ أنا مع أسئلتها المحيّرة، التي ألقت بذرةً في صدْري بدأتْ تُفسح لنفسِها حفرةً في تربةِ قلبي وتحرثُ لها خطًّا مستقيمًا- وربما معوجًّا- إلى عقلي وعلى لِساني، وبدأتُ أسأل نفسي منذُ يومها كلّما حلّ حالٌّ أو حدث حادثٌ تافهٌ أو عظيم:

- لماذا...؟

***

(٢)

إنّها وقفةُ العيد في الثمانينيّات، وما أدراكم ما أعيادُ الثّمانينيّات!

أرضٌ ملوّنة شبيهةٌ بالسّماء، وهواء معطّر يعمّ الأرجاء تنفثُه ملائكةُ الفرحة في أركانِ كوكبنا البدين الحزين، فيدخلُ بردًا وسلامًا وأحلامًا وأنغامًا في صدور جائعي السّعادة؛ فيشبعون وينعمون، وربّما ينامون ويتوهّمون أشياءَ على غير حقيقتها، وتتحوّل كسراتُ الخبز اليابسة بين أصابعهم المشقّقة قطعًا من اللّحم المشوي، وتتحوّل لفحات بردِ الشّتاء على جلودهم المجعّدة العارية إلى دغدغةٍ مدهشة، ويتحوّل لفْحُ هجير الصّيف إلى نسيمٍ منعش.

إنّه سحرُ الفرحة بالقليل يا سادة.

جلستُ أنا ومبروكة على أريكةِ عمّ «غالي» الخياط ساعتين متّصلتين بشارع علي حسنين بـ(الدلنجات) في انتظارِ ضربةِ مقصّه الأخيرة في أقمشتنا الجديدة.

هو يتحدّث مع جليسه العجوز عن آخرِ أخبار المشير أبي غزالة جارِه اللّصيق وابنِ مدينتنا الذي رفع شأنَنا وصيَّتنا، وعن وقائع مناوشاتِ بلديْن مُسْلمين جارين يأكلان بعضَهما، وعن ضربِ الأمريكي «ريجان» لجارتِنا من الناحية الغربيّة بدعْوى أنها شاركتْ في مقتل جنديّين أمريكيّين مخمورين بإحدى الدّول الأوروبية.

أمّا نحن، ففي عالم آخر نهزّ أرجلنا كبندولِ ساعةٍ قديمة «مخرّفة» تسرع حينًا وتبطئ حينًا، ونتلفّت هنا وهناك نملأ عيونَنا ورئتينا بعطْرِ الفرح المتناثر حوْلنا، ونطربُ آذاننا بصيحات الأولاد وضحكات البنات وفوْضى الزّينات والإعلانات.. يسحرنا ذاك الضوءُ البارق في عيون المفتّشين عن لحظاتِ السّعادة في كومةِ قشّ الزّمان، والتي ستهلّ غدًا مع تكْبيرات العيد.

بين كلّ دقيقتين، تجسّ مبروكة النّدبة الصغيرة التي في وجْنَتها وقد فكّت عنها الضّمادة منذ أسبوعين؛ فتقطّب جبينُها مُنزعجة، ثمّ تسألني للمرّة المائة:

– النّدبة ظاهرةٌ يا هاشم؟!

أهزّ رأسي نفيًا بطريقةِ مَن ملّ تكرارَ إجابةٍ بعينها، وهو يعلمُ أنها إجابة كاذبة..

أخيرًا، أنهى عمّ غالي جلبابي الصّغير (البِنِشْ) وأنهى لابنة عمّتي فستانها، ووضَعَ كليْهما في لُفافة وسلّمهما لنا.

– كلّ سنة وأنتما طيّبان.. سلّم لي على أبيك يا هاشم.

دقّق العجوزُ النظرَ في وجه مبروكة، وقد أدركت أنّ النّدبة لفتتِ انتباهه؛ فخشيتْ أن يقول الرجلُ جُملة تؤكّد وجودَها؛ فتعكّر على الصّبية مزاجَها المعكَّر بطبيعة الحال:

– غمّازتك جميلةٌ يا جميلة.

ابتسمتُ مرتاحًا لمجاملتِه الرقيقة التي تشبه مجاملاتِ مستكاوي الحلّاق، لكنّ ابنة عمّتي قليلة الذّوق ردّت هديةَ الرجل بتبرّم، وقالت وهي تخطفُ فستانها من يدِه:

- هذه ليستْ غمّازة يا عمّ؛ هذه ندبة.

انحنى العجوزُ مقتربًا منها:

- ما ترينه أنتِ ندبةً قد يراه الآخرون غمّازة.. أليس صحيحًا؟

صاحتِ الغبية كأنها تريد أنْ تشتبك في معركةٍ مع عمّ غالي:

- أنا لا أراها يا عمّ؛ أنا أشعرُ بها.. هي جزءٌ من وجهي الآن، وأنا أعرفُ أنها ندبةٌ قبيحة، وأعرف أنّ العواجيز أمثالَك يكذبون عليَّ.

ظلّ الرّجل هادئًا باسمًا، وكرّر واثقًا:

- الأشياءُ ليست دائمًا على ظاهرها يا عروس.

لم أفهمْ جُملته الغامضة، لكنّها بدتْ جميلة، وثقتُه جعلتها أقربَ للتّصديق، وبدأت مِن حينها أحاول أنْ أرى ندبةَ مبروكة السّاكنة في وجهها غمّازة، ولو بالخداع، حتى إذا كذبتُ عليها بعد ذلك بشأنها أكونُ أكثرَ إقناعًا.

***

عدْنا أدْراجنا سيرًا على الأقْدام عبر طريقِ قرية (إبيا الحمراء) مُستهدفين بذلك مطّ ساعات الأفراح بقدْر الإمكان، وتوفير ثمنِ المواصلات لنعمّر حصّالة العيد.. راجعنا أثناءَ الطريق التّرابي الطويل جدولَ أفراحِنا المتوقّع

غدًا، اقترحتْ مبروكة رحلةً قصيرة إلى أختها بإيتاي البارود تحصلُ فيها على عيديّة جيدة من أختِها السّخية ربّما تصل إلى ورقةٍ بربْع جنيه، وستشاهد فيلمَ أميتاب باتشان في التّلفاز الملوّن، والذي ينتهي قربَ المغرب ثمّ تعود..

التفت لها غاضبًا:

- ألن تحضري المباراةَ يا خائنة؟

أشاحتْ برأسها نفيًا واستهزاء:

- لن أضيِّع «العيد» في التّصفيق لك أيها الأحمق.

ضايقني استهتارُها بالمباراة التي أنتظرها منذُ شهور، فهي بالنسبة لي نصفُ عيدي، ومبروكة هي التي تحمِلُ لي بلغتي، وتُغري الجمهور بالتّصفيق لي على تسديداتي الغبيّة، فقلتُ لها مغاضبًا:

- هذا أفضلُ؛ فمثلك يجلبُ لي النّحس.

- اسم الله عليك، أنتَ النّحس نفسه.

سكتْنا قليلًا كأنّنا تخاصمنا، ثمّ عدْنا لحالتنا ثانيةً بعد ثوانٍ كأنّنا تصالحنا، فقرأتُ عليها جدْولي بعد المباراة التي سُنقيمها في جُرْن عمّ حمدي في مواجهةٍ فتية عزبة الشفيعي:

- سأشتري مسدّسًا من مكسب المباراة، وإن تبقّى مال سأعطيه للولَد عمر ليؤجّر لي دراجته الجديدة أو يدعني ألعبُ على كمانِه الحزين، ثمّ أقضي بقيّة اليوم بجوار أبي.

تضاعفتْ فرحتنا برؤية مواكبِ الحمير المحمّلة بدريس البرسيم على السّكك متّجهة إلى الحظائر استعدادًا لـ«بيات عيدي» مدّته يوم أو يومان، وكشفتِ الأدخنة المتصاعدة من الأفرانِ عن الكسالى المتأخّرات في إنجاز مهمّة الكعك والبسكوت و«القراقيش»، وزادتْ ضحكات الفتيات المتمايلات ذهابًا وإيابًا إلى شواطئ الترع بزِلَعهنّ البنّية والآنية النّحاس؛ الأجواءَ بهاءً وجمالًا.

واصلنا اختراقَ الحقول والتّرع والقنوات والجسور وأجرانَ العِزب، من «إبيا» إلى «لاشين» إلى «إسكندر»، ثمّ عرجنا على حقْلنا القبلي كي نحُشّ حملي برسيم للبقرة والجاموسة والأتان والماعز ونأخذهما إلى الدّار ليأكلوا منْهما أثناء انشغالنا عنْهم بالعيد، وحتى لا يضطرّ أبي الحبيب في أيّام إجازته أن ينزلَ الغيط.

الطريقُ أمان، والفرح ونسٌ وسلطان، وأيّام العيد وسطَ الفلّاحين كالأشْهُر الحرم لا خوفَ فيها ولا عراكَ ولا أحزان، بل تصيرُ الابتسامات مجانيّة والتّهنئات عابرة للتّرع وأشجار الكازورينا (الجازورين) والغيطان، وتميل القلوبُ للمسامحة والصّفح ونسيانِ ما فات، لكنّ السيدة مبروكة التي تتحسّس وجنتها من حينٍ لآخر لا يزال قلبُها يشتعلُ على مَن حفرت لها ندبتَها الصغيرة.

لمحتْ عيني من بعيدٍ سيئةَ الحظّ شربات، التي جلست بمفردِها هذه العصريّة خلفَ جاموستهم وهي تغنّي وتهزّ جذعها الطّويل في انتظار عيد وخضرة اللّذين ربما ذهبا بحمْل البرسيم إلى الدار.

ألقتْ مبروكة لفافةَ فستانها في وجهي، واندفعتْ مسرعة نحو شربات كفهدٍ رأى فريسته عالقةً بين الأشْجار.

ولم أنتبهْ لمرادها الشّرير إلّا عندما رأيتها باركةً فوق صدْر الصبيّة في لحظاتٍ تضربها على وجهها بشكلٍ مُتَسارع، وهدفُها أن تحفرَ في وجنَتِها حفرةً كالتي حفرتها شرباتُ منذ أكثر من شهر.

هُرِعت ناحيتَها مُتقافزًا، ورفعتُها من فوق الصبية.

- كفى يا مبروكة.

صاحتْ وهي تدفع يدي عنها:

- هذا ثأري.

- هذا غدر.

- ليس غدرًا يا أحمق؛ هذا حقّي.

- خذيه في معركة.

- سآخذُه الآن.

- وهي وحدها؟

- ليس لك شأن.. سأنال منها بنتَ الـــ...

أرادتْ أن تندفع مجدّدًا نحو الصبية، وتعاود لَكْمها فأمسكتُ ساعدها أوقفها، واعتدلت شربات واقفة متأخّرة خطوات، وقد اتّسعت حدقة عينها

معلنةً في ثباتٍ استعدادها لمواجهة الضّربات بضربات رغم هزالها مقارنةً بمبروكة، ورغم احْمرار وجهها من أثر الصّفعات.

نزعتْ مبروكة يدَها من قبضتي بعنف والشّررُ يتطايرُ من عينيها، متّجهة إلى شربات كي تستأنفَ حربها، فجذبتُها ثانيةً للوراء وقدِ اتّسعت عيني معلنًا أنّ الأمرَ قد يتطوّر إلى عِراك بيني وبينها:

- قلتُ لا تضربيها.

ثمّ التفتّ إلى شربات المتحدّية المتجمّدة مكانها:

- اذهبي إلى أرضكم يا بنت.

ردّت بقوّة:

- أنا في أرضنا بالفعل.. أنتما الدّخلاء.

فعلًا نحنُ في أرضهم.. زامتْ مبروكة متضايقةً من تحدّي الصّبية لها، فسحبتها للوراء إلى حقلنا وهي تحاولُ نزْعَ ساعدها وتصيح:

- اتْركني أيها الغبي.

سبّ مبروكة ليس غريبًا عليَّ ويلقى دائمًا عندي ترحيبًا كأنها تطريني، لكنْ أن تفعل ذلك أمام الغُرباء؛ فهذا مُزعجٌ لفتى مثلي يظنّ نفسه ذا هيبةٍ في المكان:

- اسكتي يا مبروكة.

- وإنْ لم أسكت؟

قالتْها وقد وضعتْ راحتها على خصْرها في وضع تحدّ، وقد حوّلتني فجأة إلى خصم لها في أوّل خلاف، وقد أدركت بعد ذلك أنّها عادةُ النساء.. ولم يعدْ لديها مانعٌ أن تدخل معي في عِراك؛ فهي تعرفُ بدايةً أني يستحيل أنْ أضربها، لكنْ أمام هذا الاستفزاز قد أكونُ شخصًا آخر هي تعرفُه جيدًا.

حدجتُها بنظرةٍ فهِمَتْ مغزاها؛ فأنزلت يدَها وسحبتْ لفافةَ فستانها بغضب، وانسحبتْ من أمامي متّجهةً إلى الدّار لتترك لي عبء حشّ البرسيم وتحميلِه على ظهر الأتان ورواح البهائم نوعًا من العقاب.

***

- متشكّرة يا هاشم.

التفتّ نحوها أبلعُ لعابي وأستردّ هدوئي؛ فلأوّل مرّة أشعر أنّ تحية الأنثى الغريبة لها مذاقُ السّكر واللبن الصّابح وقضمة من قلب الخسّ.. أحسستُ- وأنا على وشكِ بلوغ الحلم- أني فارسٌ يشبه الفارس «ماندو» في ألفِ ليلة وليلة، والذي حكى لي عنه عمر ابن عمّي منذ عام.

هززتُ رأسي مزهوًّا بامتنان الصّبية الطويلة ذات العيون الخضراء، وملامح وجهي تقول: (هذا واجبي فأنا حامي حمى العدالة في محاكم العيال).

***

(٣)

وقفتْ مبروكة متسمّرة تنظر إليَّ وأنا أنْزِلُ حِمْلَ البرسيم في ركن الحظيرة كزوجةٍ عاد زوجُها في ليلة مولِد وعلى شاله رائحةُ عطر نساء؛ فمبروكة تدرك أنّ حِزَم البرسيم من الصّعب أن تُرصّ على ظهر الأتان دون مساعدةِ شخصٍ آخر، والآخرُ هذا في الغالب شربات؛ فلم يكنْ في الغيط غيرها، وشربات بالنّسبة لمبروكة عدوّان مركّبان وليست عدوًّا واحدًا؛ فهي من ناحية صاحبة النّدبة الواضحة في وجهها والتي تشكّل هاجسًا للسيدة مبروكة التي كبرتْ مبكرًا، ومن ناحيةٍ أخرى شربات مرشّحة لتكون أجملَ بناتِ العزبة دون منازعة بسبب لوْنِ عينها وشعرِها الاستثنائيّين، ما يجعلها خطرًا مستقبليًّا عليَّ؛ فقد أميلُ إليها أو أمتدحُ عينيها كسائر صِبيان العزبة الأوغاد.

سألتني:

- مَن ساعدك في رصّ البرسيم؟

تثاقلتُ عليها ولم أردّ معلنًا غضبي من تصرّفها في الغيط، وإمعانًا في تكثيف توتّرها.. أعطيتها حبلَ البقرة مؤقّتًا حتى أربطَ الجاموسة في وتدِها، فجذبت الحبلَ بعنفٍ ما أثّر على أذن البقرة التي هزّت رأسَها، وأعادت السّؤال بغيظ:

- مَن رصّ معك البرسيم يا زفت؟

زدتُ في برودي، وأخذت منها حبلَ البقرة لأربطها أمامَ المزْوَد الطيني.. ثمّ أجبتُها في غير اهتمامٍ وأنا أفرِغ شكارة التّبن في مزْوَد الجاموسة، مدركًا وقْعَ الإجابة عليها:

- الجميلة أمّ عيون خضراء.

غضبتْ، بل لم تغضبْ؛ هي بطبيعتها تتنفّس غضبًا، تهزّ جذعَها، تضرب بقدميها، تفرُك ذراعيها، تنفثُ هواءً كحصان أنهى سباقًا لتوّه.

- أنت قليلَ الأدب.. وصدقَتْ مَن وصفتك بالجحْش.

رغمَ أنّها ابنة عمّتي، وتقف على عتبةِ الحادية عشرة مثلي، لكنّها تعاملني كأخيها الصّغير، وأحيانًا كحبيب، وأحيانًا كخادم في عزبة أبيها رغمَ أنها تعيش في دارنا وليست دارَ أبيها الموكوس الفقير، ولكنّني رغمَ ذلك أتحمّلها في كلّ الأحوال، وأكون معها أحلمَ الرّجال؛ فهي بالنسبة لي شيء أكبرُ من كلّ هذا، وأجملُ من كلّ الجميلات؛ حتى من شربات.

جذبتني مِن ذراعي مهدّدة:

- لا تتكلّم مع هذه اللئيمة ثانية.

قلتُ أغيظها مستعدًّا للهروب:

- تقصدين أم عيون خضراء!

أمسكتْ بحزمةِ برسيم، وألقتني بها تجاهي:

- يا بارد.

فقفزتُ من أمامها ضاحكًا.

***

جلستُ أقيسُ ملابسي أمام أمّي وعمّتي مرّة واثنتين وثلاثة، وكالعادة ظهرَ (البّنش) قصيرًا عليَّ لأن عمّ غالي الخياط لم يتوقّع أنّ هناك صبيًّا في هذا السّن بهذا الطول وذاك العرض؛ فيغالط حساباتِ شريط المقاس ويؤول النّص فيزيدُ في القصّ.. لكنّني أتقبّل الأمر سعيدًا وأبلعُ الصّدمة بنصف كوبٍ من عشب الفرْحة التي لن يستطيع طارئ أو مخلوقٌ أن يغيّر طعمَها، فهذه اللحظاتُ المقدّسة يجب أن ننزهها عن تلك الرّغبات السّفسافة التي لا تُسمن ولا تغني من سعادة.

أيضًا في هذه الليلة الطيّبة أتنازل عن كثيرٍ من طقوسي، وأتخلّى عن معظم مبادئي الدّستورية الموقّعة في وثيقة العيال؛ فلا أطيلُ البقاء في الأجران أو علَى شونة القشّ مثلَ سائر الأيام، فقط نجلس قليلًا في ميضة المسجد أنا وعمر وسعد، ويجلس معنا الولَدُ عيد، على غير رغبةٍ منّي، ويجلس بجوارنا الولَد أنور الذي لا يلعب، لكنّه يستمتع بمشاركتِنا من بعيد، ويرحّب بأيّ تكليف فيذهب للاتّفاق مع الحكم أو يجمع الاشْتراك أو يحمل الملابس. نضع الخطّة الذهبية لمواجهة الفريق الغريب، ونوزّع مواقعنا متعاهدين أن يبذلَ كلّ منّا قصارى جَهْده لقنْصِ الانتصار، وأن نتبادلَ حراسةَ المرمى دون تمنّع أو شجار، وأن نتناسى ضغائنَنا حتى نهاية المباراة، فنؤمّن على وصايا «عمر» الرّشيدة ونقرأ الفاتحة، وأنا أحدج الولَد عيد.

أعودُ للمنزل بعد إتمام الخطّة، دون أن تستدعيني أمّي بسبابها و«زعابيبها»، بل إنّني في تلك الليلة المباركة أستسلمُ لحمّام الماء المغلي- رغم أنّنا على أبواب الصيف- بإشارة من أمّي، وأتنازل عن رجولتي مؤقّتًا وأوافق أن تغسّلني

بنفسِها في ركن الحظيرة الفسيح؛ فلا أناكفُ أو أشاغب أو أعارض وأجلس في الطّست الألومنيوم باسترخاءٍ تامّ ورضا كامل مُسْتمتعًا بأغنية (ثومة) التي تتسلّل إلينا عبر كوّة الحظيرة التي تفصلُ بيننا وبين جارنا شعبان من تِلفازهم الجديد: «يا ليلة العيد آنستينا».

لكنْ سَرعان ما يتبخّر هذا الاسترخاء وذلك الرّضا مع أوّل جولة في الاستحمام!

ففي الغالب، لم تكنْ أمّي الموقّرة (الموفِّرة) تستخدمُ ليفة طبيعيّة كالتي يتليّف بها خلق الله، بل كانت تجمعُ أعوادَ قشٍّ يابسة قدْرَ قبضتها وتُحْكم ربطها ثمّ تبلّها ثمّ تدعكُها في اللّوح الخشبي الذي تجلس عليه أثناء تغْسيلي؛ فتصير حزمةُ القش أكثرَ نعومةً، ثمّ تبدأ في الانتقام من الوساخات المتراكمة على جسدي متناسيةً أنّه جلدي الأسمر بطبيعة الحال.

وفي الغالب أيضًا لم تكن أمّي تستخدم صابونَ حمّام معطَّرًا كالذي يستخدمُه قريبنا الثّري عمر ابن الحاجّ فؤاد، أو حتّى كالذي يستخدمه الولد عيد بن شعبان وأختاه، والذي كنّا نتشمّم رائحتها بعد دلْق ماءِ الغسيل في الأجْران، بل تستخدم صابونَ غسيل صُلب كالحجر، وهو قطعةٌ ثقيلة مكعّبة مخصّصة في أصل خلقتها لغسْل الأواني، لكنِ استطاعت أمّي المدبّرة أن تطوّر تصميمه وتحوّل استخدامَه كي يصلح للغرضَيْن!

تشاغبني كي تلهيني عن مأساة الاستحمام وفضيحةِ أنها تغسّلني بنفسها وأنا في هذه السّن، وفي الحظيرة وسطَ البهائم، وعلى مسْمعٍ من بنات شعبان؛

فتقترحُ عليَّ أنْ تأتي بمبروكة كي تقفَ للفرجة عليَّ؛ فأصيح في أمّي، فتنادي مبروكة كأنها جادّة لتزيدَ استفزازي، فأصرخُ فيها، فتضحك أمّي وعمّتي وتصمتُ الآنسة مبروكة الغاضبةُ منّي بسبب موْقعة شربات.

تبدأ الملحمةُ الحقيقية عندما تنقل الماءَ السّاخن من الحلّة النحاس إلى الكوز الألومنيوم إلى رأسي الكبير وشعري الطّويل النّاعم الذي لا أملك ميزةً جَمالية غيره؛ فتأكلُ الماءُ رأسي، ويتدفّق الصابون إلى وجهي، ومعه الوساخات، ثمّ يتسلّل عبر نوافذَ جفوني، فأصيح فيها وهي تحكّ فروتي كأنها تغسل ملابس أبي:

- حرام عليكِ، لمَ تفعلين بي هذا؟!

تُضحِكُها استغاثتي وأنا العنيدُ الشّقي.. فأتوعّدها- كما تتوعّدني دائمًا- بأني سأخبِرُ أبي، الذي سيصلُ بعد قليل من سفَرِه الطويل.

وأثناءَ ذلك الشّجار أسمعُ تعليقاتِ مبروكة السّاخرةَ من الخارج التي أنهت جولةَ اسْتحمامها بهدوءٍ تامّ ودون أيّ خسائر تُذكر، بل دونَ اعتمادٍ على أمّها؛ فقد صارت آنسةً كبيرة؛ فتضحك الماكرةُ ملء فيها على وضْعي المزري لتثير استفزازي وتتشفّى فيَّ؛ وتقول:

- ألَا تخجل من نفسِك؛ تُحمِّمك أمّك وقد صرتَ مثل (درفة الباب)!

أكتمُ غيظي قدْرَ المسْتطاع لأنّي عارٍ، وعيبٌ أن أخرجَ من الطست هكذا، لكنّها تتمادى فأهيج فيفيضُ بي الكيل؛ فأسحب أيّ قطعةٍ من ملابسي الملقاة وأضعُها على عوْرتي، وأقفزُ من الطست إليها كي أنالَ منها، فتهربُ من الدّار

إلى السّكة إلى الجرن؛ فلا أستطيعُ الخروج خلفها بحالتي، فتريان بِنْتا شعبان فأعودُ أدراجي مهزومًا إلى طست أمّي.

بعدَ أن تنتهي معركةُ (الغسيل) أصرّ على ارتداء ملابس العيد للمرّة الرابعة كي أراها عليَّ بعد الاسْتحمام؛ فلعلّ بعد إزالة الوساخات تنضبطُ المقاسات.. ثمّ أرتديها للمرّة الخامسة عندما يعود أبي من سفَرِه ليراها، فيبدي إعجابًا مبالَغًا فيه، ثمّ يقبّلني ويطلبُ أن أخلعها فأستجيبُ دون نقاش.

تضعُ مبروكة فستانها في صندوقِ أمّي المستطيل الخشبيّ، وأضع أنا جلبابي وبلْغَتي في ورقة جورنال جلَبَه أبي، ثمّ أجمعهما في حضني وأنام أنتظرُ الأحلام.. فأرى في المنام- كعادتي في تلك الأيام- عجوزًا وسيمًا يرتدي ثوبًا أبيضَ وعمّةً خضراء، يقف على بسطة السلَّم الطّيني، له عطرٌ أخّاذ كعطر الولد (عمر بن فؤاد)، يمسح رأسي مبتسمًا، فأبادره:

- مَن أنت يا عمّ؟

يجيبني بابتسامة، ويستدير منصرفًا، ثمّ يتبخّر طيفُه على طريقة عفاريت «ألف ليلة وليلة».

بعد سويعات.. أستيقظُ أنا ومبروكة على طرْقةِ جدّي عبد الباسط ببابنا وأبوابِ الجيران يوقظُنا لصلاة الفجْر والاستعداد لتكبيراتِ العيد، فأنهضُ سريعًا وأفتحُ عيني بسهولة دون أن أفْرُك رمصًا من عيني ولا غمصًا؛ فأنا استحمَمْت البارحةَ قبل أن أنام، فأكِزُ الحبيبة:

- أمّي.. أمّي

تستيقظُ باسمةً كأنها لم تكنْ نائمة، وتقبّلني:

- صباحُ الخير يا حبيبي.. كلّ سنة وأنت طيب.

تدخلُ مبروكةُ الحجرة على استحياءٍ، فتفتحُ أمّي لها ذراعيها مرحّبة وتقبّلها بحرارة أكثرَ منها معي ما يثيرُ غيرتي لكنّني أكظمها؛ فبحسب تعبير أمّي فإنّ مبروكة شبهُ يتيمة؛ فهي لا تمكثُ عند أبيها الضّرير الشّرير إلّا قليلًا، ثمّ سرعان ما يُغضب أمّها فتأتيان عندنا.

أرتدي جلبابي سريعًا، وأدْخِل رجْلي في البلْغَة البيضاء، وأنتظر حتى تُنهي أمّي إجراءاتها مع مبروكة فتضبطُ شعْرَها وتضعُ التّوكة وتُغلِق سوستة الفستان، وأنا أتعجّلها:

- هكذا لن أدركَ التّكبيرات.

خرجتُ أنا ومبروكة إلى المسجد، وقد تصالحنا ورضيتْ عنّي مؤقتًا، فبحلول صباح العيد نشمّ نسيمًا وليدًا لم يكنْ يأتي إلى كوكبنا إلّا في هذه السّاعات، فتصنع في عقولنا ما تصنعُه المسكرات بعقول الأشْقياء، نشبّك أيادينا وقد ملكنا الدّنيا بين جناحينا، وعند باب الميضة أودّعها لتعودَ وأدخلُ أنا مع الرّجال، فأجدُ أبي والجدّ عبد الباسط وحفيدَه الولد عمر بن فؤاد، كابتن فريقنا وصاحب أفضل جلباب في العزبة وأشْهَرِ عطْر، فأسلّم وأجلس للتّكبير على لحْنِ أبي المحبّب إليّ:

اللـاااااـه أكبر اللـــاااااله أكبر اللـاااااله أكبر لاااا إلاااه إلّا الله

***

(٤)

«العِراك الحلو»، هكذا أحبّ أن أسمّيه؛ لأنّه صار محطًّا رئيسيًّا على سكّة قطار العيد، فمثلما يأتي العيد فتأتي معه الفرحةُ والتكبيرات والثوبُ الجديد والكعك والبُمْب، ويزورنا الأهلُ الغائبون، أيضًا يأتي معه عِراك صبيانيّ يزيد اليوم بهجةً رغم الضّربات واللكمات.

تهيّأنا لبدْء مباراة كرةِ القدم في جُرن عمّ حمدي الفسيح، يواجهنا أندادُنا من عزبة الشّفيعي، وعلى رأسهم ذاك الولدُ «حبشي» الذي ينازعني في الطّول.

تناثرَ جمهورُ العيال حول الملْعب متأهّبين لتهليلات الانتصار وزغاريده، وصعدَ معظمُهم فوق «شونة القشّ» التي تشكّل المقصورةَ الرئيسية لجماهير عزْبتنا، والتي يتجمّع عليها الأولاد والبنات حول شربات متعهّدة الهتافات؛ فالمباراةُ على أرضنا، والحكَمُ من بيننا، والكرة (الكَفَر) ملكُنا، والفريق الذي جاء ليلاعبَنا على جنيهٍ وربعِ الجنيه ليسوا مهَرةً مثلنا، فقط هُم أكبرُ منّا سنًّا، وبعضُهم حجمًا.

تصافحْنا مع الفريق الآخر، وصافح فريقُنا بعضُه بعضًا رغم ما بيننا مِن ثارات، لا سيّما أنا وعيد بن شبعان.. عقدتُ جلبابي على وسْطي مبرزًا ربلتيّ القويتين، وبحثتُ سريعًا عن خُنّ آمن أضعُ فيه بلْغَتي الجديدة خوفًا عليها من السّرقة أو الضياع؛ فلم تكنِ السّيدة مبروكة مديرةُ أعمالي موجودةً اليومَ لتحفظَها لي.

بادَرتني شربات التي رأتني واقفًا في حيرة، فأشارتْ لي من فوق الشّونة:

- اِلقْهما يا هاشم.

وكزتْها أختُها خضرة الجالسةُ بجوارها تمنعُها عن التّطبيع مع (جحش) مثلي، لكنّ شربات كرّرت النّداء متجاهلةً الشّريرة أختَها لتردّ لي جميلَ أمس.

تردّدت قليلًا خوفًا من مبروكة التي قدْ تطبّ في أيّ وقت، لكنّني تذكّرت أنها لن تعود إلّا آخر النهار بعد أن يأذنَ لها «أميتاب باتشان» الذي أسمعُ عنه ولم أرَهُ بعْد، فألقيتُ إلى شربات بفردتيِ البلْغة ونزلت إلى قلبِ الملعب ملبيًّا نداءاتِ عمر.

سقفُ المباراة ٣٠ دقيقة، نحسبُها على ساعة عمر «الكاسيو» أو ثلاثة أهداف؛ أيّهما جاء أولًا، والكرةُ عبارة عن كرتيْن في بعضهما، إحداهما بلاستيك تمّ نفخها في رحم جلْد كرةٍ "كَفَر" قديمة مثْقوبة؛ لهذا فهي ثقيلةٌ بعض الشيء على أقدام فتيانَ في أعمارنا.

ثنى الحكم لسانَه في فمِه وأطلق صافرةَ البداية، وبعد ثلاثِ دقائق فقط سجّل فريق (الشّفيعي) هدفه الأوّل عن طريق الولَد حبشي.. صاح عمرُ فينا- فهو أكبرنا- يوجّه ويحدّد المواقع وينبّه الكسالَى ويسبّ أحيانًا، فرغم أنّه في الحياة خجولٌ للغاية وقلّما يتطاول على أحدٍ أو يُغضبُ أحدًا؛ لكنّه في مباريات الكرة يتحوّل شخصًا آخر.

ألقى عيدُ الكرة فتلقّيتها على صدري وانطلقتُ من جهة اليمين بسرعة البرْق، واعتدلت لأسدّدها بأقصى قوّتي فوجدتُ الجهةَ مسْدودة فمرّرتُها

مضطرًّا للكابتن عمر الذي سدّد صاروخيّة باهرة تعادلنا بها، وعلى إثرها انطلقتْ صافراتُ الجمهور وتصفيقات وتواصل الهتافِ باسم عمر لمدّة دقيقتين، وأنا أحاولُ إخفاء حنْقي فرغمَ أنّي صاحبُ التمريرة لم يذكرْني الجماهير في الهتاف.. إنّه ظلم عظيم، فالحظّ يخدُم شخصًا واحدًا في كلّ شيء؛ فهو أغنانا ويملكُ تلفازًا وكمانًا يعزف عليه، ومتفوقٌ في دراسته، أيضًا يحرزُ الأهداف ويحتكر الهتافَ وينال التّصفيقات، إنّ مبروكة كان معها حقّ في أسئلتها الغاضبة..

لكنْ على كلّ حال فأنا سعيدٌ بتعادلنا.

انطلقتُ أكثرَ من مرّة من جهة اليمين في الجرن الصّغير بسرعتي البرقية فأسدّد فتطيش، وأسدّد فتطيش؛ واستقبلتُ أكثر من كرةٍ عرضيّة وضربتُها برأسي فيتصدّى لها الحارس، ثمّ انفردتُ بالمرمى فانحلّت عقدةُ جلبابي فتعثّرت فيه فسقطتُ ككبشٍ معقود القدمين.

جاء دورُ تبديل حارسنا وخرجَ عيد بن شعبان، ووقفتُ أنا على مَضَض، واستطاع الوغدُ بتصويبة عاديّة، صوّبت مثلها وأفضلَ منها بكثير أنْ يقتنص لنا هدفَ التقدّم.. لماذا هو وليس أنا؟ أُسقطَ في يدي ولم أستطعْ أن أخفي هذه المرّة سخطي.

وبالطّبع عادتِ الأوركسترا البغيضة المتكوّمة على شونة القشّ لتصفّر وتصفّق وتهتفَ باسم البليد عيد بن شعبان، ويقودُهم في التهليل خضرة وشربات.

حاولتُ أن أظهر بعضَ الفرح بوشوكِ الانتصار من موْقعي في المرمى حتى لا أبدو عميلًا للعدو، لكن خالطتْ فرحتي عكارةُ تجهالي والتّنكّر لمجهودي من السّادة الجماهير، وعزّ عليَّ أن تنتهي المباراة دون أن أضعَ بصمةً تليق بمكانتي بين الصّبيان خارج المباراة، لكن ماذا أقول للحظّ الذي يكيلُ بمكيالين فحالف الصّعلوك "عيد" وتنكّر لي، وبالأمس أصابَ المسكينة مبروكة وتركَ الشّريرة خضرة.

طلبتُ التبديل مع سعد بن عمّ صبحي في الحراسة، فلم يتردّد صديقي الجميل وكأنّه شعر بحالتي.

أشار الحكَمُ (باق عشْرُ دقائق).. زاد توتّري مع وشوك الانتهاء دون أن أنالَ تصفيقةً يتيمة من أحد التّعساء المتفرّجين، بل ربّما يسبقني عيد ويُحرز الثالثَ وينهي المباراة، ويظلّ صِبيان العزبة يحكون عن نجوميّته طيلة الأسبوع.. التحمتُ مع هجوم الخصم قرْبَ منطقة جزائنا لأخطفَ الكرة، فسقطَ الكذوب أرضًا ودارَ حول نفسِه متدحْرجًا ككوز ذرةٍ نزعت لفافتُه ليوهِمَ الحكَمَ أنّي أصبتُه وأنّ الإصابة في منطقةِ الجزاء.

وقع الحكَمُ الطيّب في (حيْص بَيْص) فليس لدينا خطوطٌ تحدّد خريطة الملعب وتفصلُ في تلك الإشْكالات، بالإضافة أنّه يخشى أن يُتّهم بالتواطؤ لصالحنا فتهتزّ سمعتُه في المنطقة.. واستغلّ الفريق الآخر حالةَ الحكمِ المتردّد، وأخذوا يتصايحون في وجْهِه كي ينتزعوا منه قرارًا لصالحهم.

لم يكنْ يعنيني صدق ضربة الجزاء من كذبها بقدْرِ ما يعنيني أنّي سأكون المتّهم الأوّلَ أمام عيال العزبة بأنّ ضياع الفوز كان بسببِ رعونتي، وبعد أن

كان تعكّري بسبب عدم إحرازي هدفًا صارَ جلّ أمنيتي ألّا يحتسب الحكمُ ضربةَ جزاء للخصم ويحرز به التعادل، هكذا تتبدّل الأحوال وتتراجع الأمنياتُ بشكل غريبٍ عصيّ على الفهم كأسئلةِ مبروكة المنطقية.

- سكووووت.

صياحي بهذا الشّكل يعني أنّ الأمر لن يحلّ إلّا بطريقةٍ واحدة، وقبل أن يوقفني عمر الذي يعلمُ سجلّ معاركي؛ أمسكتُ بتلابيب كبيرهم الولَد حبشي:

- الكرة ليست ضربةَ جزاء يا كبشَ الأكباش.

باغتني الخبيثُ بلكمةٍ مباشرة في ذقني كلكماتِ عيد المفاجئة خدّلت جسدي وأسْكرتني.. فكانت الضربةُ إشارةً لبدْء معركة شرسة تناوبنا فيها اللّكمات و«الشّلاليت» وتمزيق الثياب، ثمّ توقّفت المعركة بصياحِ عمر:

- كفى يا ولاد الـ..

هدأ الجميع كأنّ شيئًا لم يكن، ونفضَ كلّ ثيابَه، تاركين الأمرَ للسيد عمر العاقل الذي ردّ القرار إلى حِجر الحكم كي نُكمل الدّقائق المتبقية من المباراة؛ فنحن على حدّ زعمه جئنا لنستمتعَ لَا لنتشاجر؛ فأشار الحكمُ الأحمق إلى الأرض بأصبعِه مشيرًا أنها ضربة جزاء. وبالطبع سكنتْ في شباكنا؛ فصديقي سعد حارسُ المرمى لا يجيد إلّا شواءَ الذّرة.

عدْنا للتّعادل الباهت، وصرتُ أنا الملومَ الأوّل على ما حصل كما توقّعت، وعاد عمر لصياحه فينا وسبابِه بكلماتٍ قبيحة غريبة عليه مؤكّدًا أنّنا سنحرز

الهدف.. أمضيتُ الدقائق زاهدًا فنحنُ سنصير إلى ضرباتِ الجزاء لا محالة، وليس عندنا حارسُ مرمى يتصدّى لها، فنحن مهزومون يقينًا.

وبينما أقفُ كخيال المآتةِ يائسًا أمام مرمى الخصم إذْ بالدفاع الجميل يُبعد كرةً عن مرماه بضربة صاروخيّة؛ فترتطم الكرة الكريمة برأسي الكبيرة دون قصدٍ منّي فتسكنُ مرمى الخصم بهدوء.

تجمّدتُ مكاني لحظة؛ أعالج أثرَ الكرة التي أداختني أولًا وأعالج أثرَ المفاجأة المبهجة ثانيًا؛ فأنا الآن أحرزتُ هدفًا؛ بل هدف الانتصار دونَ كبيرِ جهدٍ ودون جري أو تسديدات.

سكتَ الجمهور قليلًا كأنّهم في انتظار صافرةِ الحكم التي تؤكّد تسجيلَ الهدف، أو ربما في انتظار مَن يستفتح الهتافات، فأشار الحكمُ بالهدف، وصاحت شربات رضي الله عنها:

– هاااشم.. هاااشم.. هاااشم

انطلقَ خلفَها الجمهور، وتوالتْ أصوات الهتافِ باسمي مع صافرة الحكم الذي أعلنَ انتهاء المباراة بهدفي العبْقري، وحمَلَني أنور وعمر على كتفيْهما ودارا بي في الملعَب كأني صاحبُ الإنجاز الوحيد، وأنا مُنْدهش من تبدّل الحال بهذه الطريقة العجيبة لصالحي، والتي قد تجيبُ على معضلات مبروكة، سعيدٌ بصياحات الجماهير من فوق الشّونة، خاصّة البنت شربات التي خصّتني بتلويحات التهنئة.

***

(٥)

رحلَ العيد سريعًا كعادته قبل أن ترحلَ شمسُ نهاره؛ فقد أدركنا مع التّكرار أنا ومبروكة وكلُّ صغار قريتنا الشّطار (عدا عمر الثري) أنّ العيد ينقضي بمجرّد دخوله؛ فلحظاتُ الفرحة الحقيقية عندنا هي التي تسبقُ سببَ الفرحة، وكذلك فرحة دخول رمضان، وفرحة عَشاء المحشي يوم الخميس، ولبْشَة القصب ليلةَ الغطسة، ولحظة الانتصار في المباراة؛ وضُمّ إلى هذه اللّحظات مقدّمات المسلسلات بعد أنْ عرفنا التّلفازات.

وربّما يكون ذلك هو ما عرَفْناه من حال الدنيا كما لخّصتْه عيوننا الصّغيرة بعد ذلك؛ فالشيء الجميل ليس جميلًا في ذاته، والزّمن السعيد ليس سعيدًا في حينه؛ فالمتعةُ بالنعيم خاطفةٌ عارضة تبهتُ، وربما تزولُ بمجرّد الوصول إليها أو الدّخول فيها، وربما هذا سرّ البهجة، أو ربّما سرّ الأنْكاد.

أوصلتُ مبروكة في الصّباح التالي على أتاننا الطيّبة إلى دار أبيها بعزبة «عوض الله» لتكنسَ الدار وتهيّئ له حاله؛ فهذا شأنُها في أيّام مغاضباته لعمّتي التي لا تنتهي- تقريبًا، وحكيتُ لها في الطريق عن انْتصاري بالأمس وتهليلِ العيال، ثمّ دلفتُ بغباوة زوج (على نيّاته) إلى هتاف الأولاد باسمي بقيادة الجميلة شربات؛ فسحبتِ الغضُوبُ بقجتَها من على ظهْر الأتان، وهي تهمّ بالدّخول لدار أبيها، وقالت لي بغيظِ فتاةٍ غيور:

- اشْبع بها أيّها الغبي.

***

«طَقّت» في نافوخي فجأةً أنْ أرافق أبي في سفرِه إلى عمله مضحّيًا بأحضان أمّي الدافئة وألعاب الصّبيان الممتعة ورفقةِ مبروكة الحنونة المجنونة وصداقةِ عمر المخلصة ومعاركي مع الولد عيد، والتي مللتها من كثرة الانتصار؛ فأنا حبيسُ الجدران وحواش الإوز بالليل، وحبيسُ جسور الغيط وحدود عزبتنا طيلة نهارِ الصّيف، بالإضافة أنّني سأعاود الدّراسة بعد شهرين؛ فما المانع أن أجدّد هواء قلبي الصّغير بالمدن الجميلة التي يرتحلُ إليها أبي، ويشيّد فيها أبراج الحمام.

بعد عصريّة شاقّةٍ قضيتُها في «نقل السّباخ» من زريبتنا إلى أرضِنا الشرقية على ظهر أتاننا البطيئة، وهو إجراءٌ دوْري نقوم به كلّ عدّة شهور لتفريغ الحظائر من تراكمات الرّوث، وفي الوقت نفسه لتخصيب تربةِ الأرض بهذا السّباخ كنوع من السّماد، ونريد أن نُنْجزه قبل سفرِ أبي لأنّ عمّ سنوسي المكلّف من قِبَل أبي بمساعدتي في رعاية أرضنا ليس من مهامّه نقلُ السباخ.

قلتُ لأبي وأنا أشدّ الغَبيط على ظهْر الأتان أوسعه كي يفرغَ فيه الغَلَق(١):

- سأسافرُ معك.

استدارَ أبي، وانْحنى يضربُ بالفأس يقطّع الجلّة اليابسة ليملأ غَلقًا آخرَ وكأنّه لم يسمعْني، وهي عادتُه عندما لا يكون الردُّ حاضرًا على لسانه؛ فيعطي نفسَه فرصةً للمناورة والتّفكير، ثمّ رفع غلقًا آخرَ وهو يقول:

- افتحِ الغَبيط..

(١) مقطفٌ مصنوعٌ من الجلد.

شددتُ له الغبيط أفْسحُ مكانًا للغَلَق الأخير، وبعد أن ساوى أبي الرّوث واطمأنّ لوضْعه على ظهر الأتان، واستعْددتُ للتحرّك خلفَها إلى الغيط، قال يجيبُ طلبي الذي صيغَ بشكلٍ خاطئ:

– ليس هذه المرّة.

ضربتُ الأتان بالزُّخمة التي في يدي أفُشّ غلّي وأظْهِرُ اعتراضي على اعتراضِ أبي الذي لم أتعوّد منه على رفضِ طلباتي.

نادتني أمّي من حجرتها وأنا مارٌّ أمامها خلفَ الأتان التي جرتْ من أثر الضّربة، فقد كانت ردْهة الدار هي نفسها الممرَّ الوحيد للحظيرة، ومنها تخرجُ البهائم أوّلَ النهار وتدخُلُ في آخره:

– خذْ لقمةً يا ولد.

– أعطيها لزوْجك!

رفْضُ أبي الذي بدا نهائيًّا لا نقضَ فيه ولا اسْتئناف؛ جعلني أكثرَ اشتهاءً للسّفر وأكثر إصرارًا عليه؛ فظللتُ طول رحْلاتي في الإياب والذّهاب بنقلات السّباخ أعيد عليه الاقتراحَ وأناكِفُه فيه، وهو يرفض بحجَجٍ كثيرة مُقْنعة.

في المساءِ أعدتُ العرضَ عليه وهو يصلِحُ عطلًا في وابورِ الجاز الصّغير تحت ضوء المصباح الكيروسينيّ الكليل مستغلًّا تركيزَه الشديد مع فونْيَة الوابور؛ ففي أوقاتِ التّركيز يستسلمُ الآباء لأيّ اقتراح.

ردّ بهدوء كأنّه استوفى مرّات الرفض، أو كأنّني استوفيتُ مرّات الإلحاح، أو كأنّه كان يؤجّل الموافقة لغرضٍ في نفسه:

- شريطةَ أن تكون رجلًا.

قفزتُ في الهواء سعيدًا محيّيًا عدالةَ أبي، وتجاوبتْ مبروكة كعادتها معي، وتركت «الطبلية» وطبقَ الملوخية المعلّق على فمِها، وقفزتْ قُبَالتي تهنّئني بالصّفقة الرابحة رغم أنّها ستخسرني في هذا البعاد.

أكونُ رجلًا! شرطٌ بسيط.. ما أسهلَ الرّجولة! أنا بالطّبع رجلٌ.. وسيّدُ الرّجال!

لكنّ أمّي الغاضبة دائمًا، الثّائرة دائمًا، الرّافضة دائمًا؛ فتحت بابَ حجرة الجلوس (المندرة) بقدَمِها لانْشغال يديها بصينيّة الشّاي وطبق الكعك، وسكبَتْ كلامًا كنت أتوقّعه:

- ماذا تقول يا عبدَ الحميد؟ والله لا يخرج مِن الدّار!

ضغطتُ على الفراغ الذي تركه ضرْسي المخلوع منذُ أسبوعين، وتجهّزت للردّ عليها، أو على الأقلّ تحفيزَ أبي الهادئ لاتّخاذ موقف بطوليّ ضدّ هذه المرأة التي تأمرُ وتنهى وتديرُ حياتنا بقراراتها الجائرة كيفما تشاء.. لكنّ أبي سكت كعادتِه واستطردتْ أمّي تفنّد اقتراحي الغبيّ من وجهة نظرها:

- كيف ستتركُنا دونَ رجل؟!

الله الله! صياغةُ الحبيبة أمّي سحبت الأوكسجينَ من صدري، وأطلقته زفيرَ حبّ لهذه المرأة الكريمة التي تُنزِلُ الرّجال أمثالي منازلَهم؛ فضبطتُ ياقةَ

جلبابي الجديد مُعْجبًا، فأنا إذًا الرجلُ الذي تقصده، والذي قصدَه والدي منذُ قليل.

ثمّ نطقَ أبي الحليم الذي يفضّل المفاوضات على المواجهات، وهو يتسلّم صينية الشاي والكعك:

- دَعيه يا أمّ هاشم.. لن أطيل هذه المرّة، أريدُ أنْ أستأنس به.

يا لأهَمّيتي التي أدركَها أبواي فجأة!

تفهّمتْ أمّي الطائعة - لأبي فقط - رغبتَه الطيبة، وضمّت شفتيها وأمالتْها إلى ناحيةٍ علامةً على الموافقة المضطرّة.

***

في الصباح، ودّعتني أمّي حزينةً وهي تلثُمني في كلّ جسدي، وأنا منشغلٌ عنها بالنّظر إلى سيّارة شعبان الرّبع نقْل «الدّبّابة» الرّابضة أمام دارهم، والتي ستقلّني الآن في «كابينتها» السّحرية.. فأنا منذ أيام كنت أجري خلفَها كأيّ ولدٍ تافه أستنشقُ عادمَها الخانق مُتجاهلًا سخريَةَ الولَد عيد بن شعبان وأختِه خضرة، لكن اليومَ سأركب داخلَ صالونها الذي طالما لوّح لي منه الولَد عيد ليغيظني، والآن أرتحلُ فيها رحلتي الأولى.

أدْخلني أبي بينه وبين شعبان الذي لمحتُ في عينه نظرةَ اعتراض وامتعاض كنظراتِ ابنه الغبية، لكنّني لم أعِرْه انتباهًا حتى لا أعكّر على نفسي صفْوَ فرحتي بذلك الحدثِ الاستثنائي في الحياة.

تحرّكت السيارة.

يا لَلجنون!

العالمُ يتغيّر!

الكونُ من داخل السيّارة مختلف تمامًا عن خارجها، بل هو كوكبٌ آخر.. إنه يشبه العالمَ الذي نراه في تِلفاز شعبان من خلف شيشِ الشُّبّاك أو من كوّة حجرة «القاعة»!

تحقّق الحُلم أخيرًا، أوسعتُ حدقتيْ عيني لأرى أكبرَ قدرٍ ممكن من المعْجزات من داخل «الكابينة»؛ فكلّفت عينًا بمتابعة الدّوّاساتٍ السّحرية التي يضغطها شعبان بقدمه الحافية العَفِنة، وعينًا على مقدّمة السّيارة التي يُخيَّل إليَّ من سِحْرها أنها تسقطُ بنا على جانب الطريق لكنّ السائق يتداركها.

ما بينَ الحين والآخر تُلاعبني رأسي الدّائخ بفعل الحركةِ الجديدة وتخدعُني عيني الغارقة في ذلك السحر؛ فأظنّ الشجرَ على جنبات الطّريق هو الذي يجري ونحنُ ثابتون متفرّجون، فأمدّ يدي من النافذة ألامسُ الهواء لأتأكّد أنّنا المنطلقون.

يا لَلْجمال!

لهذا إذنْ يتكبَّر علينا الولدُ عيد بن شعبان، ورغم عَلْقاتي المتكرّرة له يعودُ منتفخًا كالنّعام.. الآن فهمْتُ.. مِن حقّك بالفعل أن تتكبّرَ أيّها التّافه، وتلكمني كما شئتَ ما دامَ أبوك يملُك هذا الجَمَال!

انطوى الطريقُ سريعًا كما انْطوى العيد، نزلتُ من «الكابينة» مودّعًا شاكرًا لها على هذه الفرصة السّعيدة.

***

(٦)

لا تزالُ الأحلامُ تتوالى في رحلتي العجيبة..

نزلْنا إلى مكانٍ خالٍ شبهِ صحراء، وأنا غيرُ معتادٍ على هذا اللّون الأصفر الباهت، دلفْنا من بوابة عملاقةٍ إلى فيلّا ضخمةٍ تشبه القصرَ الذي يشيّده الحاج فؤاد.. ثمّ وصلتْ خلفنا سيارتان أخْريان تحملان عمّالًا يعملون تحت إمْرَة أبي الصّنايعي وصاحب السّلطة في المكانِ مع شعبان، وتحملان أيضًا أدوات بناءِ الأبراج من عروقِ خشَبٍ وطمي ورملٍ وتبنٍ وغِيَّات الحمّام الفخارية.

هنا، ووسط هذا الجمع الغريب، وهذه السّاحة الصفراء، وبعد مغادرتي الكابينة السعيدة؛ قرصتْني الوحشةُ فخطفتني من حالتي الجديدة، رنّ في أذني سبابُ مبروكة وهرجُ أترابي عند «شونة القشّ» وهتافُ شربات، وصوتُ أمّي يناديني:

- يا ولَد، تعالَ نبَحْت حسّي.. تعال يا ابنَ الـ..

أدركتُ كمْ أحبّ شتمَها، بل ولسْعةَ مداسها التي تصوّبه فلا يخيبُ تصويبُها، أوْحشتني مبروكة وعمر وعيون البنت شربات.. حاولت أن أنفضَ عن قلبي هذا الحنينَ المبكّر حتّى لا يسرق فرحتي الوليدة.. لكنّ أمّي وأترابي بالفعل أوْحشوني.. لماذا تركتُهم؟

كَمْ أنا أحمق!

وسطَ زحام الأوامر والتّكليفات وتوزيعِ المهامّ وانصراف أبي عنّي، واصلت تسلّق أسواري وأغواري، فزممْتُ شفَتي وحجزتُ أنفاسي كإجراءٍ احْترازي أخفي به حالتي.

كَمْ أنا غبي!

ما قيمةُ الرّحلة؟ ما قيمةُ السّفر؟ ما قيمة السّيارة وركوب الكابينة؟ ومتابعة الدّواسات؟ ها هي قد ذهبتِ اللذّة وبقيَتِ الوحْشة، وها أنا سأبدو صغيرًا تافهًا أمامَ أبي الذي حسبني رجلًا، في حين أنّني لا أختلفُ عن عيد بن شعبان، هذا بالإضافة إلى الورْطة التي ستصطادنا بعد قليل.

دسسْتُ جفوتي في ترابِ رجولتي الزّاحفة.. التفتَ أبي الحنون وكأنّه قرأ ما بي- وكثيرًا ما يقرؤني- فناداني فتحرّكتُ نحوه أختطفُ أنفاسي التّائهة لأظهر ثباتًا، فوضعني تحت جناحِه وهو يوجّه العمّال ويتابع عملَه، ويعرّفني إلى العمّال على أنني ابنه هاشم أفندي ولدُه البكْر والوحيد، ورجلُ البيت الشديد- كما أكّدت أمّي منذ قليل- وصاحبُ العشْرِ سنوات، فأتدخّل مصحّحًا رغمَ ما بي من ألمٍ، وما بصوتي من حشْرَجة الوحشة، فأقولُ على اعتبار ما سيكونُ بعد أيام:

- إحْدى عشْرةَ سنة يا أبي.

بدَّل أبي ملابسَه الجميلة، وارتدى ملابسَ العمل المتّسخة بآثار الطّين القديم؛ فصار شخصًا آخر غير ذاك الوسيم الكريم الذي تعرفه عزبتنا.

جهَّز الرجالُ معْجنةَ الطّين داخل الغرفة المبنيّة بالطّوب الأبيض التي تمثّل جوف البرج وأساسَه، وتعلو عليها جدرانه الطينيّة، وكان قد بنى أبي مسافةً قليلة منه قبلَ العيد، وعاد الآن ليستكملَ البناء. أثارني عبثُه بالطّين، ونقلني مسافةً لا بأس بها عن مستنقعِ وحْشتي، وأنْساني- مؤقتًا- ذكرَ الحبيبة أمّي والأتراب.

تطوّر الأمر تصاعديًّا نحو الإثارة، فبعدَ خلطِ الماء بالطّين ببعضِ الرّمل بالتّبن؛ شمّر أبي عن ساقيه النّحيلتين وخاضَ في المعجنَة الطينيّة حتى ركبتيْه، يدورُ فيها بقوّة ليجوِّد الخلطة حتى تصيرَ أكثر تماسكًا وصالحةً كمادّة للبناء والملاط.. يرفع رأسَه نحوي مبتسمًا سعيدًا بنظرتي المثارة المندَهِشة، ثمّ يتعمّد القيام بحركاتٍ بهلوانية في الطّين مدّعيًا أنه على وشكِ السّقوط:

- أدْركني يا هاشم!

هنا خلعتُ ذكرى أمّي وأتْرابي ومبروكة وعيونَ شربات ووضعتُها جانبًا، وبدأت أضحكُ متجاوبًا مع أفْعال أبي المثيرة المضْحِكة.

ثمّ كانت المرحلةُ الأكثر سعدًا وإثارةً فقد أشار إليَّ أبي يدعوني لأشاركه طينتَه.

وقفتُ متردّدًا؛ فأنا أرتدي جلبابَ العيد الذي نجا بأعجوبةٍ من عِراك يوم العيد، وأمّي لو رأتني ستـ...! لكنْ أين أمّي!! أمّي ليست هنا؛ فخلعتُ «البنش» وألقيتُه على طول يدي، ثمّ تحرّكت نحوه سعيدًا. توقّفت أمام المعجنة الطّين متردّدًا فأشار لي يؤكّد جديّته في استدعائي؛ فقفزتُ بجواره منتشيًا بالتّجربة الجديدة المثيرة.

لأوّل مرّة أغوصُ في الطين بتصريح رسميّ دونَ الخوف من مصيري بين يديْ أمّي.. ما أجملَ الحرية! ما أروعَ الطِّين!

ذهبَ عني بعضُ وجْدي وأنا أتقافَزُ خلفَ أبي في المعجنة، والعمّال يتابعوننا ضاحكين سُعداءَ ببكارة فرْحَتي، أو ربّما دهِشينَ من هيافتي رغمَ جسَدي الفارع، ثمّ نزل بعضُهم معنا وصرْنا ندور حول بعضنا في حركةٍ واحدة ونغمةٍ واحدة كأنّنا في حلْقة «زار»، ثمّ زامنَ دورانَنا دقّةٌ لطيفة على صفيح فارغٍ يمسكه أحدُ العمّال خارج المعجنة، وكأنه يعطي إشارةَ البدء لموّال تعوّدوا عليه مع كلّ استفتاح، فتوقف أحدُهم وسط المعجنة ليبدأ موّاله:

فقير وزادي الكلام
كاسيني توب الغرام
وداري عش اليمام
والشّعر راس مااالي

***

سهم المحبّة صاب
والعشق دقّ الباب
والفرح خدْني غياب
وشقيت وحار بااالي

***

قلتُ له يا حكيم

أنا ف المحبّة غشيم

يكفيك شرور الضيم

شوفلي دوا لحاااالي

***

مسح قوام دمعتي

يواسيني في لوعتي

وحلف براس عمّتي

وكمان يمين غاااالي

***

زيّك أنا طبّيت

من كم سنة حبّيت

ولو بالدّوا يا عبيط

كنت داويت حاااالي(١)

يصيح العمّال بالدّاخل والخارج محيّين المواوي:

– عظمة على عظمة يا سالم.

---

(١) كلمات الراوي.

ثمّ يصيح أبي من داخلِ البرج معلنًا النّفير:

- (ابْعــت)

انتهتِ اللّعبة والأغنية.. تماسك الطينُ واختلط جيدًا مع التّبن والرّمل، وصار جاهزًا لأداء المهمّة، وتماسكتُ أنا أيضًا، وبدأت لعبةٌ أكثرُ جَمالًا وإثارةً بالنسبة لي، فقد صعد البطل أبي برشاقةٍ إلى مكانه الرّفيع فوق الجدران الرفيعة مُستخدمًا العروقَ الخشبية التي تخترق جدارَ البرج عرضًا.

وصلَ نهاية بنايتِه القديمة بسرعة ليستأنفَ البناء من جديد.. استعدّ العمّال في الخارج ليقذفوا له غِيّات الحمام «القواديس»، واستعدّ العامل المنتظر في بطنِ البُرج وسط المعجنة ليلقي إليه كراتِ الطّين التي يثبّت بها أبي القواديسَ ويصنعُ منها جدارَ البرج.

صاحَ أبي ثانيةً يثير النّشاط في العمّال، وعرفت- بعد ذلك- أنّها صيحتُه المعتادة في العمل، وهذه المرّة يمطّها كأنه يعلنُ هجومًا على طريقةِ عمر في مباريات الكرة:

- اابعاات

تلقّف أبي كرةَ الطّين الأولى بمهارةٍ فائقة، صفّقت مُعجبًا بلياقته المثيرة التي لم أرَها من قبل على الهواء مباشرةً بهذه الطريقة، ثمّ تلقّف قادوسًا يأتيه من خارج البرج بشكلٍ أكثرَ رشاقة، فيزيد إعجابي وغبطتي له على موقعِه المتميّز في الأعالي، وأتخيّل نفسي مكانه.

علّقت عيني به أتابعُه وهو يتحرّك على عروق الخشب التي تمسك أحشاءَ البرج من الداخل نزولًا وصعودًا ويسارًا ويمينًا كأنّه يتنزّه في حقلنا، ويصيح صيحتَه (ااابعااات).

ما أروعَ هذا العمل!

قلتُ لنفسي: إذًا الكونُ فيه أشياءُ أخرى جميلة غير وقفةِ العيد وليالي رمضان وليلة عَشاء المحشي ولبشة القصب وهتاف الجمهور وكابينة السيارة ودراجة عمر وكمانه!

سمحَ لي عاملُ الطين أن أقذفَ كرةَ طين نحو أبي تسليةً لي، ومجاملةً للمعلّم الذي يعمل تحت إمْرته، لكنّني اعتبرت الأمرَ تكليفًا عليَّ إنجازُه بشكلٍ جيّد حتى يفخرَ بي أبي، ويصدقُ حدسُه حول عضلاتي النّامية المطلّة من تحت جلدي تنبئ عن مصارع عنيد.. أعطاني الرجلُ قطعةَ طين صغيرة ليسهل عليَّ رميَها ظنًّا منه أني ضعيفٌ هزيلٌ مثل عيد بن شعبان، وطولي هذا مجرّد بهرجة؛ فأعدتُها إلى المعجنة وانْحنيتُ وكوّرت كرةً أخرى ملء كفَّي وقذفتُها لأعلى اتّجاه أبي لكنّها لم ترتفع أكثرَ من مترين، ثمّ عادتْ بجوار الجدار، فابتسمَ العامل الذي يراقبني هازئًا، وصفّق أبي يشجّعني.

بلعتُ لعابي خجلًا مُستاءً.. فأشار لي أبي بقبضتِه ينصحني أنْ أقلّل حجمَ كرة الطين حتى تعلو أكثر؛ فانْحنيتُ أكور كرةً جديدة وتنازلتُ- هذه المرّة- وصغّرتها قليلًا، وكرّرت المحاولة بقوّة لكنّني فوجئت بها ترتدّ على قفاي.. هنا، قهقهَ شعبان الذي ظهرَ فجأة عند فتحةِ البرج ساخرًا من ضعفي رغم

طولي غيرِ المبرّر وهيكلِ جسدي الضّخم، ورغم معاركي الشّهيرة مع ابنه الضعفان، وهو يقول بقلّة حياء:

- احذرِ الضرطة يا أبا طويلة.

لم آبهْ له، فقد تحوّل الأمر من محاولةٍ للتسلية إلى قرارٍ منّي أن أنجزَ المهمّة، وأن أثبتَ رجولتي كما وعدتُ أبي.. قرأ أبي ذلكَ فشجّعني بصفقةٍ جديدة مُضيفًا صافرة:

- هيّا يا بطل.. (ابعت)!

كوّرت كرةً صغيرة في حجم التي أعطاها العامل لي أوّل مرّة، وجهّزت ذراعي لرميها واستعدّ أبي لتلقّفها، ونظر إليَّ شعبان والعاملُ، وعلى شفتيْهما ابتسامةٌ حمقاء معلقة تستعدّ لتنْمو وتتحوّل إلى قهقهة. أخذتُ شهيقًا عميقًا داعيًا الله ألّا يخيب ظنّ أبي فيَّ، وأن يخيبَ ظنّ الشّرير شعبان قليلِ الحياء؛ فأنا إن فشلتُ سيحكي بالتّأكيد لابْنه الذي ينتظرُ لي سقطةً فاضحة مثل هذه، وسيتحوّل لقبي من أبي طويلة إلى أبي ضرطة!

رميتُ قطعةَ الطين الصغيرة بكلّ قوّتي إلى أعلى فاندفعَ جسمي في زاويةٍ من البرج، ثمّ لويت عنقي لأعلى لأرى إلى أينَ وصلت الكرة، لكنّني لم أرها في الأعلى بل لم أجدْ أبي في مكانه!

سقطَ الرجل الطيّبُ وسط بركةِ الطين في بطن البرج بعد أنْ حاول استلام كرتي الغبيّة فانزلقت قدمُه الرّطبة من على سطح عرق الخشب.

وضعتُ يدي على عيني فزعًا أن يكون أبي قد أصيبَ بمكروهٍ، فقطع عليَّ فزَعي وصاحَ مُتضاحكًا من وسطِ المعْجنة رغمَ ألمه وهو يشيرُ بكرةِ الطّين:

- أمسكتُها!

قفزتُ نحوه أنا والعاملُ وشعبان، ودخل بقيّة العمّال من الخارج.. استندَ أبي إلى العامل وقام متحاملاً وعينُه عليَّ يطمئنني:

- لا تخفْ يا ولَد؛ ما يقع إلّا الشاطر.

في هذه السّقطة من ارتفاع ما يقرب من ٤ أمتار الْتَوتْ ساقُ أبي واحتاجتْ إلى جبيرة، وفي الغالب- أو في التّقدير الظّاهري- أنا السّبب الرئيسي في ذلك الحادث، وفي الغالب- أو في التقدير الظاهري- ستعلمُ العزبة كلّها بخيْبتي وسيزفّني عيد بن شعبان وأختُه خضرة.

***

(٧)

هكَذا لم أتمّ يومي الأوّل في الغربة! وعدْنا في المساء إلى أمّي في أسرع رحلةٍ لأبي، ولشعبان الذي ينفخُ ويتأفّف، ويعلنُ استياءه طوالَ الطريق من وقْف الحال الذي ألّمَّ بهم:

– بوجْهِ مَن اصطبحنا اليوم!

زجرَه أبي:

– الحمدُ لله.. قدّر ولطف.

ثمّ استأنف أبي الحديثَ في خطبة عصماءَ عن الأقدار والأخطار والأعمار مُستشهدًا بآياتٍ يتلوها عن البَلاء والصّبر والأخيار والأشْرار، وأنا مشغولٌ في كلّ ذلك بموْقعي من الحدث، وكيفَ سيكون ردُّ فعل المسْتمعين المتصيّدين.

وصلنا وحضرَ عندنا الأهلُ والجيران والخلّان والأعداءُ أولادُ شعبان، ومع سماع سيناريو الحادث من وجهةِ نظر أبي المؤمنِ الفَصيح؛ تحوّل المواسون إلى مهنّئين:

– قضاءٌ أخفّ من قضاء.. قدّر ولطف!

وأبي يشرحُ السيناريو الدّرامي سعيدًا راضيًا بالنتيجة الأقلّ خسارة، فيقول:

– مِن لُطف الله سقطتُ في المعجنة فامتصّت جسدي، ولو سقطتُ في زاويةٍ لصرتُ عجينة كالمعجنة.. ومِن لطْف الله أنّني لم أسقطْ على عرق

خشبٍ من المعلّقين في طريقي، وإلّا لانْقَسم ظهري.. ومِن لطف الله أنّني لم أسقط على هاشم.

وأنا أقولُ في سرّي ساخرًا من هذا السّيناريو: ولكن أين كان لطفُ الله وأنت أعلى البرج يا طيّب! لمَ لمْ يمنعك من السّقوط بداية!

ثمّ أُردف إلى كلام أبي في نفسي الماكرة: لكنّ لطفَ الله الذي أراه حقًّا في تلك الواقعة؛ أنّ أبي لم يذكرْ أنّني كنتُ السّبب الرئيسي في سقوطه، بل في كلّ مرّة يحكي المشهد يقفزُ إلى نهاية اللّقطات متعمّدًا إخفاء موقعي السيئ في الحادث.

وبعدَ أن انفضّ الناس، اقتربتُ منه وأطلقتُ السّؤال الخبيثَ الحبيسَ منذ إصابة مبروكة وأسئلتها الذّكية:

- هل اللهُ هو الذي أصابك؟

- قدَرُ الله.

- أنتَ رجلٌ طيّب؛ فلماذا تُصاب؟

قالتْ أمّي تزجرني:

- يا أحمق.

رمقَها أبي بهدوءٍ يستنكرُ استنكارَها، وأجابني باسمًا، متوقّعًا أنّ الإجابة سهلة:

- لعلّنا نجوْنا من مصيبة أكبر!

- ولِمَ لمْ ننجُ من المصيبة الصغرى؟

اتّسعتِ ابتسامةُ أبي بشكلٍ لم أفهمه، ثمّ هزّ رأسَه وسكتَ يبحث عن إجابة، ثمّ قال:

- ربّما لأنّنا نستحقّ الكبرى، ومِن لطفه أصابنا بالصغرى.

- أنتَ رجل طيّب.. لا تستحقّ أن تُصاب، وكان الأوْلى أن يُصاب شعبان.

ضحكَ أبي على ذكْر شعبان، ثمّ عادَ لابتسامته وتباطأ قليلًا في الجواب، وقد شعر أنّ أسئلتي تتصاعد بشكلٍ مُثير، وكانت قد اخْتمرت في صدري منذُ شهور.. شردَ بعيدًا يبحث لي عن شيء يختصر عليَّ وعليْه الطريق، فأتى به وقال:

- ألمْ تسمع قصةَ الرّجل الذي خرق السّفينة وكاد يُغرق أهلها؟

هززتُ رأسي نفيًا، واعتدلتْ في جلستي مُنتبهًا استعدادًا لسماع قصّةٍ تبدو مخيفةً من عنوانها!

مدّ أبي ساقَه السّليمة بجوار المجبورة، وأعطاني كوبَ شايه معبّرًا لي عن امتنانه برجاحةِ عقلي، أو ربما رشوة لألينَ معه فيما سيقول، لكنْ قبل أن يحكي كان الجدّ عبد الباسط (عمّ أبي ووالد الحاج فؤاد) يناديه من الخارج يستأذنُ في الدخول.

***

ظللْتُ طوالَ اللّيل أتقلّب على جانبيَّ مشغولًا بتلكَ الحكاية التي لم أعرفْ منها إلّا عنوانها المثير، ولا أعرفُ ما علاقتُه باختيار أبي بالذّات ليُصاب، وفي منتصف الليل وفي جوفِ السّكون الحالم الذي لا يعكّره سوى زبيط الإوز الصّغير في زاوية الحجرة، لم أجدْ بدًّا من المغامرة؛ فوكزتُ أبي، الذي نامَ معنا اللّيلة وليس في «قاعته» أعلى السّطح، أوقظُهُ من نومه هامسًا حتى لا تسمعَ أمّي:

- أبي..

لوى عنقَه منتبهًا:

- تريد ماءً؟

- أريدُ إجابة.

ابتسمَ أبي وبدتْ أسنانه بارقةً على ضوء مصباحِنا الكيروسيني الخافت، وهزّ رأسَه مُرحّبًا.. قلت:

- ما قصّة السّفينة؟ ولماذا أراد الرجلُ أنْ يغرقها؟ وهل أغرقها؟ ولماذا...

استيقظتْ أمّي، وجذبتْني من ياقتي:

- انْخمد يا أحمق!

***

(٨)

عُوفيَ أبي وغادرَ في سلام، ولم أبادرْ هذه المرّة بالطّلب السابق، وبالطّبع لم يعرضْ هو عليَّ عرضَه السّابق ربما خشيةً من المصير السابق.

خلَفتُه في أمّي الحنونة ومبروكة الجميلة وعمّتي التي تمكثُ عندنا أكثرَ ممّا تمكثُ في بيت زوجها (الضّرير)؛ فأنا رجلُ البيت الوحيد، ومكانتي كلّ يوم ترتقي، ورتبتي ترتفع.

هذا بالإضافةِ إلى الوظائفِ الأساسيّة الكثيرة التي لا يصلحُ لها إلّا رجلٌ كفءٌ مثلي يقومُ بتسريح البَهائم في الصّباح ويراعي الأرضَ بمساعدة عمّ سنوسي في الحرثِ والرّي والعزق والشتل والحشّ والحصاد، وفي البيت بجلْبِ حطب القطن اليابس أو «أقراص الجلّة» من أعلى السطح أو غُمر قشّ من «الشّونة» لإيقاد الفرن، أو يقفُ في الصّباح الباكر بصفيحةِ الدّقيق أو الرّدة ليرشّ للبقرة على مزْوَد التّبن[١] أثناء حلْبها حتى تتكرّم علينا وتدرّ لبنَها في استرخاءٍ وهدوء دونَ انْزعاج أو إزعاج، أو يذهبُ وحدَه لجلبِ التّموين من دكّان عمّ مصطفى حسين بعزبةِ درويش أو الجاز وإبرة الوابور من دكّان عمّ حلْمي بعزبة الغنّام، أو يخرج مع أمّه في جوْف اللّيل كي يؤنِسَها وهي تستوثقُ من عقال المواشي وحال الأوْتاد ونار الفرن والموْقد.

***

(١) وعاءٌ أسطواني مصنوعٌ من الطين.

مضى موْسِمانا الشتويّ والرّبيعي، وكسرت نافذة الحادية عشرة بشكلٍ رسمي، ودلفتُ مزهوًّا إلى أرْوقة الثانية عشرة قافزًا بمهارةٍ إلى الصّف الخامس الابتدائي، وقد استطلتُ واشتدّ عودي، وقويَتْ عضَلاتي مقارنةً بعضلات الولَد الهشّ عيد بن شعبان، بل أقوى من صديقي وقريبي الثّري عمر ابن الحاج فؤاد الذي يكبرني بعاميْن، وصرتُ في المدرسة الفتوّة المعتمَد المسْتغاث في الملمّاتِ فأنا أطولهم وأضخمُهم وأسمرُهم، لا سيّما وقد اتّسع نطاقُ معاركي وصنعتُ خصومًا جدُدًا جديرين بمصارعتي في عزبة «إسكندر» غير التّافه عيد بن شعبان، وغير أبطال عِراك المبارايات، هذا بالإضافة إلى نجابةٍ مبكّرة يحكي عنْها الأستاذ صابر ناظرُ المدرسة لوالدي، ولا أجدُ في نفسي ما يؤكّدها إلّا درجات آخر العام التي ربما تأتي صدفةً كهدفي في مباراة العيد.

قطعَتْ أمّي عليَّ خواطرَ الرّجولة المتداعية.. وقطعُ الخاطر على الشاردين أمثالي أشدّ عليهم من قطع بوْلَتِهم. أعلنتْ أمّي دونَ تقديمٍ أو تمهيد أو تخْيير، بتكْليفي بمهمّة رسميّة عسيرة، وكأنها كانت تتنصّت علىً ثرثرة خواطري، فأرادت أن تمتحنَ رجولتي المزْعومة في وقتها.

الموسمُ صيفي، والوقتُ قُبيل المغرب بدقائق، والمهمّة- باختصار- أنْ آتي لها بزجاجتيْن لمصباحيْنا اليتيمين من دكّان عمّ حلمي، وذلك قبل أنْ يداهمنا الظلامُ، ونضطرّ لإيقاد المصباحيْن دون زجاجة فتنفثان موْجاتٍ من الدّخان داخل حجرتيْنا الضّيقتين ممّا سيكون له تداعياتٌ سيّئة على صحّتي وصحّة مبروكة، وربما تضرّ بصحّة الإوزّ الصّغير الأخضر المسكين الذي يشاركنا الحجرة.

ولكي توقدَ حماسي أكثرَ وعَدَتني على هامش الصّفقة أنني إنْ عدتُ إلى الدّار قبل أن يفْرَغ الجدّ عبد الباسط من أذان المغرب ستُعطيني عودَ قصب كاملًا أمصّه وحْدي دونَ مشاركةٍ من مبروكة أو عمّتي، بل ستقشّره لي بأسنانها القويّة (نبّة نبّة) كأنّني «شهر يار».

وقبلَ أن تنهي أمّي عرضَ صفْقتها كان الجدّ عبد الباسط متّجهًا بالفعل نحو المسجِد كي يرفع الأذان، وعليه فلمْ أفكّر لحظةً لإلغاء الصّفقة، أو حتى تعْديل أحدِ بنودها؛ لأني أعرفُ أنّها لن تقبل الإلغاء أو التّعديل، فلم أُضِعْ وقتًا وخطفتُ البريزتيْن الورقيّتين من يدها الشّريفتين وضربت برجْلي الحافية دومًا كأسدٍ يستعدّ للانقضاض، ثمّ انطلقتُ كالسّهم ناحية عزبة الغنّام.

صاحتْ أمّي تضيفُ تعديلًا، وقد أرادتْ أن تصحّح خطأ تربويًّا ارْتكبته؛ فتحفيزُها لي كان لصرفي عن اللّعب أو التلكّع أثناء المشوار، لكنّها في الوقت نفسه لا تريدُ أن أنْدفع حتى لا أكسرَ الزّجاجتين، لكن لم أسمعْ ما قالت ولو سمعتُ ما كنتُ لأستجيب.. وليتني استمعت!

المسافةُ بين العزبتيْن ليست بعيدةً لكنْ أيضًا الوقتُ المتاح قصيرٌ للغاية، بالإضافة أنّ الطريق مليء بكراتِ الطّين وبرَك المياه بصفتها آثارًا جانبية لأشغال موسم زراعة الأرز وتلويط الأرض وتجهيزها للشّتل، لكنني أستطيع أن أنجزَ العملَ بقدراتي الخارقة بل ببعضِها، إنّني رشيق خفيف، إنّني كالريشة في الهواء، إنّني طائرٌ بلا جناحين مثل أبي وهو أعلى برج الحمام.

وعلى ذكرِ أبي والبرج، تذكّرت حادثَ العام الماضي، وقفزَ خاطرٌ سيّئ أمامي كحاجز يضايقني ويريدُ أن يلفتني عن مهمّتي وعن جائزتي، ويذكّرني

بالرّجل الغريب الذي حاولَ أن يغرق السفينة وحاول أبي أنْ يبرّئه من جريمته ويُلصقها في الملك البريء، لكنْ لم يستطع إقناعي.

دحرجتُ الخاطرَ عنْ كتفي، وقفزتُ في الهواءِ حتّى لا أعكّر مزاجي الذي سيصفو بعدَ قليلٍ بأعواد القصبِ التي سأمصّها في غير موسمها.

تباطأتُ ثواني وأنا أمرّ بجوار قصْر الحاجّ فؤاد حذرًا من كلبه الضّخم الذي يحرّرونه من قيْده مع الغروبِ لفترة وجيزة على سبيل التّرفيه، ثمّ يُعيدونه في سلسلتِه، وإنْ رآني أجْري سيُهْرَع خلفي وأنا لستُ متفرّغًا لخوْض معارك جانبية الآن.

ومع تمهّلي أثارتني روْعةُ القصر الذي يقول النّاس إنّه بعد تمام بنائه سيكون أفضلَ من قصر الرئيس، فقدَ صرف عليه الحاجّ فؤاد معظمَ أمواله الحرام التي كسبها وخسرَ مِن أجلها قريبيْه الوحيدين في العزبة؛ أباه (الجدّ عبد الباسط) وابنَ عمّه الفقير (أبي).

لفتني صوتُ الكمان المحبّب إليَّ، والذي لا يكفّ عمر عن العزف عليه منذ أنِ اشتراه له أبوه بعد نجاحِه في الصفّ الخامس الابتدائي، ثمّ لفتتني دراجتُه الفاخرة السّاحرة الرابضة بجوار سلّم القصر التي اشْتراها له أبوه بعد مروره السّالم إلى الإعدادية، والتي طالما حلمتُ أن أركبها، كما حلمتُ مِن قبْل أنْ أركبَ سيارة شعبان!

ورغمَ هذه الفتن لم تتباطأ خُطواتي، بل بدأ نسيمُ المغربيّة المتسلّل من نوافذ الصّيف يداعب خدّي كأنّه يذكّرني بغايتي ويشجّعني على إنهاء مهمّتي النّبيلة، وبالفعل زادني حماسًا ونشوةً وثقة.. يا لَروعتي!

وصلتُ عتبةَ الدّكان ومؤذّن (الغنّام) يسعل أعلى سطح المسجد يجهّز صوتَه ليستفتح بالتّكبير.. ما زال في الوقتِ متّسَع، تحرّك العمّ حلمي الطيّب بهدوءٍ خمسينيّ مُزعج، وأنا أضرب قدَمي في أرضيّة الدكان متعجّلًا:

- بسرعة يا عمّ حلمي.

- في العَجَلة الندامةُ يا هاشم.

أخرجَ العمّ حلمي زجاجةً من «الكارتونة»، وأزاحَ عنه ورقةَ الجورنال، ونفخ في جوْفها يطردُ بقايا القشّ والتّراب، ثمّ أدخلَ فيها قطعةَ قماش قديمة، ومسَحَها لتبدو أكثرَ بريقًا، ثمّ طرقها بظهر ظِفْره مرّات ليسمعني رنّتها التي تؤكّد متانتَها، ثمّ قلبها أمامي ليتأكّد ويؤكّد لي أنها بلا شرخ أو لسْع، وذلك ليس من بابِ الأمانة فقط؛ بل حتى لا أعودَ بها ثانية مدّعيًا عيبًا محْدَثًا، فأخذتُها من يده وقلتُ بنفادِ صبر:

- الثّانية يا عمّ حلمي.

أخرجَ الثانية من صندوقِها الورقيّ بهدوء، وقرّبها من عينيه، وأراد أن يكرّر الإجراءات الرسمية السابقة فخطفتها، وألقيت البريزتيْن على مكتب الدّكان وقفزتُ خارجًا، وهو يتمتمُ لي بنصيحةٍ مكْرورة، غطّت عليها تكبيرة المؤذن.

أمسكتُ الزّجاجتين بقبضتيَّ من عنُقيهما كفارسٍ شجاع لم تلدْه ولّادة، يمسك بسيفيْن متّجهًا وحده إلى ساحة الوغى.. انطلقتُ أعدو راجعًا كما أتيتُ، فلم أستغرقْ دقيقتين وكنتُ قدِ اخْترقت حدود عزبتنا ثانية.

سمعتُ صوتَ الجدّ عبد الباسط يأتي من فوْق مسجدنا بـ(الشهادة)، ابتسمتُ مستريحًا سأصلُ قبل الموعدِ المضروب، إذًا سأثبتُ أنّي رجلُ أمّي الأوْحد، عذرًا يا أبي؛ بل الرّجل الثّاني الذي يستحقّ الإكرام والاحترامَ وعودَ القصب التّمام.

اخترقتُ الأراضي الخالية الممهّدة للشّتل والأراضي الخضراء التي تشبه عيون شربات قفزًا بين الخطوط والفَجوات وتفادي عشرات المطبّات والعثرات برشاقةٍ ولياقةٍ تزيدني متعةً وإثارة وثقةً بنفسي وبجسدي الذي يُطاوعني كجسدِ الثّعبانٍ للثعبان، ويزيدُ مغامرتي كراتُ الطين التي ألقاها شاتِلو الأرز، فجعلت الأرضَ زلقةً في بعض الأماكن، وكوّنت بركًا في أماكنَ أخرى، لكنّني - بجدارة - أكتشف مواطنَ الخطر بلمْح البصر، فأرتقي بجَسَدي في سهولةٍ، وأهبط في المكانِ المناسب.. في الزّمان المناسب، ويزيدني نشوة حركةُ شَعْري هبوطًا ونزولًا مع جسدي.

لكنْ مع انشغالي بالسّرعة على حساب الدقّة ارْتكبتُ خطأ «تكتيكيًّا» بسيطًا للغاية، فقد نسيتُ أمرَ كلب الحاجّ فؤاد - خرّب الله بيتَه، وبدّد مُلْكه الحرام - فلما أنْ رآني قادمًا من بعيدٍ على هذه الحال، أضربُ الأرض بقدَمي كفَتَى الأدْغال حتى اعتبرها الكلبُ إعلانَ حربٍ منّي، واستفزازًا لقدراته الدفينة مثْل قدراتي؛ فأسرَعَ نحوي وقد قرّر أن يواجهني كلبًا لكلب، ويترك بصمةً كريمة على جسدي الذي كنتُ سعيدًا به قبل قليل.

تبدّد حُلم القصبِ وحُلم إثبات الرّجولة أمام أمّي، وصار أقصى أمانيَّ الوصولَ معافًى إلى دارنا بالضّبط مثل لحظة تبدّد حُلم إحراز الهدفِ في مباراة العيد، فأنا - على أقلّ تقدير - سأصاب، والزجاجتان مكْسورتان لا محالة!

ثمّ كان التطوّر الدّرامي الذي عجّل بنهايتي المأسوية فمَعَ تشتّت بصري بين مراقبةِ الوحش القادم وبين متابعة مُنْحدرات الطريق وعثراتِه خانتني قدَماي اللئيمَتان الموكّلتان بحمايتي.. حاولتُ تفادي نتائج ذلك الانْقلاب الآثم والخيانة الكبرى لكنّ سائرَ جسدي تضامن مع خطّة قدمي؛ فانزلقتُ على الطين وتهاوى جسَدي يحتضنُ الأرض.

بادرتُ أتفادَى السّقطة بساعدي القويّ، لكنّ وزني وطولي اللّذين طالما تفاخرتُ بهما كانا إثمهما أكبر مِن نفْعهما في هذا الموضع النّادر، فساعدي لم يتحمّل وزْني فكسر تحتي وسمعتُ طقطقة عظامي، وطارت الزّجاجتان بعيدًا عني.

لم تنتهِ الكارثة عند هذا الحدّ؛ فلا يزال هناك شوطٌ ثانٍ من المباراة مع كلب فؤاد الذي يريد أن يثبت «كلبيَّته» هو الآخرُ على حساب لحْمي الطري الأشْهى إليه من عودِ القصبِ في غيْر موسمه، راغبًا بذلك أنْ يكون هو «شهر يار».

صرختْ أمّي التي كانت تُراقبني من أمام الدّار وبجوارها مبروكة، والتي أدركتْ أنّني أواجه مصيبتين؛ أولاهُما بالتّأكيد قد وقعت، والثانية علّى وشَك، فانطلقتْ نحوي وهي (تولْول)، وانتبه الجدّ عبد الباسط من فوق المسجدِ لسقوطي المروّع، ولموقفي الحرِج مع الكلب الذي استعدّ لنهش وليمته، فقطع الأذان وقفزَ من على سطح المسجد القصير ليغيثني.

وسط موسيقى الكمان التي تتهادى إلى سمعي من قصرِ فؤاد، وبالطبع

تصمّ آذان صديقي النذل عمر الذي لم يسمع نباحَ كريمهم، دار الكلبُ حولي دورةً كاملة كأنّه يختبر مدى صلاحيتي كطعام أو كأنه يفتّش أيّ قطعة أكثر ليونةً من الأخرى ليبدأ بها. انشغلتُ به عن ذراعي التي لم أعدْ أشعرُ بها كأنها بُترت من جسَدي.. وقبل أنْ يبدأ مهمّته فوجئ وفوجئتُ معه بحجرٍ صغير يرتطم برأسِه من رامٍ مُجيد؛ فقفز الكلبُ بعيدًا وهو يصدرُ هريرًا من أثرِ الضّربة متحوّلًا فجأة إلىٰ دجاجة بيضاء، وظهرت عند رأسي الرّامية؛ فإذْ بها الآنسة شربات التي وصَلتني قبل أمّي ومبروكة والجدّ لتسجّل بذلك ثالثَ جميلٍ معي.

انحنتْ إليَّ مادّةً يدَها:

– قمْ يا هاشم.

***

(٩)

عدْنا من دار سلّومة المجبّراتي مع رفع عمّ عسران لأذان العِشاء الذي ذكّرني بأذان المغرب الذي ذكّرني بخسارتي في مسابقة أمّي التي ذكّرتني بموقعةِ الكلب!

صارتْ يدي اليمنى حبيسةَ رباطٍ أبيض سميك وقطعتيْن خشبيّتين.

لا سامح الله شتلاتِ الأرز؛ بل الطين؛ بل الزّجاجة؛ بل الكلب!

بل لا سامح الله خارقَ السّفينة.. فبالتّأكيد هو الذي فعل!

نزل الجدّ عبد الباسط وأمّي من العربة الكارو ليستقبلاني ويأخذا بيدي السّليمة على سبيل أنّني صرتُ صاحبَ عجزٍ مؤقّت أستحقّ على إثره الشفقةَ والمساعدة.

- كلّا.

قلتُها غاضبًا، وأشحتُ بيسراي أعلنُ اعتمادي الكامل على نفسي، فنزلتُ وحْدي ومشيتُ وحْدي أحاولُ أنْ أبدو مُتماسكًا أمامَ أعين الفتيان الذين وقَفوا على جانبي الطّريق وأمام دارنا، بل كنت واثقًا أنّ الولَد عيد بن شعبان والبنتَ خضرة يراقبانني الآن شامتين من خلف شيش شُبّاكهم.

تقدّم نحْوي عمر الطيّب، وقبّل كتفي مواسيًا، وسارَ بجواري يربتُ على ظهْري معلنًا اعتذارَه نيابةً عن كلبِ أبيه ولانْشغاله بالكمان ساعةَ الواقعة.

أجْلستني أمّي في (المندرة)، وجلستْ مبروكة عن اليمينِ وعمرُ عن اليسار، والتفّ حولي وفي ردْهة الدّار رجالُ العزبة ونساؤها بالهيئة نفسِها والعددِ نفسِه– تقريبًا– الذي حضر في مُصاب أبي منذ عام، يتساءلون عن الملابَسات ويمصّون الشفاه، ويردّدون بإيمان:

– قدّر ولطف.

ثمّ تحوّلت «مصّات» الشفاه إلى مصّات قصب على شرف المسكين هاشم، حتّى شعرت أنهم جاءوا فقطْ من أجل «القَصب» الذي يأتي لأمّي من أقاربها في غيْرِ موْسمه!

وتحتَ أضواء مصباحيْنا اللّذين ازدادَا توهّجًا بالزّجاجتين الجديدتين اللّتين– ويا للعجب!– لم تصابا في الحادثِ بأيّ مكروه! انقلبت الليلةُ إلى سمرٍ وضحكٍ ونِكاتٍ كما حدثَ في ليلة أبي، وكما يحدث في أغلبِ ليالي مصائبنا القرويّة.

فبعدَ ساعةٍ من المواساة والسّلامات والحمْدَلة والحوْقَلة آنسَ الضيوفُ بعضهم بعضًا، وأنعشت أنفاسُهم أجسادَهم، وكلماتهم أرواحَهم، وحفّزهم ليلُ الصيف على السّهر، وحكى عمّ سنوسي حكاية السيدة العجوز التي عضّها كلبٌ مسعور في عزبة الشّفيعي منذ أعوام فظلّت تنبحُ في نفسِ موعدِ عضّها من كلّ عام حتى ماتت، وتدخّل عمّ مستكاوي الحلّاق مُقسمًا بأيمانٍ مغلّظة أنّ أحدَ أبناء إيتاي البارود انقطعت ذراعُه في حادث قطار فلمْ يمضِ شهرٌ حتى نبتتْ مرّة أخرى كاملةً مكمّلة، ثمّ ختمَ بجملته الأثيرة:

– والله سليمة إنْ شاء الله.

وأكّد الجميع– على طريقةِ أبي في قراءة الأقدار– أنّه إن كان أصابني مكروهٌ فقد نجوتُ من مكروهين؛ الكلب والزّجاج، وأضاف عمّ صبحي:

– ولولا أمّ عيون خضراء، سلّم الله يدها، لكانَ الكلبُ أكل حتّة من... هاشم.

ضحكَ الحاضرون وتباسمت، وتململتْ مبروكة مُغتاظة من ذكْرِ شربات التي صارت حاضرة في سيرتي حتّى في سمر الكبار.

نزلتْ عمّتي بالشّاي والحلويات، وفضّت أمّي الكريمة لهم بقيّة لبشتيّ القصب التي لا يراها أهلُ العزبة إلّا في عزّ الشتاء، بل إنني رأيتُ في زاويةٍ من الرّدهة شبه المظلمة عيد بن شعبان وأختَه خضرة منفردين بأشلاءِ عودٍ غليظ، ربّما كان مرشحًا ليكون هو عودَ الصّفقة الضائعة.

وقبلَ أن أفتّش عن تلك المنقذةِ الجريئة التي فرضتْ نفسَها فرضًا على عقل الفتى هاشم، والتي أحرجتْ رجولتي بإنْقاذها لي إلّا أنها أنقذتْ أشياء أخرى من أنْياب الكلب، وجدتها واقفةً أمامي تمدّ لي (نبة) قصب قد قشّرتها لي خصيصًا معلنةً بذلك تعاطفَها مع حالتي المزرية لتواصل جمائلها:

– خذْ يا هاشم.

عضّت مبروكة شفاها مُنزعجة من تصرّف ذات العيون الخضراء التي ترى أنها تصرّ– بشكلٍ واضح فاضح رغمَ صغرِ سنّها– أنْ تفسح لها مكانًا في دائرتي لتزاحمها فيّ، وقد كنتُ قبل أيّام لا أرى لها وجودًا أصلًا، بل كلّ فتيان العزبة كانوا يمدَحون عيونها ولم أكنْ أرى فيها إلّا الرّمص والغمص، لكنّها تستحقّ الآنَ بعض الإعجاب، وكثيرًا من الشّكر.

لم يدعْ عمّ صبحي اللقطةَ المثيرة تمرّ دونَ تعليق مازح، فقال زاجلًا بكلامٍ كبير على فتى وصبية في عمْرنا:

واداري عشقي ليه

ما دام حبيبي راضِيه

وجوّه نَنّ عينيه

سوق المحبّة اتنصب

بذلتْ روحي فداه

وعشقت يا وِلداه

ولمّا صرخت بآه

هَداني نبَّة قصب(١)

ثمّ ختم عمّ صبحي زجَلَه المرتَجل بقهقهةٍ عالية، وتجاوب معه الجالسون بقهقهةٍ مثلها، وهُم يعلمون أنّ «نبّة القصب» التي قصدها عمّ صبحي ربما تكون قبلةً أو شيئًا أخطر.

ألقتِ الصّبيّة نبّة القصب في حجري وانصرفت خجلةً من قهقهة الجالسين، وانضمّت إلى أخيها وأختها، ومدّت مبروكة يدها لنبّة القصب وألقتها بعيدًا.

***

(١) كلمات الراوي.

انفضّ المجلسُ في أمان، وبقي الجدّ عبد الباسط أقربَ الأقرباء لنا في العزبة، وراعينا في غيبةِ أبي وشبيهه في المظْهر والجوْهر.. انتهزتُ فرصةَ خروج أمّي لتجهّز «دور شاي»، وسألتُ الجدّ مُستفهماً مُستنكرًا:

- ماذا فعلتُ لله حتى يصيبني!

فوجئ الجدّ عبد الباسط بصياغة سؤالي، فتنفّس بعمق، ثمّ قال:

- الله سيجيبُك.

- وكيف يجيبني؟

- اصبرْ سترى.

لم يشْفِني بإجابة، بل أدْهشني ردّه الهادئ، وكأنّه متواطئ مع ابن أخيه (أبي) على الطريقة نفسها، ورغمَ أنّني لم أفهم ما عَناه، لكنّني لم أشأ أن أضيّع فرصة الخلوة معه؛ فسألتُه أستزيده حول قصّة «خارق السّفينة» الذي لا يحكي منها أبي إلّا سطرًا يكرّره كلّ مرّة، ويظلّ يدافع فيه عن الرجل غريب الأطوار، قلتُ:

- أينَ ذهب الرجلُ الذي حاول إغراق الناس؟

- أيّ رجل؟

- خارق السفينة.

- تقصدُ الخضر؟

- اسمُه الخضر؟

- نعم.

- احْكِ لي أين ذهب؟

ابتسمَ الجدّ وانسابَ في الحكاية، وراجع معي القصّة بتفصيلها، فأعادَ ما قاله أبي، وزادني تفاصيل كان خبّأها أبي اختصارًا أو متعمّدًا، فتورّط الجدّ دون قصد، بعد أنْ حكى لي عن موسى وفتاه ورحلتهما والصّخرة والسّمكة والخضر، ثمّ السفينة، حكى عن ذبح الغلام..

انتفضتُ مفْزوعًا.

- ذَبَح الغلام؟!

أدركَ جدّي أنه ما كان له أنْ يذكرَ الآن قصّة ذبح الغلام؛ فحاول تخفيفَ الصّورة:

- ليسَ الخضر تحديدًا؛ لكنّه القدَر.

- الخضرُ هو القَدَر.

- نعم.. لكنّه رمز.

تململتُ في مكاني وتنمّرت وتجهّزت لسؤالٍ غاضب من أجل الغلام الضّحية؛ فكيف تمرّ هذه الجريمة دونَ عقاب، وكيف يبرّرها الجدّ كأنها عدالة! لكنْ قبل أن يشتعلَ الحوار، كانت أمّي قد عادتْ بالشاي ورمَتْني من

موقعِها على عتبة الباب بنظراتها التي أترجِمُ حروفَها جيدًا، فهززتُ رأسي للجدّ مضطرًّا مدّعيًا التسلّي والفهْم والإيمان، وانصرفتُ بنظري بعيدًا إلى أشلاءِ القصب المتناثرة في المكان.

***

قضيتُ معظمَ الليل متيقّظًا، فبالإضافةِ إلى قيْدي المرهقِ وشدّة الحرّ وزبيط الإوزّ والألم المتقطّع الذي يشبه قرصَ أمّي؛ كنتُ مشغولًا بشأن الغلامِ المسكين، فإنْ كان أبي قد أوجدَ منطقًا لخرق السّفينة ليدافع عن الرّجلِ الغريب؛ فماذا عنِ الغلام الصغير؟

خطفَني النومُ من نفسي قُبيلَ الفجر، وعاودني الرجلُ الصّامت صاحبُ العمّة الخضراء، واقفًا على بسطةِ سلّمنا الطّيني، فابتسم ولوّح محيّيًا وانصرف.

***

(١٠)

قطَعَ أبي نوْبةَ عملِه بعدما أخبرَه شعبان بموقعةِ الكلب والزجاجتيْن وشربات.. وقرّر أبي- الجميل دائمًا- أنْ يجهّز لي مفاجأة تُنعش الدّماء في ذراعي التي تيبّست في قفص الاعْتقال، وتُجْبرُ قلبي الذي كُسرَ إثر حادث الارْتطام، وتخفي من ذاكرتي المشهدَ المرْعب الذي عايشته، وتخرسُ أسئلتي الشّقية الغبية التي صارت تلازمني منذ فتحَتْ لها ندبةٌ مبروكةَ البابَ.

ورغمَ اجتهاد أبي وأمّي في الادّخار من أجل توسيع بيتنا وبنائه بالطّوب الأبيض والأسمنت؛ إلّا أنّ السّيد عبد الحميد الكريم استرخصَ هذه الهدية الغالية ثمنًا لإسْعادي.

وبالفعل، كانت سعادتي بالهديّة التي جلبها أكثرَ من سعادتي بعودته، بل أنستني الهديةُ ما أصابني، بل تصالحتُ مع قلبي الصّغير الثائر، حتى إنّني حمدتُ الله على حادثي الأليم ومصابي الكريم الذي كان سببًا مباشرًا في ذلك العطاء الذي كان منذ يومين مجرّد خاطرٍ عابرٍ لا يستقرّ في ذهني رغم اتّساع مخيّلتي.

كانت الهدية تلفازًا (نصر ١٤ بوصة- أحمر)، نعمْ تِلفاز، له شاشةٌ أجمل بكثيرٍ من تلفاز شعبان الذي يُعايرنا به ابنُه الكئيب، بل لا أكذبُ إنْ قلت إنّ التلفازَ الذي جاء به أبي يشبه الجهازَ السّحري الملون الذي يملكه ابنُ عمّه الحاجّ فؤاد – أطال الله عمرَ كلبِه؛ فهو السببُ فيما أنا فيه الآن!

انتصبتُ واقفًا مع دخول أبي حاملًا إيّاه فوق كتفه.. لم يسعْني الصمتُ المندهش كتعبير يُترجم سعادتي المجنونة، فصرختُ فرحًا وقذفتُ جملةً متداخلة مفكّكةً من فرْطِ النّشوة انطلقتْ كشظايا:

- أبي.. تلفزيون.. جاء.. أمّي.. الله..

قبّلني أبي واطمأنّ عليَّ وأجبتُه سريعًا عن حالي فعيني معلّقة على التّلفاز، وقلبي مشغولٌ بما في داخله، وضعَه أبي في زاويةِ الحجرة نائمًا مؤقتًا إلى أنْ يتمّ تشغيله، ووضَعَ بجواره حقيبة بلاستيك فيها بطاريتُه، وترَكَني دقائق في خلوةٍ مع العروس، بل أجمل من أيّ عروس.

جلسْنا أنا ومبروكة بين يدي الجهاز نلمسه بودٍّ، ونتحسّس هيكلَه بخشوع، ننظرُ مشْدوهين إلى شاشته البارقة الغامضة؛ فهنا تسكنُ «الحواديت» والحكايات، هنا ألفُ ليلة وليلة وموسيقاها التي يقلّدها عمر على كمانِه، والتي تثيرُ جنوني، هنا البشرُ الذين يموتون ويحيون ويضحكون ويرقصون دونَ أن يتحكّم فيهم خارقُ السّفينة قاتلُ الغلام.

فقط كان ينقصُه سلكُ الإرسال ليبدأ أعمالَه السّحرية، وقد نسيَه أبي مع أحد العمّال، والذي سيأتي به غدًا، هل ننتظرُ إلى الغد؟ مستحيل أنْ أنتظر.. يجب أن أشاهدَ فيه المسلسل الذي يحكي لي عنه عمر اللّيلة.. ألححتُ على أبي حتّى أعطاني المالَ وقرّرت أن أذهب بنفسي رغمَ جبيرتي الحديثة إلى الدّكان لأشتري السّلك، رفضت أمّي كعادتها، مُنزعجةً من طيشي الذي لم ينكسرْ مع ساعدي، لكنّ أبي كعادته وافقَ مرحّبًا بحماسي:

- جدع.. اذهب.

كتمتْ أمّي غيظَها احترامًا لأبي الذي قطعَ رحْلته من أجْلي، لكنْ أجبرتني أن آخذَ السيدة مبروكة معي لتحميني إذا هاجمني خطر- هكذا تصوّرت أمّي- فهي الآن أقوى منّي في نظرها لأنها تملك ذراعين وأنا في حُكْم الأبتر، بالإضافة أنّها ستؤنِسني في الطريق إذا ما تأخّرنا وزحفَ علينا الغروب، ولعلها تمنعُني إذا ما جازفتُ مجددًا وأردتُ أن أطلق لقدمي العَنان.

قبلتُ بصحبة مبروكة رغم أنّ ذلك ينالُ من رُجولتي في رحلةٍ تافهة مثل هذه، لكنْ لا بأس ببعض التّنازلات في سبيل تحقيق الغايات.

تدخّلت مبروكة تباشرُ أولى مهامّها معي كمبعوثةٍ من قِبَل الرقيبة أمّي؛ فألقتْ لائحة تحذيراتها على مسْمَعي كقراراتٍ لا استشارات، وكنتُ لا أفاصلها كثيرًا فهي تكْبرني بأيام، وأنا أعتبرها أختي الكبيرة.

حذّرتني السّيدة الرشيدة من المسير عبْرَ الطّريق المختصَر من أمام قصر الحاجّ فؤاد حتى لا نلتقي مع الكلب مرّة أخرى، ولو فقط بالنّظرات، مذكّرة إيّاي أني أصبتُ في توقيتٍ قريب مِن ذاك فلا داعي لتكْرار التّجربة بغباء، ثمّ أضافت بطريقةِ أنثى تلمزُ ضرّتها:

- وهذه المرّة قد لا نجدُ تافهةً بعيون خضراء لتنقذَك!!

هززتُ رأسي مُستسلمًا لتوْجيهات مبروكة ماضغًا حميّتي المعتادة وغضبي المرافق لي تحتَ ضرسي؛ فأنا أريدُ أن أنجز مهمّتي وأعودَ لأكرم ضيفَنا الجديد، أو بالأحرى ليكرمَني، وحتى أتمكّن من إبلاغ صغار العزبة بدءًا من عيد بن شعبان وأختيه وانْتهاءً بهم أيضًا أنّنا لم نعدْ كما كنّا.

سمع أبي إملاءاتِ الرّشيدة مبروكة ففتح النافذة مِن خلفنا، وقال يشيرُ إلى طريق الكلب:

- مِن الطريق نفسِه يا هاشم.

فهمتُه بالطّبع، فأنا أفهمُه ويفهمُني ولو بالإشارات.. أراد أبي أنْ يساعدني في تجاوز الورطة حتى لا يتحوّل أمرُ الكلب إلى عقدةٍ مُرْبكة تطيل ضيافتَها في عقلي.. نفثَ تكليف أبي بداخلي التحدّي فرفعت مقدّمة صدْري مزهوًّا، ووضعت ربعَ الجنيه في فتحةِ جبيرتي الخشبيّة، وسحبتُ مبروكة بيسراي لأعيدها تابعةً لي كعادتها مقرّرًا خوضَ المعركة، وبالفعل اتّجهت في طريق الكلب، فأنا بطلٌ لا تهزّني الصّعاب ولا أخشى الكلاب.

***

(١١)

مررْتُ على موقع الحادث، وقفتُ قليلًا أدورُ حول المكانِ أبحث عن المنزلقاتِ الغادرة التي كانتْ سببًا في سقوطي لعلّي أثأرُ منها أو أعاتبها.. وجدت بقعًا مُتناثرة مليئةً بالطّين والمياه، أردت أن أضعَ قدمي الحافية فيها كنوعٍ من الانتقام، لكنْ تراجعت حفاظًا على ملابسي، وحتى لا أفتحَ المجالَ لسخريةِ الآنسة مبروكة التي بادرتني:

- لماذا تسمَّرت! يا بك؟

- إنّه المكان الذي صادني بالأمس.

- بل صادتْك رعونتُك.. هيّا قبل أن يدركنا الظلام.

انسحبتُ خلفها، نظرتُ اتّجاه القصر وحاولت أن أتجهّز للمحطّ الأصعب في المشوار، شعرت برعشة مبروكة وقد تباطأ خطْوها، وشبّكت أصابع يمناها بيسراي.. إنها تضغطُ على أصابعي بشكلٍ لا إرادي خوفًا من الكلب، تقدّمت مدّعيًا الجسارة أفتّش في الفضاء عن بقعةِ هواء أملأ منها صدري كي تقرَّ أعضائي المتوتّرة، فلا تشعر مبروكة بحالتي؛ فرغمَ أنّي أعلمُ أنّ الكلب مربوط الآن، لكن لم يعدْ للدنيا أمان.

وصلْنا الدّكان بسلام، دقّق العمّ حلمي فاحصًا ممحّصًا، كاد يقول لي شيئًا لكنّه آثر النّبلَ ودفنَ شهوة الموعظة في جوفه حتى لا يثير آلامي، فغضّ طرفه عن عورة يدي.

- ألفُ سلامة يا هاشم، مبارك التلفاز.

قالها الرجلُ الطيّب، ثمّ استدار ليقيسَ ستّة أمتار من سلك الإرسال الأسود بتأنٍّ شديد كأنّه يقول لي: اعترضْ إنْ شئت أيّها الأهوج، وسألقّنك درسًا لا تنساه.

لكنّني- رغم عجلتي- لم أملك اسْتعجاله لا لخوفي من العجلة؛ بل لخوفي أن ينتهزَها فرصة ويقيء ما علقَ في بطنه من الكلماتِ المحْرجات التي أعرفُ جيدًا أنها الآن متّكئة على طرف لسانه.

جلسْنَا أنا ومبروكة خلفَه مُنتظرين مُراقبين مدّعين الهدوءَ والرّزانة، لكنّ ركبتي مبروكة اللّتين تهتزان تؤكّدان أنّ صبر الغبية لنْ يطول. مضتْ دقائقُ ثقيلة كانت كفيلةً بأن تجعل مبروكة الثائرةَ تنتفض:

- بسرعة يا عمّ حلمي.

هنا، استدار الرجلُ خطيبًا مفوّهًا فقد كان في انتظارِ تلك الغضبة الطائشة- سامحك الله يا مبروكة-

فقال يخطبُ فينا:

- وماذا جنيتُم مِن السّرعة والاستعجال أيّها الأشقياء؟! ألمْ تتعلّم الدّرس يا هاشم!! ألم..!

كتمتُ غيظي وأنصتُّ مضطرًّا لخطبتِه مُستسلمًا مدّعيًا الموافقةَ والاقتناع؛ فهو يملكُ الآن- على كلامه- الحجّةَ والبرهان، وذراعي المعلّقة على كتفي

تضعِفُ موْقفي وتلجِمُ لساني عن الردّ والجدال، فأشرتُ بيدي السّليمة كي يأخذَ وقتَه في تجهيز السّلك:

- براحتِكَ يا عمّ حلمي.

أخيرًا، انتهى الرّجلُ الوقور من المهمّة الشاقّة، فدسسْتُ أصبعي في الجبيرة لأخرجَ له ربعَ الجنيه كي يأخذَ منه ثمنَ سلْك الإرسال.. فلمْ أجدْ ربعَ الجنيه! أيْ والله لم أجدْه! أغمضتُ عيني أمتصّ الصّدمة حتّى لا أسقط مغشيًّا عليَّ، ولن تستطيع شربات إنقاذي هذه المرّة.

يا ويْلتي!

- أضعتُ ربعَ الجنيه يا مبروكة!

يا ربّ! أمَا يوجد غيري في هذا العالم كي....

وقبْلَ أنْ أكمل خاطرتي الكافرةَ كان عمرُ على باب الدّكان بدرّاجته الفاخرة الباهرة يشيرُ لنا برُبْع الجنيه:

- ها هوَ يا هاشم؛ سقطَ منْكما في الطريق.

لوْلا جبيرتي لطرتُ عليه أحتضنّه، وأقبّل رأسَه الكريم؛ فقدْ أحْياني الفتى من جديد، وأنقذني من ألم أشدّ عليَّ من كسْرة عظامي، وأنْساني أنّه كان يضربُ على كمانِه في الوقتِ الذي كلبهم يستعدّ لنهْشي؛ ولوْلاه الآنَ كنت سأضطرّ إلى مواجهةِ أمّي بخيبةٍ جديدة وعارٍ ثَقيل، هذا بالإضافة إلى أنّ أبي سيؤجّل تشغيلَ التّلفاز حتّى الغَد، والثّانية كانت عليَّ أشدّ.

تنفَّستُ الصُّعداء، وأخذتُ ربْعَ الجنيه قبل أن يطيرَ ثانية، وأعطيتُه لعمّ حلمي وتناولتْ مبروكة لفافةَ السّلك، وانصرفتُ خارجًا متعجّلًا ملوّحًا لمبروكة بالإسْراع خلفي لألبّي نداءَ التّلفاز، وقد أنستني الفرحة صديقي عمرَ رغْمَ جميلِهِ العظيم.

لكنّه كان أكرم؛ فأشارَ إلينا بودٍّ جميل:

– ترْكبان معي؟

– ماذا؟

التفتُّ مشْدوهًا إلى مبروكة غيرَ مصدّق عرضَ عمر.. هل هو جادّ!؟ هل بالفعل يعرضُ علينا ركوبَ درّاجته الفاخرة؟ أنا أعرف بالطّبع أنّ له شخصيتيْن؛ إحداهما تلك الغضوب قليلةُ الحياء الثائرةُ في الملعب، والأخرى تلك الودودُ اللّطيفة التي يتعاملُ بها معنا أنا ومبروكة بصفتيْنا قريباه، لكنْ لم أتخيّل أن يصلَ كرمُه إلى هذا الحدّ.

مرّت شهور وأنا أستحي أنْ أطلب ذلك منه رغْمَ صداقتي وقرابتي له، بل فكّرت أكثرَ من مرّة أن أدفع له كي يؤجّرها لي لكنّني تراجعت، كان لعابي يسيلُ على إطاريْها الفاخرين ومقعدِها المطاطي وقوائمها البارقة كلّما مرّ بها من أمام بيتنا راكبًا أو ساحبًا.. ما أجملَكَ يا ولَد يا عمر.. يا ألله! ما بالُ الأحلام اليوم تتحقّق بالجُملة دونَ كبيرِ مجهودٍ على طريقة هدف مباراة العيد!

اعترضتْ مبروكة التي انتقلتْ لها عدوى الاعْتراضات من أمّي:

– وكيف تحملُ الدّراجة اثنين أحدهما مكسور!

وقبلَ أن أردّ الرّد المناسبَ على التّعيسة مبروكة، قال عمرُ مبالغًا:

– درّاجتي تحملُ ثلاثة، ولو كان أحدُهم ميتًا!

أعْجَبتني جُملته الواثقة.. حتى لو لمْ يكنْ يستطيع، حتى لو سقطَ بنا وكُسرت ذراعي اليُسْرى، بل لو كُسِرت عنُقي، بل لو قفزَ بنا في ترْعة «صادق».. سأركب.. إنّه يومُ سعْدي وقد فُتح لي الباب على مصْراعيْه للبهْجة والتّحليق في سماء السّعداء؛ فلا خيارَ أمامي إلّا الدّخول والطيران!

ركبتُ أمامَه على القطعة الإسفنجيّة الإضافيّة الملصقة بعمود الدّراجة بين «الجادون» ومقعد الدرّاج، وركبتْ مبروكة بعد تردّدٍ وتملمُل وتحذْلق وتفذْلك وهمهمة اعتراضٍ على الكرسي الخلفي الكبير.. وتحرّك القائد عمر.

يا لَلْروعة!

ربّ لكَ الحمد..

أريدُ أن أعضّ ذراعي المكسورة كي أتأكّد أنّني لا أحلم! فأنا الآنَ أركب دراجةَ عمر الساحرة، أتمشّى بها على شاطئ ترعة صادق، وتحت أشجاره الوارفة في ساعةِ الغروب الهادئة، معي خليلتي مبروكة والطيّب عمر، في طريقي إلى ضيْفنا السعيد.. التلفاز!

أبعد كلّ هذا العطاء عطاء؟!

عنْ يسارنا أشجارُ الصّفصاف المتناثرة على ضفافِ الترعة، وعن يميننا أعواد الذّرة الصغيرة المتراصة، والتي ابتسمت شعيراتها على استحياءٍ تنبئ

عن وشوكِ ميلاد كيزانها.. أمدّ يسراي فأجذبُ غصنَ الصّفصاف المتدلّي نحونا وأتركُه محدثًا هزّةً في الشجرة، فتصيحُ مبروكة قلقةً بشتيمتِها المعتادة:

-انتبِهْ لجُرحك يا أحمق!

بعدَ قليلٍ تحاول هي تقليدي فتمدّ يدها الناحيةَ الأخرى نحو أوراق الذّرة الصغيرة لتصنع إنجازًا كإنجازي، لكنّ ذراعها القصيرة لا تسعفُها؛ فيتضامنُ عمر معها، ويدنو بالدّراجة نحو أعواد الذرة ليساعدها في تحقيق رغبتِها، وأيضًا لإثبات جدَارتِه في القيادة، فتجذبُ ورقةً خضراء وهي تصرخُ سعيدة.

يهبطُ عمر باحترافٍ في المنْحدرات ويتفادى كرّاتِ الطّين وفوائضَ شتْلات الأرز، ثمّ يصعد باقتدارٍ على المرتفعات، ومبروكة تصفّق مشجّعة مع كلّ خطوة، سعيدة بحالنا بعد أنْ هدأ خاطرها واطمأنّت إلى قيادة السّيد الدرّاج.

قلتُ لعمر:

- أنتَ أسعد الناس يا عمر.

ردّ ببساطة، وكان جاهزًا بالردّ:

- بلْ أنتم.

ضحكتُ ساخرًا، فهذا أبلهُ بالتأكيد:

- نحن؟! أنت طيّب يا عمر.

ثمّ سكتُّ قليلًا أصيغُ سؤالًا كنت أودّ أن أسأله لأبي منذ زمن:

- كيفَ لولد مثلك يكون ابنًا لـ..

قرَصَتني مبروكة بأصابعها الرفيعة المتسلّلة من أسفل إبطِ عمر - كما تفعل أمّي - قبل أن أكملَ سؤالي الأحمق كي أتأدّب مع صبيّ مثل عمر، خاصّة وأنّ أباه رغمَ ما فيه من آفات فهو ابن عمّ أبي، بل هو الذي اشْترى الدراجة التي نركبُها الآن، وقد يتدحْرَج سؤالي الغبي في عقله الطيب فيوصِلُه إلى تذكّر انفصال أمّه عن أبيه وتزوّجها بغيره.. فسحبتُ سؤالي الغبي مؤجّلًا إياه.

أخذت مبروكة تستجوبُ "عمر" فيما تبقّى من الطريق عن مواعيد المسلسلات وبرامج الكارتون بحُكْم خبرته وقدَم عهْده بالتلفاز، وهو يجيبُ تفصيلًا، فاستفتحَ الكلام بمسلسل الصباح (كَوكي كاك) بطولة «ماما نونو» ذات العيون الخضراء التي تشبه كثيرًا شربات بنت شعبان، وعلى ذكْر شربات ازْورَّت مبروكة كالعادة، ولوْلا أنها على درّاجته لصفعتْه على قفاه.. وشردتُ أنا على ذكْرها أسترجعُ صوتها وهي تقول:

- قمْ يا هاشم.

ثمّ تطوّع عمر مشكورًا وحكى الحلقاتِ الثلاثَ التي انقضتْ من (أولاد عمّ آدم)، وأكّد عمر لنا أن عمّ آدم هذا يشبه إلى حدٍّ كبير جدّه وجدّي عبد الباسط، ثمّ تفضّل علينا وغنّى مقدمةَ المسلسل الجميلة، مؤكّدًا للمرّة العاشرة أنه يستطيع أيضًا أن يعزفها كاملةً على الكمان.

***

(١٢)

زيادة في الاحتفاءِ وتوزيع صناديقِ البهْجة، أخرجَ أبي التلفاز إلى «الجُرن» إعلانًا منه عن مركزنا الأدبي الجديد، ودعوة عامّة منه للجميع كي يشاهدوا عندنا مسلسلَ الثامنة دون حِوج إلى المعلّم شعبان وثقل دم عيد بن شعبان.

خلع أبي جلبابَه، وبقي بالسّروال والصّديري، وقرّر الصعود إلى سطح الدار ليشبك سلْكَ الإرسال في الطّبق الألمونيوم الذي أخذه عنوةً من أمّي، ثمّ يثبّته في القائم الخشبي.

منَّيتُ نفسي- في سلسلة الأفراح هذه- بالصّعود إلى السّطح لأعيش تلك اللحظة من مكانها المناسب وأشاهدَ العيون المتطلّعة من أترابي الفضوليّين، وأذوق- ولو لمرّةٍ واحدة- طعمَ نظرات الإعجاب مثل تلك التي تُحيط الولدَ عمر بن فؤاد من أصدقائنا، وبعيون البنت شربات من الفتيات.

فكّرت أنْ أطلبَها من أبي، لكنّني تراجعتُ خجلًا أمام دفْقات الهدايا والأفراح المتواليات؛ فيكفيني ما حصلتُ عليه؛ فقد كوفئتُ بما لا أستحقّ، ومُصابي أقلّ تكلفة من كلّ ما نلْت من المباهج، هذا لو حسبنا المسألة على طريقةِ أبي وخارق السّفينة قاتل الغلام.

أيضًا خشيت أن أحرجَ أبي وأضطرّه إلى مواجهةٍ ثانية مباشرة مع أمّي المعترضة، خاصّة أنّ صعودي إلى السّطح أصعبُ من ذهابي إلى الدّكان؛ فبيتُنا الطّيني المتهالك ليس له سلمٌ داخلي حيث تهدّم منذ أسابيع ولم يبقَ فيه

إلّا البسْطة المعلّقة التي أشاهدُ عليها صاحب العمّة الخضراء، ولم يتفرّغ أبي لبنائه بعد رغم أنّه بنّاءٌ، مؤجّلًا ذلك حتى يحينَ موعدُ هدْم البيت كلّه لبنائه بالطّوب الأبيض والأسمنت؛ فكنّا نصعد إلى السّطح عبر جدارٍ قصير في الخارج عبارة عن بقيّة جدار قديم، ثمّ نضعُ أرجلنا في فجوةٍ في الجدار ثمّ نتشبث ببروز خشبي يطلّ من السقف، ثمّ نصل إلى السّطح بحمْد الله، وهذه العمليّة العسكرية يسيرةٌ للغاية لي ولأبي ولمبروكة في الأوقات العادية، لكنّها في وضْعي الصحّي الجديد شبهُ مستحيلة.

قرأني أبي كعادتِه فصاح ينادي من مكانه، وهو يعرف أنّ أكثر مِن دارٍ يتابعوننا من خلف شيش الشّبابيك:

- ولد يا عيد.

فتحَ عيد شُباك حجرتِه المطلّة على جرننا كأنّه كان في انتظار النداء:

- نعمْ يا عمّ عبد الحميد.

- هاتِ السلّم وتعال.

كدتُ أصفّق فرحًا لكنّني لم أجدْ راحتي اليمنى في موقعِها القديم بحُكْم تحوّلات التضاريس؛ فلوّحت بقبْضتي اليُسرى في الهواء مُبتهجًا بالحجر الذي ألقاه أبي فاصطادَ به عصفوريْن للفرحة؛ فأبي سيمكّنني من الصّعود معه لأتابع المشهدَ وردودَ فعل الجماهير عبر المكبّر الطبيعي من فوق سطحنا الطيني ومن وراء سورنا المصْنوع من أقراص الجلَّة، هذا علاوة على أنّ الولد «عيد» سيحضر بنفسِه مشهدَ انتقال التاج التلفزيوني من جُرنهم الموحش إلى

جرننا الفسيح، خاصّة أنّ أبي وضع التّلفاز على دكة النّورج[1] القديمة والتي تشبه إلى حدٍّ كبير عروشَ الملوك، ووضع بجواره بطاريتَه السّائلة كأنها الملكة؛ وكانوا إلى ذلك الحين يشغلون التلفاز بالبطارية قبل أن تزورنا الكهرباء بعد ذلك التّوقيت بعام أو عامين.

ألقى أبي إليَّ سلكَ الإرسال، وتسلّق سريعًا الجدارَ القصير إلى البُروز الخشبي إلى سطح الدار معه القائم الخشبي، وطبق أمّي الصدئ.

وصلَ عيد وأختاه خضرة وشربات يحملونَ السّلم، ويتطلّعون بشغفٍ إلى تلفازنا بهيّ الطلّة جميل القوام مُتناسين ما بيْننا من العِراك، وخلفهم أبوهم الذي يحبّ أن يحشرَ أنفَه في كلّ شيء ويوزّع على الخلق توجيهاتِه ووصاياه:

– مبارك يا أبا هاشم.

قالها شعبان وهو يدورُ حول دكّة النّورج الموضوع عليها التلفاز، وكأنه يعاين جاريةً في سوق النخاسة، ثمّ رفع صوتَه ليعلم عمّ صبحي المارّ بجاموسته وجملِه الأليف من أمام بيتنا؛ أنّه كان مستشارًا لأبي في عملية الشّراء:

– ألم يكنْ أفضل لو اشْترينا البنيَّ مثل تلفازي يا أبا هاشم؟!

ردّ عليه أبي مازحًا وهو يهبطُ سريعًا بعد أن ردّ التحية على عمّ صبحي، ورددتُ أنا التحية على ولده سعد:

– وما أدراكَ أنتَ بالألوان يا فلّاح!! الأحمر أبهى وأجمل.

(١) آلةٌ حديدية كان يستخدمها الفلاح المصري في هرس محصول القمح في الجرن، وكانت تُجرّ ببقرة أو جاموسة، وملحق بهذه الآلة دكّة خشبية كبيرة يجلس عليها شخص أو شخصان ليزيدا الثقلَ أثناء الحركة والدوران.

يُعجبني مزاحُ أبي الخشِن مع شعبان؛ فكلّ ما ينال من مقام شعبان وأولاد شعبان– باستثناء شربات مؤخّرًا– مصدرٌ لسعادتي.

نصبَ أبي السّلم بسرعةٍ وأسندَه للجدار، ثمّ تذكّر شيئًا فالتفتَ ناحية بنات شعبان:

– اقْتربي يا شربات.

عضّت مبروكة شفتها السّفلى كالعادة، ولسانُ حالها (حتى أنتَ يا خال ستدلّلها!).. دنتْ شربات مُسرعة بين يدي أبي وهو يستقبلُها باسمًا دهِشًا من طولها، رغم أنها لا تزال في العاشرة، وربما معجبًا بجمالها كسائرِ أولاد العزبة:

– ما شاء الله، ما شاء الله.

انحنى نحْوها:

– أنتِ مَن رمى الكلب؟

سكتتْ حياء، وهزّت رأسها بـ(نعم).. ثمّ أشار أبي إليّ:

– وأنقذتِ هذا الولد؟

لوتْ مبروكة عنقَها وشفتيها مستاءةً من حوار أبي مع غريمتِها، ووضعت شربات راحتَها على فمها تداري ضَحكتها من جُملة أبي وهي تنظر إليَّ، ثمّ هزّت رأسها ناطقة:

– نعم أنا.

قبّل رأسَها، وأخرج من الصديري عشرةَ قروش ورقيّة ودسّها في يد المحظوظة.

- هذه لك.. وستصعدين معنا إلى السطح.

عادَ أبي لموقعه بجوار السّلم وأشار إليَّ لأقتربَ منه، ثمّ جلس بين يدي القرفصاء كي أركبَ على كتفيه:

- هيّا.. شهِّل.

أرادَ أبي أن يسهلَ عليَّ مهمّة الصعود، ودون أن أنظرَ خلفي حيث يراقبني عيد بحسد وغلّ مكشوفين للعَيان، وحيث يستعدّ شعبان ليقيء إحدى نصائحه الغالية لأبي بألّا يجازف بلا داعٍ وألّا يرهق نفسه من أجل غبيّ مثلي، رفعت قدَمي اليمني ثمّ اليُسرى حتى استقررتُ على كتفيه الكريمتين وقبضت بيسراي على شعْرِه الذي يشبه شَعْري، وقال أبي منبّهًا وهو يبدأ الصعود:

- تشبّث جيدًا.. إلّا إذا كنت تريد أن تزور المجبّراتي مجدّدًا.

خرجتْ أمّي القَلقة دائمًا المنزعجة غالبًا، وقد انتبهت مُتأخّرة إلى خطّة أبي، تصيح بصوتها القويّ الذي تنافس به عمّ عسران الذي بدأ لتوّه رفعَ الأذان:

- شُفِ الرجل، حرام عليك الولد يا عبد الحميد؛ كسْرُه لم ينجبر.

الحمدُ لله، تأخّرت أمّي كثيرًا في الخروج، والحمدُ لله لم يجبْها أبي، واستكملَ مسيرةَ الارتقاء بسهولة؛ فتلك وظيفتُه الماهرُ بها، ثمّ صعدتِ الرّشيقة مبروكة

وخلفَها صعدتْ شربات بإذْن أبي، لكنّ السيدة مبروكة حاولتْ منْعَها، وكادت تندلعُ بينهما معركةٌ جديدة؛ فأدركتُهما قبل الاشتعال حتى لا يلوّثا الأجواء:

- دَعيها يا مبروكة.

زمّت مبروكة شفتيْها، وجمعتْ قبضتها تريدُ أن تلْكُمني، فأنا لا أزال أتجاهلُ عداوتها لها وما بينهما من ثأر، بل وأواصلُ تدْليلها، وأنا أفعلُ ذلك مضطرًّا؛ فالصّبيةُ صاحبةُ أفْضالٍ لا أستطيع التنكّر لها.

ثبَّت أبي قائمَ الإرسال بجوار القاعةِ الواسعة المخصّصة لخلوته فوق السطح.

يا ألله!

نسمةٌ صيفية نادرة تلفَحُنا مع ساعةِ الغروبِ أمام القاعة الطّيبة، وعمّ عسران صاحب الصوت الندي الشّجي الذي ينافس به الجدّ عبد الباسط على مقربةٍ منّا على سطح المسجد يردّد الأذان، ونسوة العزبة يُراقبنَ ويصِحْن: مبارك يا أبا هاشم. والولد عيد وأختُه خضرة وأبوهما في الأسفل يتابعون، ولعلّهم يتحسّرون على مجدِهم الذّاهب.. هذا نصرٌ يستحقّ الإيمان.. إن كان هذا من ترتيبِ خارقِ السّفينة قاتل الغلام؛ فالرّجلُ لا بأس به إلى الآن.

علا مؤشّرُ سعادتي بزغرودةِ عمّتي؛ فأنا أعشقُ الزّغاريد، لكنّ الزغرودة ما لبثتْ بعد ميلادها بثوان أن تدَحْرجت في جوْفها، فلم تكملْها لشيء انحشرَ في حلقها، لكنّ الآنسة شربات الواقفة بجواري كأنها استلمتِ الإشارة من عمّتي فوضعت راحتها على فمِها كالسيّدات الخبيرات تكملُ ما عجزتْ عنه

عمّتي وتضعُ في عنقي جميلًا ثالثًا، فأطلقتْ زغرودة أروع مِن كمان عمر، وأنا أنظرُ إليها مدقّقًا كأني أتأكّد ممّا يُشاع عنها من جَمال.

ترجمتْ زغرودة شربات حالتي بأوضح ما تكون التّرجمات، وصاغتْها بأفضل ما تكون الصّياغات، وأرسلتها في كتلٍ هواء تتكوّر، وتتسلّل إلى الأسماع كتسلّل الأذان، فتحْكي الفرحَ والنشوة وانشراحًا أتى في قطارِ الأقْدار المبْهجة، ولا أدري متى سيغادرُ دارنا.. وربما لنْ يغادر!

***

فرَشْنا حصيرتيْنا المصنوعتيْن من الخوص الجافّ أمام التلفاز، وتناولت الأسرةُ العشاءَ على طبليتنا الخشبية العرْجاء، عداي أنا ومبروكة فقدْ جلسنا مُسمَّرين على طرف الحصيرة الخوصِ أمام الشّاشة وما تبثّه من أحلام وأنغام، نرقبُ كلّ الزّوايا والخبايا وبهلوانات الإعلانات وحركةَ الصّور السحرية الغريبة العجيبة، ونتبادل بين كلّ لقطةٍ وأخرى النظراتِ نسْتوثق أنّ ما نراه واقعًا مُنتشين بانتصارنا أخيرًا على الزمان.

أمّي الحنونة بين كلّ لقمةٍ وأخرى تكزني في جنبي:

– كلْ يا أحمق؛ التلفزيون لن يطير.

– دَعيه على راحتِه.

حضرتْ نسوةُ العزبة إلى جرْننا قبيل المسلسل مهنّئات مجاملاتٍ سعيدات بهذا التطوّر الذي صبّ في مصلحتهنّ؛ فهنّ لم يعدْنَ مضطرّات إلى الذهاب إلى جُرن شعبان، أو التلصّص من خلفِ شيش الشبابيك على شاشة الحاجّ

فؤاد، فأبي قد كفاهُنّ المؤونة، لا سيّما أنه كان أحبّ رجل في العزبة إلى النّساء والرجال، والغريبُ في الأمر أنّ خالة اعتماد زوجة شبعانٍ وابنتيها قد حضرْنَ للمشاهدةِ مع الجميع.

معَ ظهور المذيعة صاحبةِ الشّعر النّاعم، لتعلن بدْءَ الحلقة الرّابعة من المسلسل، تأخّرت إلى الوراء كي أستطيعَ مُراقبة كلّ العيون النّشوى من الحدثِ الجميل، ولأكون بجوار مبروكة شريكتي في الفرحةِ لحظةً بلحظة، رغم أنّها تغيّرت عليَّ هذه الأيام.

بدأ الموسيقارُ لحنَه الفاتن ليرفع السّتار عن عالم روحي وسحر علوي وفرجاتٍ جديدة في جوف السماء يستحيل وصفُها بالكلمات، هزّ «ميشيل المصري» أوتارَ الكمان؛ فكأنّه مدّ قوسَه الناعم إلى جوف صدْري، ومنْه إلى قلبِ قلبي ليمسح ما علقَ من أكْدار الصغار:

يا عمّ آدم عيالك متبعترين في المتاهة

دوسنا بقدمنا خَيالى وحياتنا ضلّت خطاها

مدّينا في الكون خطانا زدْنا ف غلطنا وخطانا

ورغم أنّي لم أفهمْ أغلبَ كلمات الأغنية حينها، إلّا أني ابتسمتُ متفاجئًا بذكر السّفينة، عندما وصل الشّاعر «حجاب» إلى جملته:

يا دنيا لا تلفلفينا

ولا تلعبي بالسفينة

ورسِّيها على مشتهاها

المقدّمة الموسيقيّة وحدها كانت كفيلةً أن تشبع روحي المتوهّجة، وتدهن حاضري بالعطور، وتُحيطها بالبخور، وتهدْهِدني على بساطٍ من ريش، فأنا تسحَرني ضربة الكمان بقوسِه النّاعم الحزين، والذي لم أكنْ لأعرفَه لوْلا الطّيب عمر.

سُحرت من اللّقطة الأولى في المسلسل، بل خُطفت بفعل كائنٍ خفيّ، وانتقلتُ من جُرننا الترابي إلى سطْح القمر، فلا جاذبية ولا ضوضاء ولا خطر.

تكادُ عيني لا تطرف؛ فمِن جهةٍ أريد أن أحفظَ كلّ الأحداث كي أنقلها غدًا لمن لم يحضرْ هذا الحفل، ومن جهةٍ أخرى مستمتعٌ مأخوذٌ بهذه الصّور المتحرّكة والكلام الملْضوم المتَتابع وحوار مخلوقاتٍ من دم ولحم تسكن هذا الصّندوق الأحمر، والتي أشاهدها لأوّل مرّةٍ عن قرب، وبهذه البهجة ودون تلصّصٍ من خلف «الشّيش».

وظلّت حالتي هكذا مع «تيترات» الدّراما وحكاياتها، أتعلّق بها وبموسيقاها، وتنزعني نزعًا من خنادق هُمومي مهْما كانت ضيّقة.

أعْجبني منطقُ إلهامي بن آدم في حواره مع أمّه عن الرّزق والحياة، ثمّ أعْجبتني ردودُ أمّه المؤمنة كإيمانِ أبي، ثمّ عدتُ فاقتنعتُ بمنطق إلهامي السّاخط، وأعْجبني أسلوبُ الدّكتورة الجميلة سميّة مع أبيها آدم، وأبْهرني منطقُ آدم شبيه أبي والجدّ عبد الباسط في توجيهه لابنته الدكتورة.

***

(١٣)

بعدَ أيّام طويلة، خفّف قسوتها صندوقُ الدنيا الذي أقضي أمامَه أغلب السّاعات من موسيقى النشيد الوطني في بدْء الإرسال، وحتى «تششششش» في منتصفِ النهار، ثمّ استئناف الإرْسال، ثمّ «تششششش» أخرى في نهايته، كان موْعدي مع حريّتي التي غابتْ خلف الرّباط الأبيض والقضيبيْن الخشبيّين، فرغم أنّ قيْدي لم يكنْ يمنعني عن كثير من نشاطاتي، ورغم أنّ نشاطي قلّ بطبيعة الحال لانشغالي الكامل بحكايا التّلفاز.

لكنّ شعوري بأنّ هناك جزءًا غريبًا زائدًا عن جسَدي كان يثقلني ويسلسلني ويجذبني إلى أسفل دائمًا، وإحْساسي بأنّ هناك شيئًا ممنوعًا يزيد ضيقي وغمّي، فرغم أنّني لم أكنْ أحبّ لعبة الإطارات فقد كنتُ أبكي حسرةً عندما أرى الأولادَ يدفعونها أمامَهم على الطّريق، وأنا لأوّل مرّة أجلس على مقعد المتفرجين.

فوجئتُ أثناءَ فكّ ذراعي أنّ ربعَ الجنيه، الذي سقط منّي يومَ شراء سلك الإرسال، ثمّ وجده عمر؛ لا يزالُ متوسّدًا خشبة الجبيرة كما وضعته يومَها.. أدرتُ عجلة عقلي النّبيه سريعًا، وفهمتُ دونَ تعب «السيناريو» الذي جرى من قِبل النّبيل عمر؛ فدسستُ الورقةَ الزّرقاء في جيبي قبل أنْ ينتبه إليها المجبراتي سلّومة.

***

اندهشتْ مبروكة عندما أخبرتها.. فشرحتْ لي المشروح أنّ الطيب عمر لم يعثرْ على ربع الجنيه كما زعم، ولكنّه دفعَه لنا من جيبه الخاصّ العامر دومًا؛ حمايةً لنا من فزعٍ جديد.

قالتْ مبروكة بلهجةٍ آمرة:

- سنردّه.

- هو تبرّعَ به.

- لسْنا شحّاذين أيها الأحمق.

فكّرت قليلًا:

- معكِ حقّ أيتها الغبية.

ذهبْنا إليه، وبالطّبع ناديتُه من خلف سور القصْر تجنبًا لتلاقي النظرات مع الكلب الذي لا أستبعدُ أن يتبسمَ ساخرًا عندما يراني، وربما يغمزُ لي بعينه يذكّرني بما كان، ويقول لي: (أنثى هي التي أنقذتك من فكّي يا طويل يا تافه!).

لم نجدْ "عمر" في قصر أبيه، فذهبنا إلى كوخ جدّه الذي بناه وسطَ فدادينه الخمس منذ عام؛ حيث يرابط عمرُ هناك معظم الأوقات.

بادرتْ مبروكة بشكْر السيد عمر على معروفِه النّبيل، وهي تدسّ ربعَ الجنيه في جيبه، وأنا أدعو في سرّي ألّا يأخذه؛ فهو قطعًا يملك الكثيرَ من هذه الأرباع الحرام، بل والحلالُ أيضًا التي يُعطيها له جدّه القانع من الدّنيا

بكوخ رغم ثرائه، والذي يغدقُ على حفيده العَطاء، فعمر رابحٌ من الجهتين، ولن تنقص حصّالته كثيرًا إذا نقصَ منها هذا الرّبع اليتيم.

وكما رجوتُ مِن هذا الفتى المخْتلف عن كلّ الفتيان؛ فقد تمنّع ورفض تمامًا أن يأخذَ ربع الجنيه، وبعد دفْع وصدّ وردٍّ بين يدِه ويدِ مبروكة؛ تفتّق ذهنُه العبقري عن فكرةٍ عاطفية ساذَجة، رغم أنه يكبرُنا بعامين:

– ما رأيكم نحتفظُ به للعيد، فإذا جاءتِ الوقفةُ أخرجناه واشْترينا ما نريد!

أُعجبتْ مبروكة بهذا الاقْتراح «الأحمق»، بل بدا لي أنها مُعْجبة بصاحبه، وأضافتْ تجويدًا من عندها دون أنْ تستأذنني بأنّ على كلّ منّا – أنا وهي – أنْ نضع مثله أو مثليْه في الخزانة نفسها، ندّخره من مصروفنا أو من «تصْييف» القطن، فأشارَ عمر بأصبعه الإبهام لأعلى معلنًا ذكاءَ الفكرة، وأنا أتابع تناغمهما كأني عزولٌ معزول، لكنْ لا ضيرَ؛ هذا عمرُ قريبنا وأطيبُ الأولاد وأوْسمهم وأغناهم وأكبرنا، ولا غضاضةَ أن تُعجَبَ به مبروكة.

وبالفعل، أخذتْه مبروكة ووضعتْه في أحدِ شقوق جدار الحظيرة الجنوبي على أنْ نضع ربعيْنَا – أنا ومبروكة – حين ميْسَرة.

***

بعد تحرّري مطلقًا من سجنِ الجبيرة ومؤقتًا من شِباك التّلفاز الأخّاذ، ذهبت مع مبروكة إلى حقلنا القبلي، وبعد أنْ ساعدت "سعد" بن عمّ صبحي في تنظيف مرْبط بهائمهم من الرّوث، وأزَحْناه إلى الوراء، وهيّأنا مناخ الجَمل

الأليف الودود الأشبه بأتاننا منْهُ للبعير، وبعد أنْ ساعدني هو في حشّ غُمرَي برسيم لجاموستنا وبقرتنا الحلوب؛ اقترح عليَّ أنْ أستدعي السيدة مبروكة، ونلعب مباراة «سيجة» وديّة احتفالًا بعودتي.

ولأنّني أعرفُ مستوى مبروكة الجيّد في السّيجة بادرتْ بالرّفض التّام، فإنْ كنت ألاعبُها بيني وبينها؛ فهذا لأنّ عارَ الهزيمة لا يشاهدُه إلّا أمّي وعمّتي، وأحيانًا أبي، تمامًا مثلَ شتيمتي بـ«الأحمق» و«الغبي»، لكنْ أنْ أتهوّر وأواجهها علنًا أمام الفتيان والفتيات الذين يوقّرونني بصفتي أقواهم وأنجبهم في الدراسة، بل هناك احتمالٌ كبير أنْ يرانا عيد بن شعبان وأختاه الشريرة والطيبة؛ فهذه مغامرةٌ كبيرة والعاقبة قد تكون فاضحة، ويكْفيني هذه الأيام ما نالني من الفَضائح، خاصّة أنّ السيدة مبروكة تتحوّل شخصًا آخر تمامًا أثناء لعبة السّيجة بالضبط كما يتحوّل عمر في مباريات الكرة.

سارعَ سعد باقتراح آخر، وكان عليّ أنْ أوافق مضطرًّا، ومكثْنا ندفعُ الإطارات الفارغة علىٍ الطريق طيلة العَصْرية وسط تهليلاتِ الأولاد فرحًا بعودتي بينهم.

***

بعدَ يوم طويل من اللّعب والقفز والهزيمة والفوز ودفع الإطارات.. استيقظتُ فٍي جوف الليل على ألم شديد لا تُحيطه كلمةٌ من قاموس الوجَع؛ فكأنّ كلب الحاجّ فؤاد بارك علٍى جسدي ينهش ذراعي ويفصل شرائحَ لحْمي عن عظمي بتأنٍّ وهدوء كهدوء أتاننا في نقل السّباخ.

إنّه ليس كابوسًا، إنّه ألمٌ قاتل لا أطيقه، قفزتُ من على السّرير ممسكًا بذراعي أتلوّى وأضرب رأسي في الباب، وأمّي تحاول إسعافي بأيّ شيء ولا تدري مصدرَ ألمي.

سحبتْ أمّي مبروكة خلفَها لتؤنِسَها في الطريق، وانطلقت إلى الجدّ عبد الباسط في كوخه الرّابض عند أوّل العزبة لتوقظَه من أجْل إسعافي، جاء الجدّ مُسْرِعًا بالحمار.. حاولَ تهدئتي بقراءة بعضِ الآيات، لكنْ لم تُجْدِ الآياتُ معي شيئًا؛ فربّما صدري المليء بالشكوك والسّاخط على الأقدار وخارق السّفينة قاتل الغلام يُبطل مفعولَ الآيات.

لم يجِد الجدُّ بدًّا من التوجّه إلى أقرب مجبّراتي، فأركبني أمامَه وأنا أحاول أن أغلقَ فوّهة البركان التي تنتهي عند فمي؛ فينقلبُ رأسي إلى صدر جدّي وأنا أئنّ أنينًا مخنوقًا كعواء ذئبٍ يحْتضر.

اتّجه الجدّ هذه المرّة إلى الشّيخ «منعم الفقي» في عزبةِ إسكندر، وهو المجبّراتي الأقلّ شهرة من الآخر الذي قام بمهمّة جبْرِ كسْري.. جسّ الشّيخ منعم ذراعي بأنامله، وأنا لا أزال أتأوّه وأئنّ، ثمّ همس يشتم غائبًا:

– يا ابن الـــ... يا سلّومة.

فهِمَ الجدّ، وفهمتُ أنّ هناك خطأً في تجبيري القديم الذي قام به «سلّومة»، فقال الشيخ منعم متأثرًا:

– العظامُ لحمت "غلط" يا عمّ عبد الباسط، لا بدّ من إعادتها.

بلعَ الجدّ لعابَه وهو ينظر إليّ وكان وقعُ الألم أشدَّ عليه منّي، وأنا فهمتُ مِن نظرة جدّي لا من كلام المجبّراتي؛ أنّهم قرّروا إعادةَ كسر ذراعي لإصلاح مَساره ثمّ إعادة تجْبيري.. مسح الجدّ عرقَه الذي بدأ ينزّ، ثمّ مسحَ رأسي يقوّيني؛ فالأمرُ دونَ مخدّر صعب.. بلْ مستحيل، ثمّ أخرج الجدّ جنيهًا وهزّه أمامي مغريًا إيّاي:

- سأعْطيك إيّاه، ومثلَه؛ إنْ أثبتّ رجولتك، الأمر بسيط إن شاء الله.

إغراءُ الجنيهيْن كبير جدًّا، وكفيلٌ بأن أكسرَ من أجله ذراعي السّليمة؛ فأنا كنت أطمعُ منذ ساعات في ربْع جنيه، لكنّ الوجعَ وقف حائلًا ضدّ قبول الصّفقة أو حتى تقْليبها في عقلي؛ فعقلي شبهُ غائب خلفَ سحابةِ اللّهب التي تمطر حممًا على عظمي.

دسّ الجدّ الجنيهَ الأوّل في جيبي تحفيزًا منه لي، فكأني اطْمأننتُ أو حاولت أن أخدعَ نفسي بعد أنْ لامسَ الجنيه صدْري، وقد يرافقه أخوه بعدَ قليل؛ فأغلقتُ بابَ وجعي وخوفي مؤقتًا، وقلتُ كأنّني أسمح له بقصّ شريطِ الألم:

- هيّا يا شيخ منعم.

تباسمَ الشيخ منعم متردّدًا فهو يعلمُ طبيعةَ ما هو مُقْدم عليه، ومسح الجدّ رأسي مجدّدًا مهنّئًا لي على رجولتي، وأنا ارتحتُ قليلًا للقرار؛ فأنا وإنْ كنت سأتألّم قليلًا- وربما كثيرًا- لكنّني حصلت توًّا على قرش من عرقِ الجبين أو عرق العِظام، وسأعطي نصفَه لمبروكة لتضعه في الشّق، هذا بالإضافة أنني

قويّ متين، ولو كان الأمر يسوؤني ما دفعني إليه جدّي الحنون، والأهمّ من ذلك أنهما كانا سينفّذان المهمّة في كلّ الأحوال.

على بركة الله.

هززتُ رأسي مُستسلمًا، وجلستُ أمام الشّيخ منعم في انْتظار الواقعة، وسلّيْت نفسي بأني لم أشعرْ بشيء ساعةَ الكسْر الحقيقي، فهل سأشعرُ به ساعة تعديله.. أمسك منعم بذراعي وأمسكني جدّي معه.. وبدءا العمل.

آآآآآآآآه

كأنّ حجرًا منْصهرًا أُدنيَ من دماغي الطري، أو كأنّ نارًا خافتة أشعلَتْ في جسدي لتذيبَه على مهل، أَو كأنّ منشارًا صدئًا يروح جيئةً وذهابًا على سطْح جلدي، ثمّ أنسجتي وعروقي، فيخدشُ ولا يقطع، ويعيدُ الكَرّة ليمرّ على الجرح نفسه مرّات.

هنا، أدركت خسرانَ الصّفقة، وقرّرت الفِكاك من ساطور ذلك الجزار، لكنْ رغم قوتي- التي كانت-لم أستطعْ أن أفلتَ من قبضة الشّيخ والجدّ. أصرخُ وأضربُ الأرض، وأزوم وأئنّ وأدور برأسي على كتفي وأسبّ الجدّ ومنعم وأمّي وسلّومة المجبراتي والخضرَ قاتلَ الغلام، كلّ ذلك في لحظات.

آآآآآآآآه

تمّت المهمّة بعد دقيقتين مرّتَا دهرًا.. سقطتُ على الأرض بين النّائم واليقْظان، ولساني لا ينقطعُ عن سبّ كلّ مَن تطاله ذاكرتي من المخلوقات التي أعرفها.

رغم أنّ الألم انسحبَ مسافة قليلة، لكنْ لم ينقطع بكائي طوالَ طريق العودة رغم كبر سنّي؛ فالمشهدُ النّاري حاضرٌ في ذهني لا يريدُ السكون أو الهروب، والجدُّ مُشفق على حالي، ولا يجد ما يعتذرُ به منّي فيمسحُ على رأسي، وأنا راكبٌ أمامَه على الحمار، ويقول لي:

- لو لمْ نفعل لبقي عظمُك مشوّهًا طوال العمر.

قاطعته بغضب وقلّة تهذيب:

- اصمتْ يا جدّ، أنا أكرهُك.

مسحَ على رأسي:

- سامحني يا هاشم، لم يكنْ أمامنا اختيار.

- أنا أكرهُك وأكره الخضر.

- وما ذنب الخضر؟

- إنّه يعذّبني كما عذب الغلام.

- الخضر مات كما مات الغلام.

- إذًا، مَن يفعل بي هذا؟

- أقدار الله.

- ولَم يعذبني الله؟!

- ربما يجهّزك.

- بالتّعذيب!

- لتتحمّل آلامًا أكبر.

- ليسَ في الدنيا ألمٌ أكبر.

- بل آلام.

صحتُ ودمعاتي تعطّل كلماتي، وبقايا آلامي تزكي اللّهب في صدْري، مواصلًا تهجّمي:

- أنت تكذب، لا يوجد ألمٌ أكبر ممّا رأيت.

سكتَ الجدّ، لا يريد أن يواصلَ جدالي، فصرختُ مستطردًا:

- لو هشّم «منعم» ذراعك لأدركت أنه لا يوجد.

مسحَ على رأسي مجدّدًا يهدّئني، وضمّني إلى صدره، وأخذ يقرأ ما يحفظُ مِن آيات حتى وصلَ «السّفينة»؛ فزادني الأمرُ استفزازًا، وقفزتُ من على الحِمار إلى البيت حاملًا ذراعي بذراعي، هاربًا غير ملتفتٍ إلى نداءاته.

***

بعدَ أسابيع استقامَ ذراعي كثيرًا، واستقامتْ نفْسي قليلًا، وصرتُ مستعدًّا للألم الأكبر الذي يدّعيه الجدّ؛ فأنا وإنْ شككتُ بكلام الجدّ أو كلام أبي؛ لكنه أحيانًا يقع.

***

(١٤)

كانتْ أمّي تخرجُ في جولةِ استطلاعٍ ليلية تباشر فيها ملحقات دارنا الصغيرة قبيل نومنا، وتحديدًا بعد مسلسلِ الثّامنة مباشرة- بعد أنْ صار عندنا تلفاز- وأحيانًا كانت تستمعُ لـ«حديث الروح»، ثمّ تقوم مع أوّل خبرٍ من نشرة التاسعة، فتحملُ في يُسْراها مِصباحنا الكيروسينيّ، وتسوقني أمامَها بيُمناها على سبيل أنّني رجل- كما اتّفقنا- سيؤنس وحشتَها في غياب الموقّر أبي.

مِن النّاحية الأمنية، فالحظيرة معرّضة لاختراقِ اللّصوص من أكثر من جهة؛ فنصفُ جدارها الغربي قصيرٌ مُتهالك يستطيعُ أيّ لصّ أن يتسلّق من خلاله إلى السّطح إلى قاعة أبي، وإنْ كانت أمّي النشطة قامت بسدّ فراغه بصفائح السّمن والعسل الفارغة، واستغلّتها أمّي بعد ذلك كغيَّات للحمّام، ثمّ رقّعَت ما حولها بالطّين مثلما كان يفعل أبي في الأبراج؛ فاكتملَ البناء أو شبْه اكتمل، لكنّه لا يزال عرضةً للخطر.

وهناك كوّةٌ في الجدار الغربي فوقَ الفرنِ مباشرة متروكة للتّهوية، وهي مشتركة مع جدار زريبة شعبان، وجزء آخر مِن الجدار الجنوبي انْحنى بعد طولِ زمان، فقام أبي بوضْع جذع شجرةٍ تحته كعصا يتوكّأ عليها حتى لا يسقطَ على العنزات، وإلى أن يتفرّغ هو لهدْمه وبنائه من جديد كما فعلَ الخضر في جدار الغلامين، وهو نفسُه الجدار الذي ندّخر في شقوقِه أموالنا بحسب خطّة مبروكة وعمر.

النّسيم يتلصّص من الفتحات التي لم تُسدّ، ولضيقها يدخل مندفعًا فيداعب المصباح المسكين من كلّ جانب دعابة ثقيلة فتراقصُ شعلةُ الفتيلة بداخل الزّجاجة يمينًا ويسارًا، فتبدو كأنّها تحتضر فتسعفها أمّي الحنون، وتحوطها بكفّها لتنقذ فتيلتها من الموت.

تتجوّل أمّي في الحظيرة الصّغيرة، وتطمئنّ على ساكنيها، ففي الزّاوية الأدفأ من الحظيرة تكوّر البط والدّجاج حول نفسه مستدفئًا مغلقًا عليه بسور طيني ارْتفاعه يقارب شبرًا، هذا بخلاف الإوزّة التي أكرمها الله بذرية، وسكنَتْ معنا في حجْرة النوم إلى أنْ تقوى عظامُ أفراخها، وفي الزّاوية الأبرد من الحظيرة وقفت البقرةُ العجوز ثابتةً شاردةً هادئة، وبجوارها الجاموسةُ الوقور تحت جلال من الخيش عبارة عن زكيبة قطنٍ قديمة، أو جِوال قسمَه أبي نصفين ليغطّي ظهرهما، تجترّ كلّ منْهما طعامها في سلام، مُسْتمتعين بحالة السّكون التي تعيشانها سعيدتيْن بحالهما؛ فترائبُهما مِن البهائم يبيتون في الطلّ، وفي مهبّ الريح وفي مرمى المطر.

ترفعُ أمّي المصباحَ قليلًا بحيث يعْلو عينيها كيْ تفسحَ مجالًا لنظرها لتتأكّد من رباط الأمان في الوتد، ثمّ تنْحني لتتأكّد بنفسها هل ربطتْ مبروكة حبلَ البقرة ثلاث «خيَّات» كما هي تعليمات أبي، أم إنّها اكتفت بعقدتيْن، كحالها في أيام الصيف كي تسرعَ لمشاهدة مسلسل السادسة.

***

اللّيلة كانت مُظلمة موحِشَة، خاصّة مع حفيفِ الأشجار، وكانت تستحقّ أن تتنازل أمّي وتخضع للتّفاوض مع دبلوماسيّ مَكير مثلي للخروج من تحتِ

لحافه وترك الدّفء والأمان إلى الهواء والظلام، رغم أني أوشك على اقتحام عامي الرّابع عشر، ومِن حقّي الاعتراض خاصّة أنني أعمل بالحقل طيلة النهار وأنهضُ للدراسة باكرًا.

سرتُ معها، لكنْ أردت ألّا أفتحَ عيني باتّساعهما حتّى لا يطير النومُ منهما؛ فتركتها تدفعني حينًا وتسْحَبني حينًا ملقيًا رأسي إلى كتفي كي أحافظَ على الخيط الرّفيع بيني وبين النوم، توجّهت بي إلى الميدان الذي اعتدناه، وهدفُنا الرّئيسي كان «عشّة الفرن» المتّصلة بالزّريبة.. ألقت نظرةً سريعة على البهائم ثمّ توجّهت لتتأكّد أنّ نار الفرن قد خبتْ تمامًا بعد يوم من الخبيز المرهق مع جارتها خالة اعتماد (أمّ عيد)، ولتؤمنَ الفرن لا بدّ أنْ تخرجَ من الزريبة؛ فجسمُ الفرن بالداخل وفمُه بالخارج في العشة.

الرياحُ كانت ربيعيّة قويّة، فلا يؤمنُ معها على قمْحنا المكوَّم في طرف الحقل الملاصق لـ«عشّة الفرن».. اقتربتْ أمّي من الباب الخشبيّ الصغير المتهالك الذي يفصل بين عشة الفرن والزريبة. برقَ لها من بين ثقوب الباب لهبٌ يتراقص.. فزعت.. اقتربت.. انتفضت.. صرخت.. أسرعت الخطى.. فتحت الباب رأت ما كانت تحذره وتخشاه؛ ألسنةُ اللّهب تسرّبت من الفرن إلى حوايا القشّ المحيطة والتي تناثرت في سلسلة إلى الحقل كأنّ الحوايا وضعت خطّة متعمّدة لإشعال الحريق.

ألقتْ أمّي بصرخةٍ أخرى لكنْ لم يسمعها أحد، أو مَن سمعها لم يكنْ ليلبي على الفور؛ فأبي لم يكن في الدّار، وليس معنا سوى عمّتي النؤوم، وابنتها مبروكة التي نامت هي الأخرى.

لم تنتظرْ أمّي وصولَ النجدة؛ فوضعت المصباحَ على بروز خشبي خلفها، وخلعت شالها الأسودَ الفضفاض، وأخذت تضربُ به مبتدأً النار كي تقطعَ لسانه في مهْدِه قبل أن يصل إلى الحقل، وبالفعل أطفأتْ بعضها.. لكنّ النار- ثأرًا لنفسها- ردّت الضّربة بمثلها، فعلقت بشال أمّي القطني فسَرَتْ فيه سريعًا.. سحبتْ أمّي شالها بحركةٍ مرتبكة كي تنقذَه من مخالب اللّهب، لكنّها أخطأت الطريقة فضربت المصباحَ فسقط من على البروز الخشبيّ على حوايا القشّ، فزاد المعركة احتدامًا، وزاد أمّي ارتباكًا، وزادني رعبًا، قفزتُ نحوها أساعدُها لكني زدْتها ارتباكًا فصرخت بقوّة توقظ النائمين خوفًا عليَّ لا على نفسها.

بعد قليل، كانت عمّتي قد وصلتْ وخلفَها مبروكة وخالة اعتماد، فأمّا الأوليان فلمْ تقدّما شيئًا ذا قيمة سوى الصراخ المتّصل، وكفَى به نعمة، وأمّا خالة اعتماد فقفزتْ وسط النار وقفزتُ وراءَها نريدُ أن نسحب أمّي، لكنْ حالَ بيننا سقوطُ عرقٍ خشبي مُشْتعل.

أعلنتْ أمّي التحدّي فظلّت تدورُ حول نفسِها تحاول أن توقِفَ سيلَ النّار ظنًّا منها أنها تستطيع، لكنّها فجأةً تعثّرت فترنّحت فكادتْ تسقط على الأرض، فحاولت أن تستندَ بظهْرها إلى قوائم عشّة الفرن، لكنّها خارتْ هي الأخرى مع ضَخامة أمّي.. فوقعتْ أمّي بين قشّ العشّة وأخشابها، فقد انتقلتِ النار سريعًا من الشّال إلى جلبابها.

اندفعتْ خالة اعتماد ورفعتْ عن صدْرِ أمّي قطعةَ الخشب بكفّ عارٍ فأبعدتها وهي تصرخُ بعد أن عضّ وهجُ الخشب راحتَها، ولم تسطعْ خالةً اعتماد إعادةَ المحاولة بعد إصابتها.

جرّأني فعلُها فألقيتُ بنفسي وسطَ المعركة مجدّدًا، وأنا لا أدري ماذا أفعل؛ فظللتُ أضرب يمينًا وشمالًا بشكلٍ عشوائي، ولسْعاتُ النّار تبعدني، حتى وصل الجدّ عبد الباسط ورجال العزبة ونساؤها اللاتي كنّ عندنا منذ قليلٍ يشاهدنَ المسلسل، فهجمَ الرّجالُ على النار فخنقوها، ثمّ نجحنا في إخراج أمّي مغشيًّا عليها مِن بين ركام الحطب والخشب، وقدّم لها عمّ مستكاوي الحلّاق إسعافاتٍ أوّلية، ثمّ ضمَّها ببطانية وهو يردّد بصوتٍ تخنقه عبرة:

– سليمة إن شاء الله.

ثمّ نقلناها بسيارة عمّ عسران إلى المستشفى.

***

في أيام ما بعد الحادث، حاولَ الطبيب أن يرقّع ما خرقتْه النّار من جسدها، وأنْ يجبر ما كسرت الأخشاب من عظامها، لكنّها كانت كمَن أخذَ قرارًا معاكسًا تُخفيه في نفسها، وما يجعلني أقول قرارًا، أنها كانت دائمًا مبتسمةً مُنتشية مرحّبة، بما هي فيه، رغم أنّنا نعلم حجم آلامها.

أنفقَ أبي كلّ مدّخراته، واسْتدانَ من أجل علاجِها، ولو كان بيدِه أن يقتسمَ معها الآلام، أو يأخذها كلّها لفعل.

تردّد دائمًا: الحمدُ لله.

علامَ الحمدُ والسّكينُ مغروسٌ في روحها، وهو الذي فعل بها ما فعل؟!

كانت تخرج أنَّات مكتومة تعلن عن موْقعها على ضِفاف الموت، وأتساءل

كيف يتركُنا الإلهُ الرحيم هكذا، ولِمَ تركَها سكّين الخضر الظالم على هذِه الحال دونَ أن يُجْهز عليها؛ فصيَّرها معلقةً من عنقها في ذاك الحبل اللّعين بين الحياة والموت. كيف تدعو اللهَ وتحمده وهو يُبقيها في هذه الحفْرة الكئيبة، أو على الأقلّ يراها ويسمعها ولا يسعفها ويرحمها أو يرسلَ لها الخضر مغيثًا كما أرسله لأصحاب السّفينة والغلامين!

عاشتْ شهورًا كانت تعرفُ أنّها ستموت، رغم أنها كانت تستطيعُ أنْ تنجو، لكنّها أصرّت على قطع تذْكرة الرّحيل، حاولتْ أن تهدّئ قلبي بأن تؤكّد لي أنّ الموت أحيانًا يكون أجملَ مِن الحياة، وأنّها ذاهبة إلى جنانٍ وأراضٍ فسيحة وحكايا كألفِ ليلةٍ وليلة، وقصور أجْمل من قصر فؤاد.

لكنْ أيّ جنةٍ وقدْ عذبها الخضر بالنار!

رحلت.. وتركت ألمًا أشدّ من تهْشيم العظام كما قال الجدّ عن فلسفة الآلام.

***

(١٥)

كأنّ وحشًا نهشَ جزءًا منْ جسدي، وترك مكان «النهشة» فارغًا مثقوبًا ممرًّا للهواء، وعليه فالوجعُ مستمرّ حيّ كأنه يتغذّى بغذائي ويتنفّس بأنفاسي، فلا يعرف السّكون.

حاولَ أبي – بالتّواطؤ مع الأيام – أن يخفّف عني آلامَ فراقها، أو على الأقلّ يملأ بعض الفراغ الذي اتّسع حوْلي من بعدها، لكنّ المهمّة كانت مستحيلة، فأبي كانَ في المصاب مثلي، بل أظهرتِ الأيام أنه كان أشدّ حبًّا وأكثر فقدًا لها منّي.

رأى أبي في عيني أسئلتي المعتادة المشاغبة الغاضبة الغريبةَ من شقيٍّ في سنّي بلغ الحُلُم لتوّه، لكنني لُكتها في جوفي وحبستُها خلف قضبان حزني الذي جعَلني أكثر مذلّة وضعفًا؛ فتجنّب أبي محاولة الإجابة التطوعية في بدايةِ رحلتي مع اليُتم، فقد يخطئ في تحْليلاته القدرية الخَضرية فيزيدُ الأمرُ في قلبي اشتعالًا، وعليه اكْتفى بأنْ يتسلّل إلى جواري في لحظاتِ صمتي ويقرأ آياتِ الخضر وموسى والغلام بصوتٍ خاضع خاشع لا يلبث أنْ تقطعه عبرة؛ فيُمسك عن المتابعة خشيةَ أن تفلت الدّمعات، ولم أكنْ أدري حينها هل هذه الدموع تسبيحاتٌ خاشعة تؤكّد إيمانه بالتّرتيب الذي يفهمه هو ولا أفهمه أنا، أمْ إنه صارَ حيران مثلي لم يجدْ إجابةً تشفي قلبه على ما فعله الخضر بأمّي؟

ولعلّ الدّافع الأوّل في الْتزامي الصّمت المسْتَسلم، وغلقي الباب أمام الأسئلة المطلّة من صدري الصغير، أنّني رأيت حجمَ الاحْترام غير المفْهوم الذي كانت تُبديه أمّي لذلك الكائن الخفيّ المسمّى (الموت).

فقط كانت شردات في الدقائق التي أخلو بها مع نفسي؛ فأكلّم الله الكريم الذي عوّضني بعد عظمي الذي تهشّم، وسقطتي أمام كلبِ فؤاد بصندوقٍ سحري مضيء يمنَحُني الحكايات والأحلام والابتسام، ثمّ دراجة منَحَتني أقصى درجاتِ الإنعام، فهل يكرّر ذلك ويعوّضني أمّي؟

لكنْ بماذا أو بمن؟!

وهل تُعوّض الأم؟!!

***

ورغمَ مَرار الحلْق وضيقِ الحياة، ورغمَ ذلك الصّداع المزمن الذي يجتاح عقلَ اليتيم أو المنقطع أو اللطيم، بنظراتِ الإشفاق الغبيّة من الجيران الطيّبين والمتطايبين في أوّل مَحاطه مع الحياة.. مع مضي الوقت قويتُ واستعليتُ على جُرحي بمساعدٍ خفيّ كنت أشعرُ به دومًا، لكنّني لا أستطيع أنْ ألمسه أو أفسّره أو أراه، اللّهم إلّا هذا الطّيف العجوز الصّامت صاحبِ العمّة الخضراء، والذي لا يزالُ يأتيني بين الفينة والأخرى؛ فيلقي التّحية والابتسام، ويمضي في سلام، وأحيانًا يلوحُ بشيء من الأشياء، بقطعةِ قماش أو بسنّارة أو قرن عنْزة أو حذاء.

اليُتم بحالتِه العَجيبة يجمع أضدادًا لا تجتمع في الأحوال العادية؛ فبحسب فهْم أبي فإنّ القدر كما يأخذ أشياءَ يمنح أشياءَ مثلها من جنْسها، شيء مثلًا يشبه ندْبَة مبروكة التي رآها عمّ غالي غمازة أو كسري الذي تحول بابًا للأفراح.

والإنصافُ يحملني أنْ أعترف أنّ الخضر كما خلعَ الرّوح التي كانت تدفئني من برد الوجود ثمّ ألقاني لقيطًا في العَراء على باب صحراء، فهو أيضًا منحَني بعض صِفات من تلك الرّوح، صفات من أمّي.. بالطبع لا أعتبرُ هذا تعويضًا، ولا أستبدله بالأصْل، ولم أرْضَه حينها، لكنْ كنت أشعر بوجودها.

ظننتُ في البداية أنّ الحادث سيقْتلني، بل قتلني بالفعل؛ فمَن ذا يعيش بعد موت أمّه! مَن ذا يعيش وفي ظهْره «نهشة» تتّسع مع الزمان! مَن ذا يعيش وقد رُفع عنه غطاؤه وحُطّمت الجدران وجرّده الزمان من كلّ ما يملك، ثمّ دفعَه إلى مواجهةِ سهام الرّماة بصدرٍ عارٍ وقلب كسير، وانفرد به الوجعُ في مغارةٍ مظلمة وأخذ يغرسُ أنيابه في أنحاء جسدِه من رأسه لأخمصِ قدميْه، فيحفرُ فيه حفرات، ثمّ يعيد الكَرّة مرّات!

لكنّني عشت.. عشتُ كسائر الأيتام.

نعم.. انطويتُ في أوّل الجولة في زاويةٍ من دنيا الناس مقرّرًا الابتعادَ عن اللهو، أو أيّ مظهر ينال من وقارِ حزني على أمّي، لكنْ بعدما رأيت أنّ كلّ حركةٍ أفعلُها، وكلّ كلمةٍ أنطقها، وكلّ تغْيير لملابسي، وكلّ دخولٍ

للاستحمام، وكلّ نوبة نوم تذكّرني بها وتجدّد الآلام وتجدّد الإشفاق القاتل ممن حولي، كان الحلّ في المواجهة، فيكسرُ الحاجز بيني وبين الناس، في تكرار الموقف حتى يملّ المشْفقون من الإشفاق، وأملُّ أنا من مظْلوميتي.

وهذه حالةٌ نفسيّة دُفعْتُ إليها دفعًا دون إرادةٍ منّي؛ فعقلي الصّغير لم يكنْ يدرك هذا المنطق وهذه الفلسفة، لكنّها الفِطرة والدّعم الخفي من قوّة خفيّة، وأعتقد أنّ كلّ الأيتام والمنقطعين يفكّرون بالطريقة نفسِها، بل كلّ ذوي الإعاقات يفعلون ذلك حتى يدْمنوا المواجهة والتحدّي، فيتحوّل الخوف إلى جرأة تمكّنهم من متابعةِ السير، وردّ الإساءات المتعمّدة وغير المتعمّدة، الظاهرة والمخفية خلف العيون.

***

(١٦)

المصائبُ تُنسي بعضَها بعضًا.. أو تهوِّنها..

فمعَ انْقطاع أبي عن العمل، خلتْ جيوبُه من المال، وخلتْ صومعةُ الحبوب- التي نسمّيها (المطر)- من الحَبّ، وبدأ مؤشّر مدّخراتنا يتلوّن بالأحمر القاني معلنًا قربَ إفلاسنا الاقتصادي، ولم تكن عمّتي- التي على وشكِ ولادة جديدة، والتي طلقها الأعْمى منذ شهور، فصارتْ مَعيلة أبي- لتصمتَ على تلك الحال الدّرامية التي نعيشها؛ فانتحتْ بأبي جانبًا لتشرحَ له وضعَنا المادي كاملًا، فربما أنْ يكون غافلًا أو متغافلًا، لكنّه بالطّبع لم يكنْ كذلك، بل كان شديدَ الرغبة في الذّهاب بعيدًا حتى ينسَى آلامه وآلامي، وكان أحوج ما يكونُ للانشغال بالعملِ، فضلًا عن جمْع المال، لكنّه كان متردّدًا في تركي وحْدي مع أيّامي الأولى في مدرسة الأيتام.

وبما أنّني رجلٌ كما أكّدت الحبيبة قبْلَ رحيلها، وبما أنّني توسّطت الرابعة عشرة، فقد تدخّلت في الحوار أؤيّد عمّتي، وأظهر لأبي أنّني كبرت وصرتُ صلبًا أمام الأيام، وأستطيع أن أصرعَها كما أصرعُ الولد عيد بن شعبان، بل إنّني تظاهرت أمامَه بالتسليم والإيمان، بل والحبّ الجارف للسيد الخضر والرضا بما فعل وما سيفعل، وكلّ ما يحويه جرابه من أسرارٍ وأخبار.

جهَّز أبي متاعَ الرّحيل، وقبّلني طويلًا، وضمّني طويلًا كأنّه لن يعود، وأوْصاني بمبروكة وعمّتي ودراستي، مؤكّدًا على رجولتي التي كانت تشريفًا

يجعلني فخورًا أيّام أمّي، أمّا الآن فقد صارت عبئًا ثقيلًا وورطة قد لا أكونُ على قدرها.

***

حضرَ المخاض عمّتي في التّوقيت نفسِه الذي حضرنا فيه مبلغٌ مالي زهيد من أبي الذي غاب منذ أسابيع، فكأنّ عمّتي كانت في انتظار النّقود لتضع المولود.

أوّل شيء كانت ترقبه عمّتي ومبروكة والجارات - وأنا بالطبع - هل الوليدُ الجديد بصيرٌ، أم مثل أبيه والعياذُ بالله؟ ولم يكنْ ليظهر لنا بصرُه من عماه لوْلا أنّ الدّليل جاء معه؛ فلم يكنِ اكتشاف الأمر صعبًا؛ فعيناه البيْضاوان المطفأتان كانتا دليلًا كافيًا وافيًا لإلحاقه بقائمة العميان. تسلّلتِ القابلة خجلةً من بين الجالسات، ولم تأخذْ حلاوتها تضامنًا مع مُصاب عمّتي.

صمتتْ عمّتي، وبلعت لعابَ المصيبة، وتلقّت الصفعة مضطرّة، ولا أظنّها كانت راضية، والفرق كبير بينها وبين أمّي.

قال الجدّ عبد الباسط:

- لعلّه رحمة!

أضافَ الجدّ الجملةَ الأخيرة وهو يحتضن الوليد، ثمّ قال:

- في داهية نورُ العين، يكفيه نور الوجه.

أذّن الجدّ في أذنه، وبشّر بسعادته، ووضع في كافولته عشرةَ جنيهات دفعةً واحدة.

أمّا أنا، فسببْتُ الخضرَ بصوتٍ هامسٍ، وانصرفت!

***

عادَ أبي لهفًا لرؤيتي ورؤية الوليد، احتضنني بقوّة، أحسسْتُ أنّ يمناه القوية لم تعدْ كما كانت.. أصابتها رعشةٌ تشبه رعشةَ أولئك الذين بلغوا أرذل العمر.

لم يطلِ المكوثَ معي، فقفزَ من أمامي إلى الكفيف الصّغير، ولم نكنْ قد أسميناه بعد رغم مرور شهريْن على ميلاده، وذلك بقرارٍ من عمّتي التي أجّلت تسجيله لعلّه يموت.. أسماه أبي وهو يقبّله في جبينه المتورّد:

- إنّه (بركة).

وفسّر اختياره للاسم بأنّه تيمّن به، أو بالأدقّ تيمّنًا بعَماه!

ما أعجبَك يا أبي! وأيّ بركةٍ في العمى! إنّ عمّتي كانت متزوّجة من نجيب الضرير ولم يكنْ له بركات، بل كانَ أسوأ خلقًا من شعبان ومن ابن عمّك فؤاد آكل الحرام، وسمَّوا مبروكة سابقًا تيمّنًا بها، وآلَ الحال بها إلى ما آل!

جلسَ أبي طويلًا مع (بركة) يقرأ بجانبه القرآن، ويغني له الألحان، ويحاولُ أن يتشاغل به عنّا، بل ويشغلنا عنْه وعن يدِه المرتعشة بهدهدة الصّغير.

شعرتُ بحال أبي (اليتيم) ورقّ قلبي له، وخشيتُ عليه من عوارض ما بعد أمّي، انحنيتُ على يدِه المرتعشة أقبّلها، وعاودتُ احتضانَه، أشجّعه وأقوّيه كأنّني أنا أبوه:

- نحنُ بخير يا أبي، إنّنا راضون.

سمعتُ شعبان يحدّث عمّتي سرًّا:

- عبد الحميد لم يعدْ صالحًا لصنعتنا.

رعشةُ يدِ أبي كانتْ بحسب ما حكى هي ميراثٌ قديم ظهرتْ معه في صغره عندما أصابته حمّى كادت تقتله، ثمّ ذهبتِ الحمّى، وبقيت الرّعشة سنوات، ثمّ رحلتْ إلى حال سبيلِها، وها هي تعودُ من جديد مع حادثِ أمّي، وكأنّ الخضر لم يكتفِ بإصابتنا بالحاضر ففتّش في قاع صندوقه الواسع الفسيح، فأخرج الماضي، ونزعَ منه أشدَّ المشاهد كآبة، ثمّ قذفَه في وجْهنا.

لكنْ لا يهمّ.. لا يهمّ أيّ شيء.. في داهية العمل، في داهية المال، في داهية بصر بركة.. المهمّ أن يبقى لي أبي.

صحيحٌ أنّني كنتُ أنتظرُه ليمْنحني ما أفتقدُه، وصحيح أنّ الأمرَ انقلب وانعكس؛ فقد بدا أنّه هو الأحوج لحضني منّي لحضنِه، لكنّني قبلتُ ذلك بكلّ رضا ويسر، وغيّرت موْقعي وقفزتُ إلى موقعه؛ فظللتُ معه في القاعةِ أغلبَ وقتي، والذي كان قبلَ ذلك مخصّصًا للأولاد والغيط والتلفاز، بل حفظتُ له آيات الخضر خصّيصًا؛ فكانَ يقرأها عليّ، وكنت أقرأها عليه فيبتسمُ، ثمّ يدمع كعادته.

***

(١٧)

ذاتَ مساءٍ صيفيّ، جاءنا الجدّ عبد الباسط، الذي يشعر بحال ابن أخيه جيدًا، ساحبًا حفيدَه الطيب عمر، يدعو أبي إلى مولد (سيدي العرسي) في قرية الشارية بجوارنا.

بوركتَ يا جدّ، فقد كنّا في حاجة إلى هذا العرض المثالي.. لكنّ أبي رفض الفكرةَ بداية؛ فهو لا يزال يرتدي ثوبَ الحداد على قلبِه، بالإضافة إلى أنّه لا يحبّ الموالد والهرج والزّحام، فصحْتُ مشاغبًا مشجعًا:

-كلّا يا أبي سنذهب.

وأمامَ إلْحاحي لم يكنْ يتردّد الحنون فخرجنا ومعَنا مبروكة، وعند ناصيةِ الطريق، همستْ مبروكة في أذني تذكّرني بكنْزنا المخبوء في الجدار، والذي قد نحْتاجه في سهْرتنا هذه، والذي يبلغ الآن جنيهًا ونصفًا، وإنْ كان الصّندوق مخصّصًا في المقامِ الأوّل للأعياد، لكنْ لا بأس أنْ نضيفَ للائحة «مولد الشارية».. وشيء لله يا سيدنا العرسي.

طلبتُ من أبي منْحنا لحظاتٍ قبل الإقلاع، وأخذنا عمر وقفزْنا نحو جدارنا الجنوبي الرّابض في الظلام.. بحثْنا في الجدار، فتّشنا بدقّة، أعدْنا التّفتيش، لم نعثرْ على المبْلغ، كادَ قلبي يسقطُ في قدمي؛ فالمبلغ كبيرٌ جمعْناه بعد جوعِ أيّام، وتهشيم عظام، والكلام عنّي وعن مبروكة.

أقسمتْ مبروكة أنّها وضعتِ المبلغ هنا، وكرّرت القسمَ أمامنا كي تبعدَ عنها الريبة؛ فهي أمينةُ صندوق الجدار.. شجّعنا عمر المؤمن أنْ نسمّي ونعيد البحثَ ثانية في كلّ شقّ بالترتيب، ونحاول أنْ ندخل أصابعنا في الأعماق، فلعلّنا نسينا أحدَ الشّقوق أو لم نتحرّ التفتيش.

الله أكبر.. بالفعل وجدْنا النّقود، والغريب أنّنا وجدنا المبلغَ في الشقّ نفسِه الذي أكّدت مبروكة في البداية أنّها وضعته فيه، والذي فتّشناه مرّتين قبل ذلك، لكنّ هذا قد يكون منطقيًّا؛ فلعلّنا من تلهّفنا وتسرّعنا لم نحسنِ التّدقيق في الشقّ، لكنّ الذي ليس منطقيًّا، بل والمريبُ الغريب المثير أنّنا وجدنا الجنيه ونصف الجنيه قد صارا بقدرةِ قادرٍ ثلاثة جنيهات!

دقّقنا جيدًا لنتأكّد، وخلع عمر حذاءه «أميجو» الذي يضيء ذاتيًّا كأنّه كشّاف، والذي لا نراه أنا ومبروكة إلّا في إعلانات ما قبل المسلسلات.. وبالفعل تأكّدنا أنّ المبلغ ثلاثة جنيهات.. آه والله قد صار الجنيه ونصف الجنيه ثلاثة جنيهات.

صدَّقت مبروكة المفاجأة، ومَنْطقت نموّ المبلغ إلى ضِعفه بأنّ الملائكة لا بدّ فعلت ذلك من أجلِ اليتيم الذي بيننا (الذي هو أنا) مضيفةً أنّه علينا ألّا نخبر أحدًا حتى يستمرّ الحال، ويزيد الكنز.

قلتُ معترضًا:

- ماذا أيّتها الغبية! ألن نأخذَ المال؟

- بل سنتركُه في الشّق.

قال عمرُ دهشًا:

- تقصدين أنه سيزيد!؟

- عليك نور.

رفعتُ صوْتي مُعترضًا على هذا الاقتراح الغبي، ثمّ تذكّرت أنّنا في الخلاء والصوتُ رنّان، وقد يسمعنا الولد عيد من حَظيرتهم الملاصقةِ لحظيرتنا، فخفّضتُ صوتي:

- أيها السّذج.. أيّ ملائكة ستضاعفُ النقود! إنْ تركناها الآن فقد تعودُ ربعَ جنيه كما كانت في البدْء، أو ربّما تختفي.

قال عمر متحمّسًا:

- نجرّب يا هاشم.

قالتْ مبروكة آمرة:

- نجرّب يا هاشم.

قلتُ مستسلمًا:

- نجرّب يا هاشم.

اشترطتُ أن أضعَ أنا النّقود بنفسي حتى لا ننْسَى مكان الشقّ، وحتى أتثبّت إنْ كانت الملائكة بالفعل هي التي تفعل، أمْ عفريتٌ من الجنّ؛ فوضعناها وانصرفنا.

وعندَ عوْدتنا لأبي والجدّ، وجدنا "شعبان" وأولاده قد انضمّوا إليهما ليذهبوا معَنا إلى المولد. تسمّرت مكاني لحظاتٍ أنظرُ اتّجاهها، ورغم أنّي لم أتبيّن إلّا ظلّها في ظلام عزبَتِنا الذي غزتْه الكهرباء على اسْتحياء، إلّا أنّ ظهور شربات في نطاقي صارَ غيرَ اعتيادي.

تحرّك أبي والجدّ وشعبان، وخلفَهم عيد وخضرة وشربات، ثمّ ثلاثتنا، متعمّدين- بأوامرَ مبروكة- عدمَ الاخْتلاط بأبناء شعبان مراعاةً لإعلان الخصومة بيننا.

ظلَلْنا نرغي طوالَ الطريق ونخطّط ماذا سنفعلُ بالثّلاثة جنيهات التي ستضاعفُ في العيد القادم لتصير ستّة، ومِن طول اسْترسالنا في الأمْرِ واقتراحات الشّراء وتقسيم البضاعة؛ اقتنعتُ بأنّ الأمر فعلًا تدبيرٌ ملائكي، وأنّه سيتضاعف، وَنَسينا أمرَ الطّريق والظلام الدّامس الذي نسيرُ فيه بين ترعة الأفندية من جهة وأشجار الكافور والصفصاف المتناثرة حولنا من جهة أخرى.

أُخذنا من تصلّب مبروكة فجأة، وهي تنظرُ ناحية شجرة الجمّيز العجوز التي تنام أسفلها أطلالُ عشّة قديمة مهجورة وكبَّاس(١) عطْلان، ومكثتْ تهَمْهم بكلامٍ غير مفهوم كأنّه أذكار.

- ماذا دهاكِ أيّتها الغبية؟

- انتظرا حتى نمرّ وسأخبركما.

---

(١) نوعٌ من السّواقي.

قالتْ مبروكة بصوتٍ هامس إنّ صديقتها صفاء حكتْ لها حكاية هذه الشّجرة وهذا (الكبَّاس) وهذه العشّة المهجورة، والمرأة التي.. بالطبع فهمتُ ما ستقوله، فوضعتُ راحتي أسدّ فمَها:

- لا تحكِ يا حمْقاء، انتظري حتى نعود.

وبعدَ أن تقدّمنا خطواتٍ بُعيد شجرة الجمّيز تأخّرت قليلًا عن عمر ومبروكة اللذيْن بدءا يسيران منذعريْن منكمشيْن مترقّبين خروجَ روح السّيدة التي ذُبحت في المكان، ثمّ صحتُ أفزعهم؛ فصرخا وانطلقا مُسْرعين، وكانت أوّل مرّةٍ أضحكُ من قلبي منذُ رحيل الحبيبة.

وصلنا عزبةَ الشارية حيث ساحةُ المولد، أخذَ شعبان أبناءه وانْفصلوا عنّا، ولأوّل مرّة ألحظُ التفاتة البنت شربات نحْوي، وأتأكّد أنّ عينيها جميلتان.

ولجتُ ببطء كأنّني على وشك الغوصِ في الماء، إنّه أوّل مزاحمة حقيقيّة لي وأبي مع الحياة وأهل الحياة منذُ ما يقرِب من عام؛ فقد كنّا في شبه خلوةٍ إجباريّة أجبرتنا عليها أرواحُنا الموجوعة بعد أنْ غادرت روحُنا دارَنا.

الزّحامُ الآمن له رائحةُ الجنّة التي كانت تحكي عنها أمّي.. رماية بدائية ومراجيح وبمب وأناشيد صاخبة ودخان يملأ السّماءَ وأصوات نشازٍ لكنّها بنشازها مُتناغمة، وأفعال محرّمة خلف أستار الخيام.

توقّف أبي والجدّ أمام بائع الحلوى يكتالون منه، وتوقّف ثلاثتنا أمام «لعبة صيْد البمب»، ولم أكن لأترُكَها أنا أو عمر، صحْتُ:

- سنلعبُ هذه.

– هذه لعبةُ صِبيان.

قالتْها مبروكة واضعةً يدَها على خصْرها، فقلتُ أغريها:

– ربّما نربحُ ونزيد المال.

قالتِ المتحذْلقة دائمًا:

– وربّما نخسر.

تدخّل عمر فيلسوفُ المتع:

– نكون استْمتعنا؛ نحنُ جئنا للاستمتاع.

تقدّمَنا عمرُ نحو الطّاولة وقد بدا خبيرًا باللّعبة، كخبرتِه بأشياء كثيرة ييَسّر تعلّمَها كثرةُ المال، فأعطى لصاحبِ اللّعبة «بريزتين» وأخذَ بندقيّة من على الطّاولة التي تناثرت على أطرافها صورٌ للاعبي كرة وممثّلين ورجال يستعرضون عضلاتِهم، وسلّمها لي لأبدأ أنا الرّمي؛ فضبطتُ وضعي باتّجاه جدار البمب المعلّق أمامنا، وقدْ تناثر عليه البمب بشكل عشوائي.

قالَ عمر يعلّمني كأنّي أمامَ اختبار رماية حقيقيّ:

– تأخذُ نفسًا عميقًا، وتسندُ البندقيّة إلى صدرك، وتجعل هذا السنّ في اتّجاه «البمبة».. ثمّ تطلق الإبرة.

اقتربَ الجدّ وأبي يتابعان البطلَ صاحبَ «النّشان»؛ فحوَّلتُ الأمرَ كعادتي الغبية من استمتاعِ إلى تكليفٍ ثقيلٍ سيحدّد مصيري العسكري. أخذتُ

نفسًا عميقًا، وبدلًا من أن أغمضَ عيني اليسرى أغمضتُ اليُمنى التي في مقابلِ سنِّ النّشان، وضربتُ فاهتزّت البندقية في يدي لقلّة خبرتي، ورغم ذلك أصبتُ البمبة!

قفزتُ فرحًا بنجاحي العظيم، الذي لا أستحقّه، وأبي يتابعني سعيدًا بابتساماتي التي عادت، ثمّ ابتعد قليلًا هو والجدّ يستأنفان جولتهما.

قال عمر:

– لكَ الآن أن تأخذَ إحدى الصّور.

فوجئتْ مبروكة، فاسْتنكَرَت:

– ألنْ نأخذ مالًا؟

أجابَ الحكيم متفلسفًا كعادته:

– أخذنا البهْجة.

فتّشنا في الصّور، وراحتْ يدي مسرعةً إلى فريق الأهلي في زيّه الأحمر الباهي الذي نراه في التلفاز أسود قاتمًا.. لكنْ لفتتني صورةٌ جميلة لممثّلة أراها لأوّل مرّة، لها وجهٌ بهيّ موصول بالبدر، شعرٌ بنيّ مجعّد طويل، وعيونٌ خضراء فسيحة باتّساع جُرْننا وجرنِ شعبان، وذقنٌ مسحوب إلى أسفل بأناقة كأنها نحتت نفسَها بنفسِها، تبارك الخلّاق.

التقطتها:

– سآخذُ هذه.

قال عمر يعرّفني إليها:

- هذه شبيهةُ البنتِ شربات التي أخبرتُكم عنها.

دقّقت في الصّورة ثانية بفضول، ودقّقتْ مبروكة بانزعاج، وكدتُ أقرّ بأنّها بالفعل شبيهتُها؛ بل صورةٌ مطابقة، لكنّ إقراري سيثير صَديقتي صاحبةَ المزاج العَكِر وصاحبة الثّأر مع السيدة المذكورة فسكَتّ؛ فبادرتْ مبروكة متهكّمة متهجّمة على عمر لأوّل مرّة، وكانت محيطة مثله بعالم الممثّلين وأشكالهم بالألوان لذهابها كثيرًا إلى أختِها في إيتاي:

- ما هذا الغباء!! تشبِّه «إيمان الطّوخي» بشربات بنت شعبان!

ثمّ استدارتْ نحْوي متنمّرة:

- ثمّ كيف لـنَطْع مثلك يحملُ صورةَ امرأة!

أقصرتُ الشّرّ، وأعدتُ الصورةَ مكانها، وسلَلْت صورةَ «الأهلي» منسحبًا من معركةٍ لسانية سأخسر فيها لا محالة، وقد تجرّس بي بنتُ عمّتي الغبية أمام أبي والجدّ اللذيْن تركانا ليلعبا «قطار الأثقال» ليختبر أبي قوّة ساعدِه الذي لم يعدْ كما كان.

استعدّ عمر للرّماية على طريقةِ الخبراء الكبار.. تأهّب وتنفّس وعدّل قبضتَه على البندقية وأطلق.. فطاشت.. ضحكْنا أنا ومبروكة وصاحبُ طاولة الرّماية؛ فرغم أنّه هو الذي كان يعلّمني منذ قليل لم يفلحْ في التّسديد. ورفع عمر كتفيْه مستسلمًا باسمًا دهشًا قائلًا:

- أقدار.

وصَلْنا لمنصّةٍ يقف عليها رجلٌ ذو هيبةٍ ووقار، يرتدي معطفًا أسودَ لا يحمل من الأدوات سوى عصا كبيرة، احتشد أسفلَ منصّته عددٌ كبير من الصّغار والكبار. توقّفنا أمامه عندما توقّف أبي والجدّ.. لوّح الرجلُ بعصاه في الهواء فتحوّلت سيفًا، ثمّ أخفاها خلفَ ظهره، وأظهرها فتحوّلت وردة بيضاء ثمّ أخفاها وأعادها فأخرجَ من جوْفِها ورقة، وصاح:

- مَن يرَها ورقة «كوتشينة» يرفع يدَه.

ضحكتُ.. ما هذا الخداعُ المفضوح؟ هذه ورقةُ نقودٍ بخمسة جنيهات، لكنّني فوجئت بأبي والجدّ وعمر ومبروكة ونصف الواقفين يرفعون أيديهم مؤكّدين أنّهم يرونها ورقة كوتشينة.

دنوتُ من أبي دهشًا:

- ماذا يا أبي! إنّها ورقة نقود بخمسة!

ابتسمَ أبي وجذَبني مكانه:

- تعالَ هنا.

تحرّكت مكانَ أبي، عاودتُ النّظر، رأيتُها بالفعل ورقة كوتشينة، فركتُ عيني أتأكّد، إنّها ورقة كوتشينة، قفزتُ ثانية إلى مكاني دهشًا مثارًا.. وتابعَ الرجلُ الغريب:

- مَن يرها ورقةَ نقودٍ بخمسة يرفع يدَه.

رفعَ نصفُ الجمهور الآخر أيديهم.. صمتَ النّاس دهِشين، وفي عين الجميعِ السّؤال: هل استطاعَ الرّجلُ أن يريَنا الشيء الواحد بشكْلَين مخْتلفين؟ أم أنّ عيون الناس مختلفة بالفعل؟

صفّق الجمهور بحماس لصاحب الهيبة مُعْجبين بالمعجزة التي فعلَها لتوّه، وبدا أنه يفعلُها باستمرار لكنّه لا يفسّرها، تحرّكتُ خلف أبي أسأله عن سرّ الرجل الغريب.

- لا تتعجّل؛ سيخبرُك به غيري.

لم أكدْ أخرجُ من دهشتي التي أوْقعني فيها صاحبُ العصا، حتى رأينا حلقةَ ذكْر كبيرة لرجالٍ بثياب بيض وعمائمَ خضراء يُشبهون ذلك الطيفَ الذي يطبّ عليَّ في المنام.. يتطوّحون أمام منصّة جليلة يقف عليْها منشدٌ يرتدي خضارًا يلهجُ بأشياء تشبه القرآن لكنّها ليست بقرآن.

أوقفنا أبي أمامَ الحلقة، وقد قرّر مشاركتهم.. تبسّم الجدّ الحنون، وهو يُخفي راحةً لهذه الخطوة من ابن أخيه:

- هؤلاء خفاف العقول يا عبد الحميد.

قال أبي لعمّه:

- وأنا في حاجةٍ لهذه الخفّة يا سيدي عبد الباسط.

تركَ أبي لفافةَ الحلوى مع الجدّ، ودخل خجلًا متلفّتًا متردّدًا كأنّه دخل ليسرق، يرمق الناس على استحياءٍ يتأكّد أليس بينهم أحدٌ يعرفه، ثمّ اختار

مكانًا مناسبًا في إحدى الزوايا، ثمّ بدأ يهز رأسَه معهم يجرّب تلك المغامرة، وأنا أرقبُه من بعيدٍ أتمنّى أن يسعده ذلك.. بدأ يحرّك رأسه ويهزّ جذعه كما يهزّون ويترنّم بنفس همهماتهم التي ولدتْ بعدَ قليل حروفًا كوّنت كلمات واضحة (اللـاااه..اللـاااه..اللـااااه). مالَ جذعه النحيل الطويل بطيئًا في البداية، ثمّ تفاعل أكثرَ فتطوّح معهم.. نظر إليَّ الجدّ وقد رأى فيَّ رغبة:

– ادخلْ يا هاشم.

كتمتْ مبروكة ضحكتَها خلفَ راحتها وقد تخيّلتني أفعلُ مثلهم، وتساور عمر لجدّه كي يدخل هو الآخر، فدخل خلفي وأمسكَ بيدي متردّدًا رغم أنّه الأكبر، لكنْ بعد خطواتٍ تراجع عمر خارج الدائرة عائدًا إلى جدّه ثانية.

دلفتُ وسط الحلقة بجوار أبي الذي رآني لكنّه تغافل؛ بل حاول أنْ يخفي وجهَه عنّي فقدْ كان يبكي.. تحرّكت معه أقلّده، ثمّ حرّكت لساني بذكْرهم العالي، أصابتني نشْوى كأنّها كهرباء فحرّكت جسدي بقوّة.. إنّه شعورٌ رائع أجملُ من كلّ المغريات.

وكأنّ الأجساد امتزجتْ واتّصلت، وانْعزلت عن العالم القريب البعيد.. دخلنا في نوبة حركة نشيطة كعرائسَ ظِلٍّ تحرّكهم يدٌ خفيّة، العقل يذهبُ نصفُه كأنّك على حافّة النّوم لكنْ ليس بنوم.. ثمّ أخيرًا تدخّل الجدّ وسحبنا إلى خارج الدائرة.

***

(١٨)

استغْنى أبي عنْ عمّ سنوسي الذي كان يكلّفه بالعمل في حقْلنا بمقابلٍ زهيد، وتفرّغ هو للحقل وللبقرة والجاموسة والأتان والعَنْزات، وبدأ يعود تدريجيًّا إلى مهنته القديمة في بناء الطّوب اللبن؛ فهو يعرف كلّ تفاصيلها، بل ويمارس أغلبَها يوميًّا في بناء الأبراج بدءًا من الخلطة الطينية ومرورًا بضرب القوالب في القالب الخشبي وصولًا إلى البناء الذي لا يحتاج أعصابًا مثل بناء الأبراج، لكنْ كان قليلون هُمُ الذين يبنون بالطّوب اللّبن في تلك الأيام، بلْ بدأ كثيرون يهدّون البنايات القديمة ويبْنون بالطوب الأبيض والأحمر والأسمنت، خاصّة بعد دخول الكهرباء.

ونذرَ أبي (بركة) لله وللقرآن؛ فوصّى به الجدّ عبد الباسط الذي كان سعيدًا به مثلَ حفيده عمر، وصار يأخذُه معه المعازي التي لا تنتهي، فيستمعُ فيها للمُقرئين، ويطربُ لهم، ويحاول تقليدَهم متهْتهًا.

صارَ جلّ اعتمادِنا في المعيشة على محْصول الأرض وعائد البناء، لكنّه لم يكْفِنا ولم يوفّر لنا عيشة كنّا نحياها منذ عام أو عامين، فباع أبي الجاموسة، ثمّ اضطرّ- بعد استئذاني- أنْ يبيع التلفاز فوافقت، واضطررتُ بعد استئذانه أنْ أعملَ بالأجرة في أرض غيرنا؛ فوافق.

***

- لوْ أكراك أحدٌ للعمل؛ أوجد لي مكانًا.

رغمَ دهشته من طلبي الخجول، لكنّ أنور بن سنوسي كاد يطيرُ فرحًا لأني أريدُ أن أعمل معه بالأجرة في الغيطان، وأنور هو أحدُ مشاهير فتيان الإكْراء والعمل بالأجرة في العزبة مثل أبيه. ولم أدر حينها هل كانت سعادته شماتة بي، أم ابتهاجًا بصحبتي التي ستكون خالصةً له وحده بعد أن كنت زاهدًا فيه غير آبهٍ به.

كنت في هذه الأيام- وما قبلها- غارقًا في حالةٍ نفسية جديدة عليَّ خائفة شاكة مرتبكة، فقد كلح طبعي- أو كاد-، وساء ظنّي، وصرتُ أسوأ من عيد بن شعبان، وأظنّ سياط الفقر تفعل في النفس ما لا تفعله النّيران في الجسد؛ فتنكسر النفس ويتشوّه الطبع، وتتعطّل الملكات أمام سدود الجوع المهين.

لأوّل مرّةٍ أحمل فأسي وأرتحلُ إلى غير أرضي، ودون مبروكة، لأوّل مرّة أسير هذه الخطوات الثقيلة المتوجسة وكأنّ كلّ صغار العزبة وكبارِهم يرقبونني، لأوّل مرّةٍ سآخذ إرشادات العمل من غير أبي أو عمّ سنوسي المكلّف برعاية أرضنا، لأوّل مرّةٍ ستتقاطر حبّات عرقي في طينٍ غير طيني..

رأى أنور تثاقلي في المسير، وغمّي الذي ركبني ودلْدَل رجليه، فقال يخفّف عني ببسمة طيبة:

- العمل ليس عيبًا يا هاشم.. نحن نــ..

نحن! استفزّتني نحن هذه، فالوغدُ سريعًا ما ضمّني إلى مجموعته، والذي كان يطمحُ أن يسير معي مجرّد سيرٍ منذ أيام وكدتُ أقيء في وجهِه خاطرتي البغيضة، لكنني هززتُ عنقي كأنني أفيق روحي.. ماذا دهاني! كيف أفكّر

بهذه الطريقة! كنتُ منذ أيام أدّعي الطيبة والانسجام ومحبّة خلق الله وروحًا خفيفة كروح عمر ومبروكة، الآن بعدما وضعت في الاختبار هل تسوء أخلاقي وتمرض نفسي وأصير مثل عيد بن شعبان.. أنصتُ إليه وهو يكمل جُملته:

- نحن نعمل لجمْع قوتنا وستر دورنا، وهذا شرف.

أعرفُ أنّ "أنور" حفظ هاتين الجُملتين المكرورتيْن من أبيه أو أمّه كي يخفّفا عنه وطأة الشّقاء عند خلق الله، لكنّني كنتُ في حاجة إلى الجُملتين؛ فرغم سطحيّتهما البادية إلّا أنهما يحملان شيئًا من الصدق يربتُ على النفس ويهوّن عليها السخرة لغيرها- ولو بالخداع-، فأنا قبلَ ذلك خادعت نفسي بأنّ ندبة مبروكة غمّازة، حتى أوشكتُ على تصديق كذبي، وأوشكت المسكينة أن تصدقني.

ثمّ طمأنني أنور أنّ الأستاذ صابر- صاحب الأرض التي نتّجه إليها- لن يعكر عليَّ بأوامر وصياح ونباح كسائر الملّاك المزعجين.

التفتّ له منزعجًا متوقفًا مكاني:

- الأستاذ صابر الناظر؟

- نعم..

- لِمَ لم تخبرني أيها الكبش؟

- وما الفرق؟

وضعتُ قادومي وجلستُ على حافّة السّكة أفكّر في الرجوع، فهذا الوغد ورّطني وقال لي أرض في عزبة «عوض الله» فظننتُ أنّها أرض غريبة لأحد الغرباء، لكن اتّضح لي الآن أنّها أرض ناظر المدرسة ما يعني أن فضيحتي ستصير بجلاجل، ولو عدت إلى أبي الآن ستكون الفضيحة أكبر.

قلتُ بصوت خفيض:

- الله يوْحِلك يا أنور..

- هيّا يا رجل.. لا تحمّل الأمور أكثر مما تحتمل.. نحن ذاهبون للعمل لا للشحاذة.

تحرّكت متثاقلًا بجواره، انتظرنا بقيّة الأنفار الذين سينضمّون إلينا قبل التوجّه لحقل الناظر والذين يشكلون بقيّة فريق أنور.. وقفت أنفثُ وأفرُك لا أريد التحدّث مع أنور حتى وصل السّادة.. فوجئت أن الأنفار الأربعة من عزبة الشّفيعي، وكانوا هُم الفريقَ نفسَه الذي لعبنا معه مباراة العيد منذ أعوام، وخضت معهم عراكًا، لكنّهم- والحمد لله- تجاوزوا الأمر، وربما نسوه!

صافحوني سعداءَ بانضمامي دهِشين من هذا التحوّل؛ فكلّهم يعرفونني من شهرتي في المدرسة، خاصّة بعدما نلت جائزة المركز الثاني في مسابقة الإنجليزي.

توجّهنا إلى أرض الأستاذ صابر، وبدأنا في عزق القطن دونَ أن ننتظر وصولَ الأستاذ، بل كنت أتمنى ألّا يَصل.. وقبل أن ننهي الخطّ الأوّل كان

وصلَ خلفنا بدرّاجته البخارية، وألقى السّلام والترحيبات من بعيد دون أن يميزني، وربما ميزني لكنه آثرَ ألّا يقترب.

خشخشةُ الفأس في أرضنا أثناء العزْق وجرّ التراب من قلب الخطّ إلى أعلاه أسندُ به عيدان القطن الطرية كانت لمسات جميلة محبّبة إلى نفسي أشعرُ خلالها أني أداعب الأرض، أو أمسح لها ظهرها فتناغيني في دلال، بل تذكّرني بضربات كمان صديقي عمر، لكنْ في أرض الغريب صار صوتها مزعجًا منفرًا كصليل سيوفٍ في معركة مملّة طويلة، أو كأنّ بدينًا سمينًا يقضم خسًّا بجوار أذني في جوف الليل.

قال الأستاذ صابر:

- استرح قليلًا يا هاشم.

كنتُ منهمكًا في العمل أريد أن أصلَ لدرجةٍ من الإرهاق أنعزل بها عن عالمي الجديد، وأهرب خلف سياجِ التّعب فلا أرى ما آلَ إليه حالي وحال أبي.. توقّفت عن العزق خجلًا، فقد اضطررتُ أن أضع عيني في عيني الناظر، وهو يعطيني قُلّة الماء التي جلبتها ابنتُه، وكان منذ شهرين يسلمني شهادة تقدير لتفوّقي.

كنت أخشى أن يسألني مع أوّل التفاته: (كيف دارَ بك الزمان هكذا أيها الصغير الفَطِن!) لكن الرجل تصرّف كأنّ الأمر عاديٌّ، ولم يشأ أن يجرحني بنظرة أو بكلمة، بل قال يدعمني وينتشلني من بئري وقد أحسّ بألمي:

- أنت رجلٌ يا هاشم.

ابتسمتُ متردّدًا شاكرًا سعيه، وقد صارت نفسي كنفس مبروكة في أوّل أيام إصابتها، فلا أرى دومًا إلّا وجهًا قبيحًا للأشياء حتى للإطراءات والمجاملات أسدّ عليها المنافذ كأنني مصمّم على طعن نفسي بنفسي موهمًا نفسي أن تلك شجاعة.

رددتُ إليه قُلّة الماء شاكرًا، ثمّ ناولها لزُملاء العرق.. وقبل أن نبدأ جولتنا مجددًا لاستكمال العزق المقرّر له أن ينتهي مع أذان الظهر، ثمّ نذهب للغداء والراحة في دورنا، ثمّ نعود بعد ساعتين لنستكمل العمل حتى السابعة؛ سمعت الأستاذ يوصي ابنته الجالسة بعيدًا:

- تابعيهم يا روضة حتى أعود.

تسمّرت مكاني مصدومًا رامقًا "أنور" الذي لم يخبرني بهذا الأمرِ أيضًا؛ فمعنى كلام الناظر أن أنثى هي التي ستقومُ بدور «الخولي» علينا في العمل، وهذا شائنٌ لا يليق بمثلي، وقبل أن أعلن اعتراضي، همس لي أنور يهدّئني:

- النّاظر يذهب لبعض شئونه في المدرسة وليس عنده أولاد.. فلا بأس أن تراقبنا ابنته الوحيدة.. ولا داعي للحساسية، فهي تكبرنا بسنوات.

- لسنا في حاجةٍ إلى مَن يراقبنا.. إمّا يقف هو أو يتركنا وحدنا أو نغادر.

لم يسمعِ الأستاذ صابر سجالي مع أنور، وكان قد ركب درّاجته وانطلق.. حاول أنور امتصاصَ غضبي كأمّ تدلّل ولدها، ولم أكنْ أدري لماذا يصبر عليَّ هذا الولد.

– لا يعنينا مَن يقف وراءنا يا هاشم.. أنت تعمل وتأخذ ثمنَ عرقك.. فلا تضخّم الأمور.

قالتْ لي نفسي: لا يزال الوغدُ يقول (نحن) قاصدًا أن يسحبني من قفاي إلى عالمه كأنّني مولود فيه، رغم أنّ هذا هو أوّل يومٍ لي، وربما الأخير، ورغم أني أتعفّف أن أقرن معه في مكان واحد.

مع ابتعاد الأستاذ توقّفت عن العمل وحللتُ عقدة جلبابي مقررًا أنْ أنسحب إلى دار أبي معززًا مكرمًا ولتذهب هذه الجنيهات إلى الجحيم، فالقوتُ إن لم يأتِ بكرامة وعزة نفس فلا خيرَ فيه.

قال أنور بشكل عفوي:

– لا تكنْ ساذجًا.

– اخرس.

استفزّت جملتُه نفسي الساقطة، فلم يقلها لي الأستاذ صابر نفسه في المدرسة؛ فكيف يقولها لي هذه الوغد بهذه السّهولة! واستعددتُ لأوصل انْتهاري له بجُمل أخرى أُعرفه مقامَه بها، وأني ابن المعلم عبد الحميد والثالث على المدرسة طيلة الأعوام السابقة، ولا يناسبني هذا العمل قليل الكرامة، ولا يناسبني أن أجاور بليدًا مثله في الدّار، فضلًا عن العمل في الغيطان، أو أن تراقبني فتاة متعجرفة مدلّلة بنت «ذوات» في فِمها ملعقة ذهبٍ قد تشير إليَّ بطرف أنفها أن افْعل هذا ولا تفعلْ ذاك، وربما تصيح تشتمني: «يا كلب» كما قال الخواجة «تاكي» لخليل أفندي في «الوسيّة» منذ أيام؛ فتندلعُ بيننا معركة بالرصاص.

صاحتْ من ناحية عريش البوص المقام في زاوية الحقل:

- الفطور يا هاشم.

توقّفت مكاني لحظاتٍ أنظر لأنور مستفهمًا، وأنا لا أدري أيّ فطور، ولِمَ تخصّني أنا بالنداء! وهل تعرفني أصلًا!

استلمَ أنور القيادة:

- كلّ واحد يضع قادومه على نهاية الفردة.

ثمّ دنا منّي:

- ما بكَ يا هاشم! فكّها يا رجل.

ثمّ هامسًا:

- قبل أن ننهي الإفطار سيكون الناظرُ عاد.

نفختُ متذمّرًا وألقيت قادومي وهممتُ أسبّه، وتحركت مضطرًّا متجهًا مع الأنفار الصغار الجائعين والذين لم يكونوا يحصلون على مثل هذا الإفطار إلّا في أرض الناظر بحسب خبرتي بعد ذلك.

قالتْ لي تخصّني بالاهتمام، وقد جلستْ على مقربةٍ منّا خارج العريش:

- أبي يقول إنّك «أشطر» الأولاد يا هاشم.

بلعتُ لقمتي محرجًا خجلًا؛ فلم أكن أتوقّع أن تفتح معي حوارًا بهذه السّهولة رغم أنها أنفة متعجرفة- بحسب ما صوّر لي خيالي الدرامي.. لم أجدْ

ردًّا مناسبًا لمجاملتها، خاصّة أنّي لست «الأشطر»، بالإضافة إلى أنّ صدى صوت المعركة التي توهّمتها منذ قليل لا يزال يتردّد، بل قراري الشجاع الذي أخذته ولم أنفذه بعدُ يجعلني أقاطع حديثها.

تدخّل أنور المتفاصح نيابةً عني يؤكّد المعلومة، رغم أنه أمّي لم يزرِ المدرسة، فقال وهو يدسّ نصف بصلة في فمِه الفسيح، ولم يضفْ جديدًا:

- والمصحف الشريف هاشم أحسن ولد.

لم تلتفتْ روضة لردّ أنور، واستطردت متعمّدة استدراجي إلى الحديث لتزيل ما تبقّى من خجلي وتكسر حاجزي البادي في تجهّمي وارتباكي وغضّ طرفي، وربما انزعاجي:

- لا تبتئس يا هاشم.. أبي كان مثلك.

رنوتُ إليها أستفهم، خاصّة أنّ الجملة تحمل شفقةً ثقيلة على نفسي، واستهلالًا ثانيًا للحديث من الفتاة التي يبدو أنها أفضلُ قليلًا من الخواجة تاكي.

انتبَه الغِلمان يتابعون في انتظار التّوضيح من الصبيّة؛ فكوْن الناظر كان مثلي إذًا فهو كان مثلهم أيضًا، وأنا أقول في نفسي أسبقُها: (أعرف أنك ستحاولين إظهارَ أبيك مكافحًا صاحب نضالٍ وعرق.. هذا هُراء.. أنت تخزين العين يا بنتَ النّاظر.. أنتم أصحابُ نعمةٍ موفورة.. فدّانان ووظيفة ومركز وعائلة)..

قالت:

– كان نفرًا بالأجرة، وعمل في ورشة نجارة، وتنقّل في المزارع.. لكنّه في النهاية صار الناظر.

كدتُ أقول معترضًا: (أنا لا أعمل في الغيطان، هذا مجرّد يوم، وقد يكون الأخير، ولست بائسًا إلى هذا الحدّ الذي يبدو في نبرةِ صوتك، وفي محاولتك إظهار أبيك بطلًا).. لكن عطلت فاعلية التعليق التافه، وهززتُ رأسي أدّعي الامتنان لكلامها الدّاعم، وظللتُ صامتًا.

فاجأتني بسؤالها:

– هل تعرف عاصمة الصين؟

– بكين.

أجبتُها سريعًا سعيدًا أنّ سؤالها جاء في ملعبي رغم غرابة الانتقال في الكلام، لكنني لم ألتفت إلّا إلى السّؤال، فواصلت كأنها نجحت في خرق أسواري:

– عملة اليابان؟

– الين.

– أصغر قارة؟

أعرفُ اسمها لكنّني إلى الآن لا أستطيع نطقه، فاستبدلت به اسمها الآخر:

– القطبيّة الجنوبية.

- ممتاز.

- معنى فلاح بالإنجليزية؟

ها هي جاءت في ملعبي:

- farmer

- نور.

- Light

- طريق.

- road

وتوالتْ كلماتها، وتوالت أجوبتي، حتى صاح أنور من موقعِه على الصينية:

- والمصحف الشريف هاشم أحسن ولد.

ضحكتْ روضة محيّية إيّاي، وابتسمت مبديًا بعضَ الرّضا عن حالي موحيًا لأنور أنني تراجعت عن قراري.. ثمّ سكتتْ روضة لتعطيني فرصة لإكمال الطعام..

سألتُها بصوت خجل:

- في أيّ صفّ أنت؟

- أولى هندسة.

بلعتُ لعابي متفاجئًا ومعجبًا رانيًا للكبش أنور الذي لم يخبرني هذه المعلومة أيضًا!

عدْنا بعد الظهيرة لنستكمل العمل، وقد صار أكثرَ تسلية، وقد عاد الأستاذ صابر لمراقبتنا، وافتقدنا المهندسة روضة التي جاءتنا في نهاية اليوم بصينية «حلويات» من عمل يدها، وكأننا في حفل زفاف ولسنا في غيط نعمل بالأجرة.

***

(١٩)

انتهى أوّل أيّامي في عالم الإكراء بسلام، وعدتُ إلى دارنا بقلبٍ جديد، أسترجع حالتي التي خرجت بها، ثمّ نفسي الذي عدتُ بها فيزداد اندهاشي، كان يومًا بطول يوم (الكلب) وببهجة يوم التلفزيون.

قبّلت يدي أبي أؤكّد له ابتهاجي وأطمئنه أنّ حصاد اليوم الجديد كان على غير توقّعي، وكذلك توقّعه، فأظنّه كان يتصوّر أني سآتي ساحبًا جوالَ كآبتي الذي خرجت به، وربما معه زكيبة أو زكيبتان من التعاسة والألم، لكن الله سلّم.

لم يكنْ بي طاقة للتلصّص من كوّة القاعة على مسلسل الوسية، الذي لا أرى ممثليه سوى ظلالًا متحركة لبعد المسافة بين القاعة وجرن شعبان، ولا أسمع الأصوات إلّا همسًا، وقد تعلمت هذا التلصّص متأخرًا بالصّدفة عندما صعدت أنظّف الكوة؛ فوجدت تلفاز شعبان في الجرن في مقابلة القاعة.

ألقيتُ نفسي في الفراش مهدودًا أتذكّر روضة وروحها العالية الشبيهة بروح أمّي، ثمّ نمت ليأتيني صاحب العمامة الخضراء.

في الصّباح جاءني أنور لنستكمل رحلةَ العمل وقد تحوّل الأمر إلى فسحة جميلة، وصار وجود المهندسة داعمًا كبيرًا؛ فقد ساقتني الطيبة بنصحها وحماسها إلى عالم جديد وأنعشتْ فيّ الأمل، وأحيانًا كانت تتقمّص دور أبي في المواعظ.

وصِرْنا ننتظر لحظةَ انصراف الأستاذ صابر كلّ يوم لتقترب منّا تحدثنا، أو لتجلسنا في وقت راحتنا المؤقتة بجوار العريش والشّاي وصينية الإفطار، وتظلّ تتحدّث بلغة الكبار المجربين، وتتبسّط وتشرح عندما تراني أسقطتُ عنقي حياءً ما يعني أنّني لم أفهم هذه الجملة؛ فتفتح لي صناديق مغلقة وأبوابًا مواربة عن الفن والكتابة والطبّ والسياسة والناس والنفوس، وجلّ كلامها يكون لي والأولاد يتابعوننا بامتنان.

- لماذا لا تنظر لأنور؟

- ماذا تعنين؟

- لا يملك أي شيء مما تملكه.

- يملك أمًّا.

فاجأها ردّي السريع؛ فبدوتُ كأني بالفعل فكّرت قبل ذلك، ومايَزْت بيني وبينه ووجدت الفرق، فقالت بعد صمتٍ قصير:

- هكذا القدر يعطي شيئًا ويأخذ شيئًا.

- ليس مع كلّ الناس.. فأحيانًا يعطي لشخص شيئًا ويعطي لآخرين أشياء.

سكتتْ تستفهمُ، فقلتُ لها محرجًا وأنا أعرف أنّه سؤالٌ لا يليق، فهربت ببصري إلى القادوم بين يدي أنور المنحني مع بقية الأنفار..

- ماذا أخذ منك مثلًا؟

سكتتْ، فغَرّني سكوتها فواصلت بجاحتي مُسترجعًا نصًّا قلّبته في نفسي أوّل أمس:

- والداك معك.. أثرياء.. مركز محترم في الحياة.. مركزك في التعليم ممتاز.. جميلة ليس في وجهك ندبة.

كادت تعلّق على الجملة الأخيرة التي بالتأكيد سعدت بها، لكنّها لم تفهم سبب إقحام الندبة عليها، لكنّها قالت متفاصِحة بقاموس المهندسين:

- يا هاشم.. الحياة حولك أطول وأوسع وأعمق من أن تقيسها بمسطرتك أنت.

لم أفهمْ، وربما تعمّدتْ هي أن تكون جُملة معقّدة كي توقف الحوار لصالحها بعد أن أحرجتها بسؤالي..

قطع حوارنا صوتُ درّاجة النّاظر آتية من بعيد فنهضتُ سريعًا إلى موقعي بين خطوط القطن حتى لا يظنّ الناظر أنّ ابنته تتواطأ معي، وتعطيني راحات مضاعفة لتسامرني، رغم أنّ هذا هو الذي كان يحدث.

وبعد أربعةِ أيّام في غيطهم ودعتُ روضة والأستاذ صابر، وظلّت هذه الأيام الأربعة الشحنة الأساسية للقابل من الأيام في عالم القادوم والشقاء والغيطان.

***

غدًا إجازة.. لا فأسَ لا أنفار لا بسبوسة، وربما لا إفطار.. سأنام وأترك البنت مبروكة تذهب وحدها للغيط، فأنا في حاجةٍ أن أريح راحتي التي امتلأت بالفَقاقيع وأقيم ظهري الذي تقوّس من مواصلة الانحناء وأزيد هدوءَ قلبي الذي سكن قليلًا أمام الأوجاع، وأراجع ما قالته «روضة» عن القوة والعقل والعدالة والحبّ والإيمان، فأستحسن حينًا ألمعيّتها، وأحيانًا أبتسم من فرط طيبتها.

سمعت شربات تنادي أختَها مُغتاظة، ابتسمت أتسمّعها أريدها أن تصيح مجدّدًا؛ فصاحت كأنها تلبي رغبتي.. أحسستُ أني أفتقدها، أريد النظرَ في وجهها، لا لرغبةٍ مريبة، ولا لشيء مفهوم، لكني أدركت أن وجهَها أحد المهدئات منذ أن رمت رميتها في رأس الكلب ورأسي.

أزعَجني نداءُ أنور صديقي الجديد، ووقع صوته بعد صوت شربات كوقع القنبلة بعد عزف كمان، فقد جاء الفتى النّشيطُ (يبيِّت) عليَّ كي أذهب معه لحصاد الطماطم عند عمّ غندور.. أشحت بوجهي رافضًا فأنا أريد أن أترك لنفسي فسحةً وسط الأيام، حتى لا يسجّلني عالم الشقاء في دفتره، ويعتبرني مقيمًا لا مجرد عابر سبيل.

لكنْ بعد مفاوضات مع أنور، الذي حجزَ له مكانًا في قلبي بجوار مبروكة وعمر وسعد ابن عمّ صبحي، وصارَ لنصحه وقعٌ محترَم في عقلي بعدما تبيّن أنّ رأيه كان أصوب في غيط الأستاذ صابر، وافقت مقتنعًا بكلامه الرشيد.

في الصباح، ارتديتُ قبّعتي القماشية الجديدة التي اشتراها لي أبي تأكيدًا على وظيفتي الجديدة.. فتحت البابَ فوجدتها في وجهي، وكانت تستعدّ للطّرق، ارتبكتْ الصبيّة الحييّة كأني أمسكت بها تسرق درفة الباب:

- أمّي تريد الكبريت.

تسمَّرت قليلًا صامتًا أمامها، دارت عيني تجوب في المكان خجلة أن تستقرّ في عينها.. الصبية لا تفهم حالتي، وأنا أيضًا لا أفهمُ ذاك الجنون، أردت أن أشكرَها بشكلٍ واضح، فأنا لم أشكرها إلى الآن على فعْلها يوم المباراة، ولا على فعلها يوم الكلب، رغم أنها شكرتني على ما هو أتْفه من ذلك.

لكنّي خجلت.. فالتفتُ أنادي وأنا أهمّ بالانصراف هاربًا مكتفيًا بطلّة وجهها المريح:

- الكبريت يا عمّتي.

***

نزلتُ الحقل الجديد مرتبكًا، فلأوّل مرّة أعمل في «جمْع الطماطم» ولم نزْرعها من قبل في أرضنا، أوصيت أنور أن يظلّ بجواري، فبسط لي الأمر كعادتِه في التبسيط مثل مستكاوي الحلاق، وأرشدني أن المهمّة باختصار أن أبركَ على أحدِ الخطوط ومعي الغَلَق الجلد أملؤه حبّات طماطم، ثمّ أحمله إلى العريش في نهاية الغيط، أو أرفعه لإحدى البنات، فيتناوله عمّال آخرون ويرصّونه في الأقفاص، وأظلّ على هذا حتى تنتهي المهمّة.

عملُ الطّماطم أشدّ بكثير من عزق الأرض وتنقية الحشائش وخلّ القطن، بالإضافة أنه ليس هناك روضة ولا الأستاذ صابر، والعمل يكون في عزّ الهجير مثل دَرْس القمح، وغالبًا تكون الطّماطم مرشوشة دواءً فيصعُب أكلها إلّا بعد الغسيل، ما يعني أنك مع كلّ حبّة تريد أن تأكلها سيعلم الجميع.

أزعَجَني صياح عمّ غندور:

- اعْملوا لكم همّة يا كسالى.

نظرَ لي أنور باسمًا يريدني أن أحتفظ بحالتي، فهززتُ عنقي أطمئنه أني صرتُ أفكّر بطريقة قريبة منه، فحاقنة روضة لا يزال مفعولها ساريًا؛ فالأمر عادي والرجل الكبير يوجّه نداءه للجميع.

ثمّ فوجئت بالصوت يقترب منّي:

- أنْهِ يا نطع!

استدرتُ منزعجًا، وكدت أسْقِط غلقَ الطماطم الذي بين يدي، وأسقط في الاختبار من أوّل (شتيمة)؛ فالكلمة لو كانت تقصدني فقد انتهى عهْدي في عملي الجديد، وأنا لم أزل في تجربتي الثانية، وقد ألقي الغَلَق في قلب الخطّ وأدوس عليه، هذا إنْ لم أردّ الشتيمة بمثلها؛ فصحيح أني تفهّمت نصائح روضة عن الصّبر والجدّ ومراوغة الأيام، وهذا الكلام الذي يشبه أوّله آخره، لكن كلّ هذا لا يزال كلامًا نظريًّا صعب أن أطبّقه في عاجل الأيام.

اكتشفتُ أنّ الرجل الطيب يوجّه كلامه لابنه (النّطع)، فتنفّست الصعداء مستريحًا أن الله كفاني شرّ النّهاية التعيسة، وتابعني أنور ضاحكًا من حالتي

العجيبة الرّاقصة على حبال الصبر والكرامة، وكأنّ هناك تعارضًا لا بدّ أن يحدث.

عدتُ للعمل وأنا أؤنّب نفسي على هذه الخفّة وهذه المبالغة رغم أنّ روضة قالت لي: النفوس تقتلها المبالغات.

وصلني صوتُ عمّ غندور فوق أذني:

- ربنا يحرسك يا هاشم.

انتصبتُ واقفًا منشرح الصدر:

- تسلم يا عمّ غندور.

إحسان عمّ غندور وغيره إليَّ كان شيئًا فارقًا في عالمي الجديد، بل كان الدّاعمَ الأول للاستمرار وتعديل التصوّر، ولولا هذه المعاملة الخاصّة جدًّا ما تحمّلت يومًا واحدًا ولما صبرت على حنظل الأيام الذي بدأ يتسرّب إلى حلقي قطرة قطرة حتى سغته.

كنتُ أعرف أن فقدي لأمّي كان رخصةَ مرور شديدة الفاعلية إلى قلوب الناس، وكنت أدرك بقليل من التّركيز أنه السببُ الرئيس في دعمي من المحيطين دون سائر الأولاد سواء في المدرسة أو الغيطان، هذا بالإضافة إلى كوني ابن المعلم عبد الحميد وكوني جيدًا في دراستي.. وقد وفّر لي هذا الدعم غطاء دفعني إلى إجادة العمل في أجواء مريحة إلى حدّ ما، رغم حبّات العرق ولسْعَة الشقاء وقرصة يدِ الفأس في يدي حديثة العهْد بالنعومة؛ وبالتالي

صرتُ جيدًا حتى في العمل؛ فصار الدّعم في النهاية كأنّه عن استحقاق وليس مجرّد عطف.

جاء موسمُ حصاد الأرز، وهو ختام الصيف، وموسم ما قبل الدراسة، عملتُ فيه باجتهاد وحرصت أن أتمّم مبلغ السّتين جنيهًا لأكسر الرّقم القياسي لأنور في حصّالة صيفه.. وبالفعل أكملته وسلّمته لأبي قبل بدْء الدراسة بأيام.

تنفّست ملء صدري راضيًا بما تمّ، ومستعدًّا لما هو آت، وقلتُ لأنور وأنا مسترخ على «شونة القش» بعد مباراة حامية الوطيس:

- سأودّعك يا سيد أنور مؤقتًا.. سأوقف عمل الغيطان.

هزّ أنور رأسه متباسمًا مخفيًا حزنه على مفارقتي إيّاه.. ثمّ قال يجاملني بجملته المعتادة:

- والمصحف الشريف، أنت أحسن ولد يا هاشم.

***

(٢٠)

مضتْ شهورٌ أخرى نعالج وضعنا المادي الجديد بفتقٍ ورتْقٍ، وعقدٍ وفكٍ، ونحاول أن نثبت في مواجهته مُنتظرين لطفَ الله الذي يعدنا به أبي والجدّ عبد الباسط، ومن ورائهم السيد الخضر، ورغم عملي في الصّيف الذي أنجز كثيرًا في حاجات الدّار وفي نفسي، إلّا أنّ الديون كانت أكبر، والوقت يمرّ ثقيلًا خانقًا مؤلمًا للرّوح والبدن، فقد تخلّينا حتى عنْ عاداتنا في الطّعام؛ فقد كنّا- قبل ذلك- لا يمرّ يوم أو يومان على الأكثر حتى نسفكَ فيه دماء، ونجمع فيه أشلاء، ونملأ بالطّير الوعاء، لكنِ الآن فطورنا الرسمي فنجان شاي بجوار كسْرات خبز يابسة عابسة، وغداؤنا لبنٌ رائب، أو طبق «مشّ» ومعه كسرات الخبز عينها، وساعة الفرج ربما شقّة خبز بلدي طريّة نهرسُ في قلبها حبّة طماطم، أو نبلّها ونرشّ عليها سكرًا، أو تتحفُنا عمّتي بطبقِ عسلٍ أسود من الزلعة التي اشترتها بالآجل.. أمّا العشاء في الغالب فول مدمّس أو بامْياء.

عرض الحاج فؤاد على أبي أن يشاركه في أرضِه القبلية التي تجاور أرضنا، والتي استولى على معظمها من أصحابها بعد سقوطهم معه في الرّبا.. تردّد أبي كثيرًا؛ فهو يعلم- وأعْلمني قبل ذلك- أنّ أموال فؤاد كلّها حرام، ومساعدة الحرامي حرام، وفلوسُه إفلاس، لكن ربّما تغيّرت الفتوى، فالحكم يدور مع العلّة حيث دارت، ونحن الآن معلولون مشلولون.

استفتى أبي شيوخًا توسّم فيهم الإباحة والبحْبَحة، ولم يشأ أن يسأل الجدّ عبد الباسط؛ لأنه يعرف رأيه في مال ابنه فؤاد، فالجدّ عبد الباسط بالغَ في تحريم مال ابنه على نفسه لدرجة أنه تركَ لفؤاد البيت كلّه، وسكن في كوخٍ طيني على رأس أرضه، وأغرى ابنه عمر أن يجافيه فجافاه.

لكنّ الجدّ عبد الباسط ثريّ أيضًا، فربما أعانه ذلك على خطوتِه القاسية، أمّا أبي فقد أمالته الحاجة إلى المال؛ فمال.

قاتلَ الله الفقر! سامحَ الله الخضر! أين تدخّلاته؟ نحن الآن قدْ أحوجنا الزمان إلى شرّ الناس، هو يملأ كرشَه ويضاعف قرشَه، ونحن فقط نريد أن نسدّ جوعنا، فاضطررنا أن نزوّج حلالَنا بحرامه.

إن كان لكلّ مصيبة حكمة كما يقول أبي.. فأين الحكمة في ذلك أيها العقلاء؟

شاركَ أبي بالجهد والسّماد وفؤاد بأصل الأرض، وفي نهاية العام يأخذ فؤاد النّصف وأبي النصف.. أخذنا ثلاثة أفدنة دفعةً واحدة بالإضافة لأرضنا، وتشجّعت عمّتي؛ فهي لا تلتفت كثيرًا للحلال والحرام، وأخذت تحفّزنا بأن الأمر إنْ سار كما نحبّ سينقلنا نقلةً جيدة إلى الأمام، وينتشلنا من بئر الفقر التي أُلقينا فيها.

تحمّستُ كثيرًا ورأيتُه أفضلَ مِن عمل الغيطان الذي ودّعته، فعلى الأقلّ سأعمل تحت إمرة أبي وليس الغرباء، ومنّيْت نفسي بإفاقةٍ تنسينا ما فات،

وحاولت أن أوفّق بين الدراسة وبين عمل الغيط، خاصّة أنني صرتُ ماهرًا في شئون الزراعة منذ الصيف الماضي بفضل أنور.

***

في نهاية الأسبوع الشّاق، أقضي ليلتي في كوخ الجدّ عبد الباسط ومعنا حفيده عمر، وأحيانًا أصطحب بركة الذي نال لقبَ المشيخة وهو لا يزال على ناصيةِ عامِه الثالث، فنستفتح الليلة بعزف عمر على كمانه يعيدُ علينا إحدى مقدّمات المسلسلات، ثمّ يحكي لنا الجدّ حكايات لم نسمعها من قبل، ويقرأ لنا أوراقًا قديمة أغنتني عن تِلفازنا الفقيد، ثمّ يمنّ علينا الجدّ عندما يرانا مللنا مواعظَه فيفتح المذياع العتيق على سهرة قديمة لأمّ كلثوم.

وفي نهاية الجلسة يسألنا عن أحلامنا وأمانينا، فأقول:

- أرجو فرحًا لأبي ليس بعده حزن.

- وأنت يا عمر؟

قال يقلّدني لكن مع تعديل في الصياغة:

- أرجو فرحًا لجدّي ليس بعده حزن.

اندهشتُ أنّه قفز من أبيه إلى الجدّ، مباشرة، ثمّ سأل الجدّ شيخنا الصغير:

- وأنت يا بركة؟

- مووكري (يريد أن يكون مقرئًا).

ضحك الجدّ من تهتهة بركة، وضحكنا معه من أمنيته المبالغ فيها.

***

انتهى الموسم الزراعي مع الموسم الدراسي، وجاء موعدُ حصاد القمح، وليته ما جاء، وجاء موعد حصاد الصّف الثاني الإعدادي، وليته ما جاء.. فلم نحصلْ من أرض الشراكة ما يسدّ حصتنا وما دفعناه، ولم أحصلْ من الدرجات ما يجعلني مجرّد ناجح كالبليد عيد.. وقال أبي مستسلمًا مبررًا نتيجة الحصاديْن:

- كان ينبغي علينا أن نعي ذلك من البداية، فمالُ فؤاد ملطوط.

وأقولُ في نفسي معترضًا: (لكنْ ما بالنا نعاقب بموسمٍ واحد، وهو مغموس في الحرام لشوشته!).

وكدتُ أتوجّه بذلك السّؤال المنطقي لأبي لولا أني راعيتُ حاله التي لم تكن تسمح بمثل هذا السؤال، وعلى كلّ حال أجابني الخضر عمليًّا في القادم من الأيام.

فُضّت الشّراكة والحمد لله، ورسبتُ في الدراسة والحمد لله.

فتّشت عمّتي الأكثر خوفًا من الفقر والفاقة عن ثقبٍ آخر في جدار الخضر ننفذ منه لينقذنا من مصير كالح؛ فحياتُنا بتلك الطريقة ستصلُ حتمًا إلى نفقِ الجوع قد نضطرّ معها إلى بيع أرضنا الصغيرة- والعياذ بالله؛ فنحن لا نعاني

مجرّد فقر أو قلّة في الموارد نستطيع أن نتكيّف معها ونصبر عليها؛ بل نعاني انعدامًا في الدّخل وتراكمَ ديونٍ قد نعجز معهما حتى عن إيجاد الطعام.

بعد عصف ذهنيّ لم يطُل، وجدت عمّتي الحلّ الاضْطراري عند شعبان، فذهبت إلى زوجته الطيبة خالة اعتماد تستعطفها لتحدّث زوجها ليعيد أبي إلى عمله معه في بناء الأبراج.

جاء شعبان في اليوم الثاني، وعرض على أبي العودة بطريقةٍ تمثيلية توحي أنّ "شعبان" في حاجةٍ ماسّة إلى مهارات أبي الخاصّة رغم ما به من رعْشة.. استقبل أبي الطلب مرتاحًا رغم أنه يعلم أنه لن يعود سيدًا في العمل كما كان.

دخلتُ عليه ليلًا في القاعة لأجلسَ معه قبل الفراق، وليتحدّث معي كما عودني.. فوجدته ساجدًا يتضرّع- بحرقة- ويدعو الله أن يذهبَ رعْشته، فأصابتني أنا رعشة اجتاحتْ كياني وخرجت مسرعًا احترامًا لخلوته.

في الفجر، جهّزت له عمّتي أشياءه، أمّا أنا فأوّل شيء فعلته رنوتُ إلى يده ثمّ تحسّستها هل استجاب الله لعبده الطيّب وأذهب عنه الرعشة؟.. كلا لم يحدثْ.. ربما أُجّلت للوقت المناسب- كما يقول أبي أحيانًا عن الدّعوات، وربما لن تُستجاب، فانحنيت على يده أقبّلها وأواسيه.

عادَ أبي إلى العمل لكنّه عاد هذه المرّة مع أناس جددٍ لا يعرفهم ولا يعرفون تاريخه في الصنعة؛ فكانوا أقلّ تبجيلًا له، وبطبيعة الحال لم يعدْ (معلّمًا) كما كان منذ نحو عامين، بل عاد صبيًّا مساعدًا يجهّز الطين ويكوّره ويلقيه بيسْراه للمعلّم أو يحمل القواديس أو يناولها، ولم يكن أمامه- بحالة يده تلك- أملٌ

للترقي لمرتبته القديمة.

أطالَ فترات غيابه عنّا فجعلها كلّ ثلاثة أشهر رغبةً منه في ألّا نشاركه معاناته، ومضى العام مع غيابه طويلًا ثقيلًا، وكان يرسلُ لنا رسائل أرى فيها دموعَه وشوقه إلينا الذي يحجزه ويحاول أن يغالبه، واكتفى بإرسال المال الذي بالكاد يكفينا.

وقد تأقلمنا مع هذه الحال، وتحرّكت سفينتنا قليلًا وسط الوحْل تجاهدُ لتصل قلب البحر.

***

(٢١)

في ليلةٍ ربيعيّة عصيبة لم ننمْ، ولم تنمْ مبروكة من حمّى مفاجئة اقتحمت عتبة حجرتها وناموسية سريرها، ثمّ جبهتها، وتوالى سعالُها يبدي شيئًا تكتمه؛ فأدركت عمّتي بحكم خبرتها الطويلة وأنا بحكم خبرتي القصيرة أنها الحصْبة التي بدأت ترسل سهامَها في صفوف أطفال عزبتنا وفتيانها بالعدوى، وكانت قد بدأت بعيد بن شعبان والحمد لله، وها هي قد كسرتْ علينا باب دارنا ودخلت معلنةً عن نفسها!

تناثرتِ البثور على جسد مبروكة مؤكّدة التشخيص؛ ففصلتها عمّتي عنّي وعن بركة احترازًا؛ فهي تنتقل بالهواء، فأمرتني ألّا أبرح القاعة إلى أسفل، إلّا بإذنها.

سعالُ مبروكة لا يتوقّف، ومن قوّته يأتيني إلى القاعة، ولا تستطيع أن تفتح عينيها أمام المصباح الكهربي الأصفر فكيف ستخرج للشمس، فكّرت أن أساعدها أن أداعبها من بعيد، لكن لا فائدة.

مرّ يومان كانت المدرسة بدون مبروكة شادرَ عزاء، وعليه قرّرت ألّا أذهب إلى الدراسة هذه الأيام، خاصّة أنّنا في آخر أسبوعين فيها، والحضور يقلّ بطبيعة الحال، وأنا أستعدّ للعودة إلى العمل في الغيطان مع الولد أنور، فلا مانع أن أعطي لنفسي أجازة.

قضيتُ جلّ وقتي في الغيط، أدقّ وتدَ البقرة، وأحشّ غمرًا للأتان، ثمّ

أجلس منفردًا شريدًا أصنع حفرًا صغيرة دائرية بسنّ المنْجل الحديد ثمّ أعمقها ثمّ أردمها أو ألقي بحجر على سطح الماء في القناة، ثمّ أتابع توالي دوائره وأنا واضعًا ذقني على ساعدِيّ المعقودتين على ركبتيَّ، أو أصنع ألعابًا من طين.

وبشكل مفاجئ أطلت عليَّ شربات ابنة شعبان، وكنت نادرًا ما أراها في الحقل في الفترة الأخيرة؛ فأنا أذهب إليه صباحًا وإلى المدرسة مساءً وهي تفعل العكس، بالإضافة أنها لم تعدْ تشارك في خناقاتنا ولا تشدّ شعري ولا تخمشني بأظافرها مثلما كانت تفعل عندما تراني باركًا على أخيها «عيد» أعطيه ما فيه النصيب، ربما لأنّنا صرنا جميعًا في الإعدادية وهي لا تزال تعيدُ في الصّف السّادس الابتدائي، وربما لأنها صارت أكثر ودًّا اتجاهي منذ أن أنقذتها من أظافر مبروكة، ومنذ أن أنقذتني من الكلب.

لوّحت لي من مؤخّرة أرضهم قرب الكبَّاس مستغيثة تطلب المساعدة وتشير إلى شيء ما في اتجاه بعيد.

فهمتُ الإشارة بعدما رأيت حمارهم الرقَّاص شاردًا بعيدًا قد انفلت حبلُه من يدها الناعمة مستغلًّا انشغالَ يدها الأخرى بالجاموسة، وانطلق يعيث في أرض الناس فسادًا.. ورغم ما بيني وبين أخيها من ثارات آخرُها كان منذ أيام عندما أراد أن يركل ضربة الجزاء بدلًا عني مستغلًّا أنّ الكرة كرته فمزّقتها على رأسه، لكن لم أكنْ لأتوانى عن هذا الفعل البطولي النّبيل، لا سيما وأنها فعلت معي من قبل ما هو أنبل بكثير.

خلعتُ نعلي- المخلوع بطبيعة الحال، فلم أكنْ أرتدي مداسًا كمعظم

الفتيان- وأسرعت متقافزًا نحو الحمار أعرف داءَه جيدًا فهو يضرب بـ(الجوز) وبالفصحى بالزّوج، فَلَه دفعة بقدميه الخلفيتين كفيلةٌ أن تودي بحياة مغامرٍ مثلي إذا جاءت في مكان حسّاس.. لكن من مثلي!

سبقتُه برشاقة على المحدّة، وهي سكة صغيرة وسط الحقول، في الاتجاه الذي يجري فيه حتى وقفت أمامه، استدار بسرعة ليوليني مؤخّرته متخذًا وضعَ الرّفص المخيف.. لكن على مَن! قبل أن يكمل استدارته كنت أنا على ظهره، لكن لم أكدْ أستقرّ عليه حتى (ضرب بالزّوج) فأسقطني «زرْعَ بصل» في أحد الغيطان، فقمتُ بسرعة قبل أن تنتبه شربات إلى فضيحتي، لكنّها كانت انتبهت والحمد لله، ودخلت في نوبة ضحك على سقطتي العار.

عاودتُ مطاردته مصمّمًا على الإمساك بالوغد، وهذه المرّة أمسكته من خطامه أولًا، ثمّ اعتليت ظهره الفارع القوي بتواضع، فارتخى ظهره الشّبيه بظهْر الحصان ولانَ لفارسه.. قدتُه عائدًا إلى مربطه متبخترًا مزهوًّا متناسيًا السّقطة العابرة حتى وصلتْ للآنسة التي تنتظرني بالابتسام والامتنان على ذاك المنجز الصعيب.

- متشكّرة.

تقريبًا كانت هذه ثاني مرّة يشكرني فيها أحد، والغريب أنّ المرّة الأولى كانت منها أيضًا.. ربطتُ حمارها في مربطه بجوار جاموستهم على رأس أرضهم مُنهيًا مهمّتي سعيدًا بوجودها، وعند استدارتي لأعود إلى موْقعي الجغرافي خلف بقرتِنا رأتها عيني عفوًا قد انْحنت تفتش عن المنجل وسط

البرسيم، وقد التصق جلبابها بقدّها الطويل الذي اكتنز قليلًا واصفًا ما لا يوصف، وأضاءت ربلتا ساقيها من تحت هُدبة الثياب؛ فبلعتُ لعابي وانصرفت مسرعًا خجلًا.

في ساعةِ رواح البهائم إلى حظائرها قبيلَ المغرب بقليلٍ سارت خلفي تسحب حمارها الرّفاص وجاموستها تستأنس بي في الطريقٍ من الغيطِ إلى العزبة، وعليه تحرّكت عروق شهامتي وأبطأت حركة الأتان التي أركبها- والتي هي بطيئة بطبيعة الحال- كي أبقى قريبًا منها حتى تصل الدارَ بأمان، ودون أن يفلت من يدها حبلُ الحمار.

عندما أويتُ إلى فراشي في القاعة سافرت لأوّل مرّةٍ بخاطري إلى تلك المليحة التي سمنت وطالت واسْتدارت واستنارت.. وكادتْ خواطري تجنح بي إلى شيء سيئ يعرفه أبناء السّادسة عشرة، لولا أن قطعت خاطري سعلةُ مبروكة المسكينة من حجرتها، وكأنها تقول: تجشّم يا طويل يا أهبل يا مدّعي الحياء.

***

(٢٢)

كأنها ضبطتْ موعدَ ذهابها إلى الحقل مع موعدي؛ فمعَ خروجي بالأتان والبقرة من باب الدار لمحتُها خارجةً من باب دارها تمسكُ بخطامي الحمار والجاموسة في قبضةٍ واحدة، ورغم رغبتي الخفيّة الجديدة في انتظارها، لكنّني فضّلت الانصراف مُتجاهلًا إيّاها؛ فالسيدة مبروكة لا تطيق رؤيتها فضلًا عن أن تراها معي أو بقربي.

نادتني تضعني أمام الأمر الواقع:

– هاشم.

شعرت بهدهدةٍ جميلة قلّما أسمعها عندما أُنادى باسمي، بل أنا أصلًا قلّما أُنادى باسمي، فالنّساء يقلن لي: يا أسمر. والرّجال يقولون: يا أبا طويلة. ومبروكة تقول لي: يا أحمق.

– ما رأيُك تأخذ الحمار، وتعطيني الأتان؟!

وقفتُ قلقًا من مواصلتها كسر الحاجز بهذه السّهولة، وأمامَ دارنا، وعلى مرمى حجرٍ من سمع مبروكة الشّريرة؛ فبحسب ما أذكرُ هذه أوّل مرّةٍ تناديني باسمي أمام دارنا، بل تقترح عليَّ اقتراحًا كأنها ابنة عمّتي.

– هيه يا هاشم!

قالتْ تستعجل قراري بلهجةِ مَن نزعت أيّ تكليف، وقد دنت منّي..

بالإضافة إلى رغبتي الحبيسة، فالعرضُ منطقيّ بالنسبة لي؛ فصبيّة ناعمة

مثلها لن تستطيع التحكم في مثل هذا الوحش بالركوب أو حتى بالسير بجواره كما تفعل بناتنا، وقد ينفلت منها كما فعل بالأمس، وعليه فيليقُ بوحش مثلي أن يقودَ وحشًا مثله، لكن العرض ليس منطقيًّا بالنسبة للسّيدة مبروكة التي قد تقفز وسطنا الآن وتوسعنا بالشلاليت.

نفضتُ ذكرى مبروكة فأنا في حاجة ماسّة إلى رفيق، ولو مؤقتًا، وهززت رأسي موافقًا ومددتُ يدي أستلمُ الحمار وأعطيها الأتان الوديعة حتى نصل الغيط، وأثناء إنهاء هذه الصّفقة النبيلة كانت الآنسة مبروكة المريضة قد سمعت الحوارَ الغريب المريب، فواربتْ شيشَ الشباك المطلّ على الجرن ببطء ومدّت عنقها واضعة راحتها على عينيها الكليلة تتفحّص الملابسات، ورأتني بالفعل متلبّسًا بتناول خطام الحمار والتعاون الصريح مع العدوّ للمرّة الثالثة، وربما الرابعة، فقالت لي بصوتٍ نسَوي مجهَد مغتاظ، وهي تنظر لشربات:

- احترسْ من الحمار يا بنَ خالي.. أصله رفّاص!

نبرتُها لم تكنْ مريحة؛ فهذه الماكرة تقصدُ شيئًا غير المنطوق، لكنْ لم أحاول تفسيرَ ما عنته مبروكة فقفزتُ على الحمار وهززت خطامه معجبًا بظهره العريض، أمّا شربات فربما فهمت ما عنته ابنةُ جنسها- التي تكبرها ربما بثلاث سنوات- من نبرة صوتها، فزلقتها بنظرةٍ متحدّية، وسارت خلفي دون كلام.

***

هدوءٌ استثنائي في الحقول حولنا، وخلوّ شبه تامّ من الأطفال والصبية

أقراننا، إمّا لأنهم أصيبوا بالحصبة أو تخوّف الأهالي منها فحبسوهم في الدّور احترازًا حتى تنتهي موجتُها، أو ربما لا يزالون يتابعون الدراسة.. أمّا الرجال فتناثروا تحت أشجار الكازورينا والصفصاف هاربين من لسعة شمس الضحى.

أنهيتُ حشّ إفطار البقرة والأتان والعنزات، ووضعت البرسيم أمامهم، ثمّ تناولت الفأس، وأخذتُ أنظف تحتَهما، وأنا أدندن بجُملتين أحفظهما من مقدّمة «ليالي الحلمية» منذ أن كان في بيتنا تلفاز:

ليه يا زمان ما سبتناش أبريا..

تتن تتن تتن تتن

وواخدنا ليه في طريق ما منوش رجوع..

تتن تتن تتن تتن

ليه يا زمان ما سبتناش أبريا..

تتن تتن تتن تتن تتن

وواخدنا ليه في طريق ما منوش رجوع..

فوجئت بصوتها من خلفي ضاحكة:

- تتن تتن تتن تتن

التفتّ إليها محرجًا خجلًا، وكأنها قبضت عليَّ متلبسًا في وضعٍ مخلّ، ثمّ

أعادت الدندنة بشكل تمثيلي ساخرة من أدائي الذي شوّه الأغنية:

- تتن تتن.. تتن تتن

- يا وقعتي السوداء.

قلتُها في نفسي.. فضحكةُ الصبية الملغمة نسفتْ قواعدي، وأحرقتْ حصوني ونقلتني غصبًا من عالمي السّاذج، فأحيت فيّ مراهقًا كان يختبئ وراءَ أسوار الأيام، أو كانت الأسوار تحجزه متعمّدة رغم دنوّه من السّادسة عشرة.

دنتْ منّي باسمة:

- ليستْ هكذا تُغنَّى يا هاشم.

ما أدركته أنّ (هاشم) من فمِها شيء آخر غير (هاشم) الذي أعرفه، تقوله بطريقة مختلفة عن كلّ من ينادونني به منذ أن نادتني من أعلى الشّونة لأعطيها بلْغَتي، انتبهتُ الآن أنها تقوله ابتداءً بعينيها الخضراوين فلا يسعُ محدّثها إلّا أن يسقط في عينيها فيعتقدُ أنّ الصوت يخرج منها، وانتبهت لنفسي فلأوّل مرّة أتبجّح بهذا الشكل وأدقّق في عين صبية.

تلفتَتْ حولها للتأكّد من خلوّ المحيط القريب من الغرباء، والذي بدا بالفعل متواطئًا معنا بشكل ما، ثمّ انطلقت تعزفُ منفردة بصوتها الجميل الأغنية من أوّلها إلى آخرها، وأنا ألقيت جسدي على الجسر الذي يفصل بين حقلهم وحقلنا، ويفصل أيضًا بين هاشم أمْس وهاشم اليوم، بل هاشم

الصباح وهاشم الضحى، مشدوهًا مأخوذًا بصوتها النّاعم وثقتها وملاحتها واحمرار وجنتيها، وأشياء أخرى لم أكن أعلمها ولا كنت أدْري أنها موجودةٌ في دنيانا، ولم أكنْ أراها في مبروكة، فضلًا عن شبهها المتطابق بالممثلة الجميلة، ولم أكن أعتقدُ أنّي أملك الجرأة على اكتشاف ذلك بدقّة لو لم تتَحْ لي هذه الفرصة الآمنة مع هذه الحسناء.

جلستْ على مقربةٍ مني وقد ألقتْ معظم الحواجز التاريخية الشقيّة التي بيني وبينها، أو بشكل أدقّ بيني وبين أخيها، دون سابقِ إنذارٍ أو إخطار، معتمدة بداية على موقفي النّبيل معها يوم معركة مبروكة ثمّ مواقفها النّبيلة معي يومَ المباراة ويومَ الكلب، ثمّ على امتثالي لها بالأمس وصباح اليوم ما يعني عندها أني مستعدّ لفتح صفحة جديدة متناسيًا آثار أفعالها بي.

أرْمقها بنظراتٍ خاطفة آيبةً ذاهبة بين الفضاء الأخضر الذي حولي.. والبؤبؤ الأخضر الذي أمامي لم تكنْ حالتي حالة إعجاب بجَمال بقدْر ما كانت اكتشاف مفاجئ للّغز خطير.. إنها شربات أخرى غير تلك الطّفلة البائسة المتشرّدة التي كنت أضرب أخاها في جُرنهم فتحاول وَخْزي بدبوس أو إصابتي بغطاء حلّة أو تمزيق جيب القميص أو عضّي أو خمش وجهي، فأناولها الكفّ المتين، بل هي ليست تلك الهاتفة باسمي على شونة القشّ ولا الجريئة التي أنقذتني من أنياب الكلب ولا صاحبة الزغرودة التي ضاعفت بهجتي يوم التلفاز.. إنها اكتشاف جديد.

شعرتْ شربات بأنسي بها، وتعاملت مع نظراتي التّائهة بعدم ريبة مُدركة

أنّ الغرّ الذي أمامها لم تغزه حمى المراهقة بعْدُ رغم قطعه شوطًا طويلًا فيها؛ فأرادت أن تعقدَ الحبْل الذي أرْخَته لي وتواصل الوصل لعلي أهشّ لها، وأنزع عنْ وجهي بقيّة جديتي أمامها.

– ما رأيك لو تعلّمني السّيجة.. وأحكي لك عن المسلسل الجديد؟

عرضٌ جميل، بل مثير ومغرٍ للغاية؛ فأنا عاشقٌ للمسلسلات التي يحكي لي عنها عمر منذ أن غاب التلفاز، والتي أتسمّعها من بعيد من خلف كوّة القاعة، وربما لن تمانعَ شربات لو طلبت منها أن تعيد عليَّ مقدّمة "الشّهد والدموع" أو "أولاد آدم" أو "الوسية" أو "أبو العلا البشري" أو "شارع الموارد"، بالإضافة أنّنا شبه وحيدين في هذا الفراغ، ولا يحيطنا إلّا شواربُ العواجيز؛ فلا بأس من التسلية وشنْق الوقت الثقيل.

بعد ثلاثةِ أدوار أو أربعة كانت شربات لقطت سرَّ اللعبة وشربتِ الصّنعة، وبدأت تنافسني بالفعل، وهذا ليس فقط لذكائها، ولكن لأنّني بطبيعة الحال كنت غبيًّا فيها.

لذا.. في الدّور الخامس غلبتني..

هدمت بيدِها دور السّيجة مُنتشية بالانتصار ومستعدّة للانتقال معي إلى حيث أريد من الكلام والانْسجام، كأنّني «شهر يار»، مجهّزة نفسها لحكي ما لم يصلني من الدّراما بدءًا بالتيترات وانتهاء أيضًا بالتيترات.

لأوّل مرّة، أفتح حديثًا كاملًا مع إناثٍ غير نساء بيتنا– إذا اعتبرت عمّتي

أنثى، ولأوّل مرّة أتبسّط إلى هذا الحدّ، وأسأل وأجيب وأتابعُ وأشتهي أحيانًا وألحظُ أشياء لم أكن ألحظها في البنات، بل لأوّل مرّةٍ تبدو هذه المثيرة الصّغيرة بهذا البهاء كأنها موصولة ببدْرِ التّمام، ولأوّل مرّة يلفتني شعرها البني المتماوج الذي تسلّلت خصلاته الشقيّة من تحت طرحتها الزاهية، لتؤكّد أنّها تشبه تلك التي رأيت صورتها في المولد على طاولة الرماية.

دلفتِ المليحة، بل قفزت، إلى عالمي الصغير بمفاتيحها الخاصّة التي أدركت أنها نسخة من مفاتيح بابي؛ فها هي الآن تحملني على بساط ذاكرتها التي حفظت كلّ ما شاهدت من مسلسلات وأغاني مسلسلات، وطافتْ بي فوق سحب القصص والحكايا والحزن والسّعادة والفراق والوصال والخصام والوئام، وبالطبع لم أخبرْها أني شاهدتُ بعض ما تحكي من كوّة القاعة.

ثمّ عرجت الفاتنة على «رأفت الهجان» وحبيبته الجميلة «إستر بولونسكي».. وهنا توقّفت لتشير مزهوة أنّهم في الدار والعزبة يقولون إنها تشبهها.

قلتُ لها أظهر لها خبرتي الدّرامية، وأيضًا أبدي رغبتي في مشاركة الكلام:

- بل أنت تشبهين «ماما نونو».

ضحكتِ البهيّة من جهالتي الدّرامية، وانتشتْ بإطرائي الواضح الذي بدا أنّه تأكيد لتشبيهها بتلك الفاتنة.

قالتْ باسمة تخفي عُجبًا نسائيًّا لا يخفى على أحد:

– هي هي.. «ماما نونو» هي «إستر بولونسكي».. هي أيضًا «شهر زاد» في ألف ليلة وليلة.. لكنها تغيّر أدوارها يا هاشم.

هززتُ رأسي بطريقةِ مَن يعرف المعلومة ابتداء، ثمّ تجاوبت معها:

– وأنا مَن يشبهني يا «إستر»؟

وضعت سبّابتها على ذقنها الجميل المختوم بطابع الحُسن والمسحوب إلى أسفل، وبعد بحث عميق في مكتبة مسلسلاتها، قالت:

– فتى أسمر لا أعرف اسمه.. لكنّك أجمل منه.

تحرّكتُ- لا إراديًّا- في مكاني متزحزحًا إلى الوراء أهربُ من لا شيء؛ فالصبيّة جريئة غير متكلفة وأنا مُخبّل أغرق في شبر ماء، لا أتجرأ سوى في العراك، وهي الآن تطريني وتضعني في صيغة تفضيل لأوّل مرّةٍ أسمعها؛ فأنا أصدّق أن يقال عني: الأطول، الأسرع، الأسمر، الأحمق. لكن أنْ يقال لي (أجمل) فهذا نصبٌ واحتيال على الجميلين والجَمال، لكنّه احتيال حلال، فلا أملك من الجمال إلّا شعري، بل أحيانًا يكون مثار سخرية وسط الصبيان.

ثمّ صاحت وقد اكتشفت شخصًا آخر:

– لا..

خشيت أن تتراجع الحمقاء عن إطرائها الكاذب، فقالت:

– بل أنت تشبه أميتاب باتشان.

رغمَ أنّها تصغرني بعامين وربما ثلاثة، لكنّها أقدر على إدارة الكلام من

تافهٍ مبتدئ مثلي ربما ساعدها على ذلك إحاطتها بعالم التّلفاز، فابتسمت متجاوبًا مع إطرائها وتشبيهي بذاك الشهير، علمًا بأني لم أكن رأيت السيد «باتشان» حتى ذلك الحين، وبالطبع لم أكتشف أنها كاذبة تبالغ.

قرّرت الجميلة ختامَ رحلتها الجميلة حامدةً ربها على حصادها، فغنّت مقدّمة «عصفور النار» واعدة إيّاي أن تحكي لي حكاية الشاب الحسيني وأخته وعمّهم العمدة القاتل.

في أيام معدودات احتلت «إستر» الجميلة جزءًا كبيرًا من خريطتي بل نصفَها على الأقلّ؛ فكانت برفقتي من الشّروق للغروب أساعدها في تجهيز أحْمال البرسيم أو «الدّريس» وأسلفها أتاننا الهادئة تفاديًا لرفصات حمارهم الطائش، ونذهب معًا لجلب الماء من الخالة عيون.. وفي أوقات الراحة تجلس على مقربة منّي تكمل سلسلة حكيها الدرامي.

شقلبتْ شربات أمري، وبعثرت دفاتري، ولعبت بأوتار كماني ونقلتني -أو قلّ ركلتني- من أرض إلى أرض، ومن مرمى إلى مرمى، وفعلتْ بقلبي ما فعله بجسدي أوّل صيفٍ لي في عالم الإكراء، وما فعلته بعقلي أولى جلساتي في حضرة السيدة روضة.

***

غادرتِ الحصبة قريتنا بسلام، تاركة سؤالًا دهشًا، وربما حاسدًا على لسان كثير من أقراني وأمهاتهم: كيف نجتْ منها البنت شربات والولد ابن عبد الحميد؟

وأنا أقول لنفسي ناظرًا لحالي الجديد: كلّا لم ينج ابن عبد الحميد!

قذفتني مبروكة بحصوةٍ من مكانها على عتبة حجرتها التي لا تغادرها هذه الأيام، وهي تقول لي:

- غدًا تصيبك يا سبع.

ألتفتُ لها باسمًا، وأنا جالسٌ على بسطة السلّم مدّعيًا المذاكرة في حين أني شاردٌ في بحر بعيد:

- بنيتي العفيّة وعضلاتي القوية عصيّةٌ على أمراض الأطفال أيّتها الطفلة!

قالت تردّد كلامَ أحد المدرسين بعدما بدأت الحصبةُ في الانسحاب من جسدها النحيل شبه الجميل وبدأت تعافيها:

- الحصْبة قدرٌ لا تترك أحدًا أيها المغرور.

أغلقتْ مبروكة عليها بابها تكملُ فترة عزلتها التي أوشكتْ على الانتهاء، وعدت أنا لطريق شرودي الطويل أفتّش أين توقّفت.. نعم.. عند حصبتي الخاصّة التي جاءتني على شكل (صبية بيضاء بعيون خضراء) تريد أن تخطفني من صندوقِ وداعتي إلى ثورة المراهقة الزاعقة.

***

(٢٣)

بعد غياب أسبوعين بعيدًا عن فتيان وفتيات الغيط والعزبة، ظهرتُ أنا ومبروكة في الحقل بصحبة الشيخ بركة في مشهدٍ درامي مَهيب وسط تهليل وصياح وترحيب وصباح ربيعي جميل، فقد انقشعت موجةُ الحصبة عن الجميع، سواء مَن أصابته لَفْحتها أو مَن كان هاربًا من مخالبها.

تابعت مبروكة معي البرنامج اليوميّ في الغيط كأنها لم تغِب، فاطمئنَنا على بقرتنا العجوز، وبادرت هي ونقلتِ الوتد في مكان متقدّم وسط البرسيم وغرزته بـالمدقّة الخشبية إلى أعماق الأرض زيادة في التأمين.

أخذتُ بيد بركة إلى موضعه المحبّب بجوار جمل عمّ صبحي يتذاكر ما حفظه من الجدّ عبد الباسط، ويردّده بصوتِه الجميل ويلقمُ الجَمل البرسيم.. والجَمل بمجرّد رؤية بركة يهشّ مرحّبًا، بل ويداعبه بفمه المشطور.

ولأوّل مرّة، تذهب عيني قريبًا نحو مرْبط شعبان، ربما كنتُ أفتّش عنها، فقد غابت شربات مع ظهور مبروكة، ربما تعمّدت ذلك، وربما الخضر سيخرج شيئًا مفاجئًا كما عوّدنا على المفاجآت.

جاءت مبروكة بحفنةِ ترابٍ في ثوبها واستعدّت لنلعب لعْبتنا المفضّلة لديها فهي اللّعبة الوحيدة التي تجيدها أمامي وتهزمني فيها، ولم أكنْ على استعدادٍ لرفض المواجهة؛ فهي اليوم مدلّلتي بعد تحرّرها من مرضها بالإضافة أنّني

لا بدّ أنْ أبالغ في التّرحيب بها لأزيح عن رأسها هاجسَ ظهورِ شريكة لها فيَّ، خاصّة أنه حقيقة وليس هاجسًا.

ساوتْ مبروكة حفنةَ التراب على الأرض، ونبشت فيها عيون «السّيجة الخمساوي»، ومع فرْدِها للتراب انتقلت شاردًا في تلك التي كنت أعلمها منذ أيام، فرسْم أصابعها المضيئة لا يزال عالقًا في عيني.

كانت رؤية مثنانا كفيلةً بتجميع القريب والبعيد، وصغير العيال وكبيرهم، لا سيما سعد ابن عمّ صبحي الذي كان ينتظر مثل هذه المواجهة وأنور الذي صار صديقًا مقربًا.

بين فينةٍ وأخرى أدور بعيني محاولًا كشف المساحة التي خلفي في الحقل اللّصيق، فلا أرى إلّا الرذيل «عيد» منْحنيًا يحُشّ البرسيم، والذي ظهر بِطلّته الباهتة ليؤكّد أنّ الجميلة لن تأتي اليوم وإنْ أتت فسيمنعها عن مشاركتنا.

نقشتْ مبروكة أربعًا وعشرين عينًا في التراب، فاكتمل الشّكل الهندسي للسيجة، وجمعت أربعًا وعشرين حجرًا نصفُهم من الزّلط والنصف الآخر من الطين اليابس.. وبدأت اللعبة.

ولِمَن لا يعرف قوانين اللعبة فهي تشبه الشطرنج إلى حدٍّ كبير، عبارة عن ٢٥ عينًا؛ العين الوسطى تكون مسدودة، ولكلّ لاعب اثنا عشر حجرًا إمّا الزلط أو الطين، ويسمّى الحجر في معظم الروايات (كلبًا) يوزّعهم اللاعب بطريقةٍ هندسيّة معينة، والمطلوب باختصار أن يهجمَ كلبان على كلب من خلال التنقل في الأعين بقانون معين، فإذا توسّط كلب للفريق (هاشم) بين

كلْبين للفريق (مبروكة) وهذا ما يحدث غالبًا، فقد أُكل الكلبُ ومات، وبناءً عليه يُرمى الكلب أو الحجر خارج السّيجة غير مأسوف عليه وتُسد عين في السّيجة كأنّ الفقيد تمّ تغسيله ودُفن.

وهكذا حتى ينهي أحدُ الطرفين على كِلاب الآخر، أو بالأصحّ حتّى ينهي الطرف (مبروكة) على كلاب الطّرف (هاشم)؛ فلم أفزْ عليها إلّا مرّة أو اثنتين، كانت إحداهما يوم مجيء سعد يشاهدنا للمرّة الأولى.. فقرّرتْ مبروكة بأخلاق فارس نبيلٍ أن تنهزم لي، لكنّ هذه الفروسية لم تتكرّر بعدما ذاع صيتها السيجاوي.

تجمّع الأولاد حولنا متحمّسين متحفّزين، وجاءت بنتان فأفسح الأولادُ لهما مكانًا خلف مبروكة، ومبروكة لم تكنْ في حاجة لمن يؤازرها؛ بل أنا الذي كنتُ في حاجة إلى جيش يدافع عني ضدّ هجماتها، خاصة وأنها خارجةٌ من مرضها مفتوحةَ الشّهيةً للانتصار، وربما يكون هذا آخر مواسمها في أجواء الاختلاط بالأولاد، فقد تخطّت الآنسة القمحاوية عتبة الخامسة عشرة، وصارت مطمعًا للخطاب.

قلتُ في نفسي لعلّها أمام كثرة الجماهير وحضور بعض الآنسات اليوم تكرّر موقفها البطولي النبيل مرّة أخرى وتخطئ متعمّدة لتتركني أهزمها، أو على الأقلّ هزيمة كريمة، لكنها لم تفعل واستمرت في استنفارها العام تحيط بكلابي وتلقي بهم كلبًا وراءَ آخر دونَ رحمة، وأنا أقول في نفسي لو كانت مواجهتي مع شربات لكانت أكثر شفقة بي من هذه الحمقاء.

رنوتُ إلى مبروكة من تحت ستار جفني لعلّ الغبية تلحظ موقفي الشّائك، ولعلّها تفهم أنها تلاعبني أنا هاشم ابن خالها صديقها وخلّها الوحيد أمام جمهور عريض؛ فلا داعي لإحراجي بهذه الطريقة، لكن التّعيسة كانت مندمجةً للغاية في اللعبة كعادتها، ويغلبها تصوّر أنها تواجه كلّ الواقفين، بل تواجه أيضًا الآنسات الواقفات خلفها؛ فهي بالتّأكيد تعرف أنهنّ وإن أبدين تآلفًا وتحالفًا ظاهريًّا معها إلّا أن قلبهن معي ضدّها، فليس في الوجود أنثى تحبّ لأنثى أن تنتصر على ذكر.

ووسط فوضى الأفكار ونزيف دماء كلابي حضرت الجميلة «إستر»..

صحيح شعرتُ أنّ شيئًا يرقص في صدري، وأن راحةً هدهدت روحي كفرخ عادت إليه أمّه، ولا أدري السّبب! لكن أزمتي ازدادتْ عقدة وطينتي بلّة؛ فقد رجحتُ أنها آتية خلفي دون أن ألتفت، لا أدري كيف! ثمّ تيقّنت أنها هي عندما تركتْ مبروكة رقعةَ السّيجة، ورفعت بصرها لأوّل مرّة منذ بدء اللعبة فوق رأسي لتحدج متنمّرة في الضّيفة الجديدة تريد أن تخسف بها مكانها، فهي لا تزال خصمًا لها رغم محاولاتها التقرب منّي، بل ربما هذا سبب أدْعى لتأكيد الخصومة.

عادت مبروكة إلى رقعة السّيجة مُسْتجمعة كلّ تركيزها وقوّتها ضاغطة على ضروسها كاتمة بركان غيظها، وواصلت هجومَها فقد تضاعفت دوافع الفتْك بي.

بدأتْ شربات فوْر وصولها في تشْجيعي دون مواربة، مردّدة اسمي مباشرة وبتكرار متعمّد، كأنها تريد فضْحي وإعلام مبروكة بما لم أُعلمها إيّاه، وهو أنّ

ميثاقًا جديدًا كتب بيننا، لكن السيدة مبروكة لا تعرف تفاصيل المعاهدة، ولو علمت ستمزّق وثيقتها وتلقيها في وجهي.

صاحت مبروكة بعصبيّة مفتعلة:

- اصمتي.. لا تشوّشي علينا.

لم تجبْها شربات، وخيرًا فعلت، وأظنّها ابتسمت.. وظلّت تشجّعني إمعانًا في إغاظتها.

لم أملكْ في هذه الورطة إلّا أنْ أبلع لعابي، وقد ضاع نصف تركيزي بين زفير مبروكة الحارّ الذي بدأ يرتفع مؤشّره معلنًا عن فوْرة بركان وشيكة، وبين أنفاس شربات التي تتسرّب إلى منابت شعري ومنها إلى دماغي ومنه إلى أعصابي المتوتّرة ابتداء!

الموقف يزداد تحرجًا، وصرتُ بين معْركتين إحداهما نسويّة سريّة قد تظهر آثارها فيما بعد، والأخرى علنيّة تنقل فَضيحتي على الهواء مباشرة؛ فكلّما نقلت حجرًا يكون في تصوّري أنها لن تجد طريقة لتصل إليه بكلابها فأفاجأ بكلبيْها يحيطان كلبي.. آه يا كلبي.

أضغطُ أسناني، وأنتظر طويلًا قبل أن أحرّك حجرًا لعلّ تلك الحمقاء تشعر بوضعي الحرج، لكنّها ازدادت شراسة كما توقّعت.

همستْ لي شربات، وأنا أرى سبّابتها الناعمة من خلفي تشير لي:

- انقل هذا.

تجمّدت ثواني؛ فشفاهُها التي اقتربت لتوّها من أذني أربكتني؛ فأعطيتُ نفسي فرصةً لأستوعب هذه الدّفقة المخدّرة، والتي صارَ لها في جسدي نافذةٌ وفي قلبي نوافذ؛ فسحبتُ شهيقًا يثبت مفاصلي وأيضًا يدْعمني إذا ما قابلت مبروكة دعْم شربات لي بإعلان حربٍ على كلينا؛ فلا يجوز أن يكون الدّعم علنيًّا بهذه الطّريقة، فضلًا عن أن يكون الدّاعم شربات!

الحمدُ لله لم تلتفتْ مبروكة لإشارة شربات، وربما سمعتها لكنّها لا تأبه لأيّ دعمٍ فهي متمكّنة في لعبتها، وربما هناك نار تحت رماد صمتها.

بعد تردّد قليل، حركتُ الحجر كما أشارت شربات، فأُسقطَ في يدي مبروكة التي سحبت أصابعها للوراء دهشةً من هذا التّحريك الذي لم تتوقّعه منّي، وعليه انتبهتُ أنا الآخر أنّني حاصرت كلبين لها بهذه النقلة وعليها أن تضحّي بأحدهما، وانتبه الجمهورُ أيضًا لهذا التّغير الطفيف في ميزان القوى، وجثا سعدُ على ركبته ليتابع بلهفٍ التّطورات المحتملة بشأن المواجهة.. وصاح أنور:

- يا صلاة النبي!

ضحّت مبروكة بأحدِ الكلْبين ونقلت آخر، وألقيتْ بالفقيد بعيدًا تعبيرًا عن بداية توترها.

انكشفْ لي كلبٌ آخر من جنود مبروكة؛ فتعجّلت لآكله، لكن قبل أن أقبض عليه لأسلمه للمشنقة، أمسكت شربات يدي دون تكلّف:

- دعْ هذا.. حرك ذاك.

«يا وقعة مقنْدلة».. كهرباء حقيقيّة أحسستها، وسرتْ في بدني كانت أشدّ عليَّ من تلك التي شعرت بها عندما وضعت مسمارًا في تجويف مشغّل الكهرباء في أوّل عهدنا بها العام الماضي.. منحت نفسي قليلًا من الوقت وكثيرًا من الأكسجين لأنسى هذه اللمسة، أو قلْ هذا الزلزال.

الآن، انتبه الجميعُ أنّ شربات صارت شريكة علنيّة لي في اللعبة وليست مجرّد مشجّعة، ورجوت الله ألّا ينتَبهوا إلى دقّات قلبي المعلِن أنها تقتربُ من مرتبةٍ أخرى بالإضافة للشّراكة.. الغريب أنّ مبروكة تجاوزت عنّا هذه المرّة أيضًا، ولم ترفع رأسَها، ولم تعترض كأنّها لم تسمع شيئًا، وغالبًا هي لم ترَ لمستها ليدي.. أرجو ذلك.

نقلتُ الحجر الذي أشارت إليه شربات، وفهمتُ ذكاءَ النّقلة؛ فالآخر «ميّت على كلّ حال»، وأمّا هذا فصيْدٌ أوقع في شباكي حجريْن آخرين.. عدلت مبروكة ظهرها المحني على ساحة السيجة منذ بدئنا، وضغطت فكّها بفكّها، وقد تفاجأت بالأداء لكنّها إلى الآن لا تزال متماسكة فهي صاحبة الاستحواذ الأكبر بالإضافة إلى سمعتها القديمة.

اعتبرتْ شربات صمتَ مبروكة إذنًا لها بالمشاركة، فأرخت ركبتيها وجلست القرفصاء متأخّرة عني قليلًا مراعيةً ترْك مسافة بيننا لأنها تدركُ مدى خَجلي، وبدأت تنقل تعليماتها بشكلٍ رسمي وعلني من غرفة العمليات التي صنعتها لنا.

ضاعفَ قُرب جسدِها من جسدي ارتباكي وصَلب تركيزي على خشبة أنوثتها، لكن لم أكنْ محتاجًا إلى كبيرِ تركيز، فقد أخذتُ أنقل وأضعُ وأحاصر بحسبِ توجيهاتها.. حميَت المباراة واشتعلت المدرّجات، وعلتِ الهمْهمات من الجهتين تشجّع وتصفّق وتصفر مع النّقلات الماهرة الباهرة من الجهتين، وكأننا نقلنا شونة القشّ إلى هنا.

صارت المنافسةُ متساوية تمامًا بين الفريقين (هاشم- شربات) و(مبروكة)، ورغم مهارة مبروكة مقارنة بشربات، إلّا أنّ غضب مبروكة المكتوم، أثّر كثيرًا على أدائها المتفرّد في اللعبة.

بعدما حاصرتُ كلبيها الأخيرين بكلابي الثلاثة، أو بالأحْرى حاصرتْها شربات، انتفضت مبروكة الحليمة واقفة تدوس برجْلها السّيجة وتبعثر ترابها على الجميع صارخة:

- هذا ليس لعبًا.. أنتم كلاب!

لحظتها فقط، وأمام هياج مبروكة المفاجئ وسبابها، انتبهت أنّني أخطأت حينما تجاوبت مع شربات مستغلًّا حلم ابنة عمّتي، وكان عليَّ أنْ أقرأ مؤشّر غيظها من البداية؛ فهي بالتأكيد لا يعنيها أن يواجهها اثنان أو ثلاثة، لكنْ أن تنحاز لي أنثى أخرى ضدّها، وأقبل أنا الانحياز، وأن تكون هذه الأنثى هي شربات، كان خطأً أخلاقيًّا منّي.

- آسف.. لا تغضبي يا مبروكة.

انسحبتْ شربات إلى حقْلهم مسرعة، ليس هربًا من غضبة مبروكة، ولكنْ خوفًا من أخيها الذي ظهر بعيدًا عائدًا بالحمار الرقّاص بعد أن أوصل حمل الدّريس إلى العجول في الدار، وأنا حمدتُ الله على هذه النهاية شبه السلمية.

انتهى اليوم، وقد قرّرت أن أخفي صُلحي مع شربات كرامة لسيدتي مبروكة، أو أبقي حاجزًا بيني وبين صاحبة العيون الخضراء، خاصّة أنها سريعة التودّد لا تعرف تكلّفًا، والأمر قد يزيد من أسى مبروكة وأنا لستُ مستعدًّا أن أكون سببًا في حزْنها، ولأكتفي من شربات بأنس وجودها بجواري الذي صار يلازمني.

***

(٢٤)

ودّعنا الربيع والدّراسة بسلام، وفتحنا نوافذنا للصيف الجديد..

وأقسى ما في الصّيف أنه بألعابه وحَرّه وقيلولته ونهارِه الطويل وليله العليل، ثمّ العمل بالأجرة في غيطان الخلق، ثمّ عيون شربات يذكرونني بالحبيبة أمّي؛ حنانها وضربات مداسها.

وذكرى أمّي البعيدة تذكّرني بأبي القريب..

ما أحوجني الآن إلى أبي!

مع تداعي الذّكريات تتحرّك الدموع في عيوني، فأزمّ شفتي بإحكام لأسدّ عليها الأبواب وقد صرت شحطًا كبيرًا.. سامحَك الله يا أبي.. طالت غيبتُك، أوحشني حضنُك وبسمتك، لستُ قويًّا لهذه الدرجة، فإن كانت دوّامة العمل والدراسة والحياة القاسية نجحت في ترويض قلبي الثائر بعد فقدان أمّي، لكن أنت على قيْد الحياة ولا أطولك!

تصبّرت حتى آخرِ الأسبوع موعدِ قدوم شعبان وموعدِ إجازتي من عمل الغيطان مع أنور الذي يوافيني كلّ يوم بحقل جديد، وذهبت إليه أمامَ بيته، والذي هدمه وبناه بالطّوب الأبيض، وناديت بصوتٍ جَهُوري مستمتعًا بالحشرجة الرّجولية التي تؤكّد إبحاري في السادسة عشرة.

خرج «عيد» متنمّرًا كعادته معي متذكّرًا العلقة الأخيرة، وكرَتَه التي مزّقتها على رأسه:

– ماذا تريد أيها الكبش؟

ضغطت أضراسي وجهّزت ردًّا قبيحًا مناسبًا لهذا الوصف:

- أريدُ أن أ...

لكن اضطررتُ- على غير عادتي- أنْ أمسك لساني مع عيد، حتى لا أفسد مطلبي وتضيع حاجتي، وقد يكون ذاك الحِلم من حَسنات العمل مع صديقي أنور؛ فتجاهلتُ وجود عيد وناديت بصوتٍ أكثر قوة، ولكنْ هذه المرّة باسم بنت شعبان حتى أغيظ ذلك الولد، ولحاجةٍ أخرى في نفسي لم أكنْ أدري ما هي.

- يا أبا شربات.

أفلحَ ندائي في غرضيْه، وبالفعل خرجت شربات كأنني ناديتها، كنت أظنّ أني أستطيع أن أنسى أنسها العجيب، أو أنسى أغنياتها في الغيط، كنت أظنّ أني حرقتُ وثيقة السلام، خاصّة أنها صارت تختفي من الحقل أكثر مما تظهر.. لكن مع طلّتها أصابني ذلك الأنس والاسْترخاء والرعشة أيضًا، ووقفت هي لحظات تنظر إليَّ كعزيز عائدٍ من غربة، وأنا أناوب النّظر خجلًا بين عيْنيها وبين اللاشيء.. بلعتُ لعابي فأنا لا أحبّ أن أتورّط في هذه النّظرات التي تفسد عليَّ ولَهي بها، فالرّيبة تحيطني فتجعلني في عيني صغيرًا وأنا صاحبُ الهيبة الوقور.

- نادِ أباك يا شربات.

قلتُها بثقةِ مَن يعلم أنّ طلبه سيُلبى في الحال.

- حاضر.

حتّى (حاضر) لها موسيقى عندك يا بنت شعبان!

أسرعت للدّاخل غير ملتفتةٍ للصّنم الواقف، وبعد قليل خرج البدين شعبان أخيرًا بفانلّته الصوف الرمادية وسرواله المكرمِش ناعسًا عابسًا يحمل كرشَه أمامه كأحدب يمشي بالمعكوس.

– ماذا! ماذا تريد يا هاشم؟

– سآتي معك غدًا لأرى أبي.

رميتُ الجملة كأنها قرار، وانصرفتُ دون أن أسمع منه موافقة أو رفضًا، وفي الفجر كنت أصلي بجوار الجدّ عبد الباسط وعمر وأنور وعمّ صبحي، ثمّ خرجت وصعدتْ إلى صندوق سيارة شعبان الرابضة في الجرن، واتّكأت فيه مستندًا إلى بقجتي وغفوت قليلًا في انتظار خروج البك شعبان.

وصل أحدُ صبيان شعبان الذين يعملون معه والمكلّف بإيقاظه، وناداه ثمّ صعد إلى الفسحة (الفراندة)،كأنه صاحبُ بيتٍ وطرق طرقتين على الشّباك فأيقظه، ثمّ ألقى له شعبان المفاتيح وأمره بتحمية السّيارة.

رآني الشابّ الأسمر المهندم فمدّ يده يهزني بعنف:

– ماذا تفعل هنا يا ولد؟

– ولَد في عينك.. أنا ابن المعلّم عبد الحميد وذاهب إليه.

– انزل أيّها المشاغب، لن تأتي معنا.

– سآتي أيها الغبي.

انحنى الشّاب الوسيم الذي يبدو من جسدِه المفتول أنّه يكبرني، فأمسك بعصا حطبيّة وطوح بها في الهواء ظنًّا منه أنّني سأقفز جاريًا مرعوبًا، فانتصبتُ واقفًا مستعدًّا لاستقبال الضربة؛ فتوقّف لحظة كأنما هاله طولي وحجمي الذي لم يكن يتوقّعهما في رقْدتي وملامح وجهي؛ فبلعَ لعابه يرجّح بين استئناف المعركة وبين الانسحاب، لكنه اضطرّ أن يكمل ما بدأه:

- أقول لك انزل.

ثمّ ضرب مجددًا في الهواء يخيفني، فطاشتِ العصا وطالت ذيلَ جلبابي فخطفتها منه وكسرتها وألقيت أشلاءها في وجهه صائحًا:

- امشِ يا تيس، نادِ معلّمك كي نرحل.

خرجَ شعبان على صوْتنا، فأدرك أنّ هناك معركة وشيكة بين شابّين إن لم يتدخل؛ فآثر أن يفاوضني؛ فهو يعرف بعضًا من جنوني بالإضافة إلى المسّ الشيطاني الذي أخبرته إيّاه عمّتي:

- انزل يا هاشم، أبوك سيأتي قريبًا.

قلتُ بحزم:

- سأذهب إليه.

لمحت شربات بطرف عيني، وقد خرجت ثانية تتابع المشهد المثير والعرض الذي يوشك أن يكون داميًا بين فتيَيْن كليهما قويّ وأحدهما مهندَم وسيم؛ فزادني خروجها تحفّزًا وتوترًا خشية أن يُمسّ أمامها كبريائي.. ولحظت التفاتَ الشاب لها، ثمّ إشارته أن تدخل كأنّ له عليها سلطانًا، لكنّها ظلّت واقفة.

ركبَ شعبان السيارة، وأشار لصبيّه أن يصعد لينزلني بالقوّة، وبالفعل صعد الشاب الأكبر منّي حجماً لكنّني عاجلته بخيانة وهو يصعدُ فناولته في صدْره بقدمي فسقطَ على الأرض صارخًا وقد دوّى ارتطامه في المكان؛ فهبط شعبان مسرعًا ليحجز بيني وبينه خوفًا على سيارته.

لكنّ الشابّ أشعلته السّقطة أمام شربات التي وقفت تتابع بقلق، ربما عليَّ أو عليه؛ ضاعف وجود شربات قوتي اثنين حصان، وكذلك استنفرَ السّاقط الوسيم الذي كان قبل ثواني يأمرها بالدخول، فانتفض الشابّ والتقط قالبَ طوب أحمر واستعدّ لمعركة شرسة، وأمسكت أنا بحديدةٍ مُلقاة في السيارة وتجهّزت للدّفاع؛ فصاح شعبان فينا:

- كفى يا أولاد الـ..

ثمّ لصبيّه:

- اركبْ يا حودة..دعه ملقًى في الصندوق سأجعله يندم.

ألقى «حودة» القالبَ ودار حول السيارة وهو يرميني بنظرات متوعّدة، وينظر إلى الآنسة شربات، التي وقفت تناوب النظر بيننا، فرغم انتصاري الظاهري لكن بدا لي أنّ البيضاء تعاطفت مع ذلك الحودة الوسيم، وربما غنّت له كما غنت لي.

تحرّكت السّيارة في غير سلام، وشيّعتنا شربات- التي تعلّمت كثيرًا من التلفاز- بتحيّة مفاجئة بيدها المحبّبة إليَّ، وبسمة ودودةٌ لا أدري هل هي لي أمْ لأبيها أو ربما للجدع حودة.

***

(٢٥)

لَفَحني بردُ الصّباح مع ارتقائنا الطريق السريع، وأخذ الهواء يصفع قفاي وينفخ في أذني ويبعثر شعري الطّويل، ظننت أنّ الموكوس شعبان سيقدّر حجم مشقتي في الخارج وسيحسبُ حسابًا لأبي، وسيدعوني بعد مسافةٍ من الطريق كي أحتمي بالكابينة التي لي معها حكاية طويلة، لكنّ النذل لم يفعل إمعانًا في عقابي، وربما انتقامًا لابنه الذي مرّغت كرامته في الأرض قبل أسابيع أو لصبيّه حودة الذي أسقطته منذ قليل.

نمتُ على ظهري حتى أتفادى قليلًا من لفْح الهواء، ثمّ تكوّرت متفاديًا تسرّب البرد؛ فغفوت غفوةً طويلة زارني فيها صاحبُ العمامة الخضراء يشير إليَّ بكأسِ شراب أحمر كأنّه شربات، ثمّ ألقى ابتسامته في حجري وانصرف.

وصلنا ساعة الغداء، سبقتُ شعبان وصبيّه في الدخول إلى المكان شوقًا لأبي، رأيته جالسًا هادئًا يتناول طعامه وسط العمّال بجوار كومة القواديس، قبل أن أناديه؛ كان شعر بوجودي لا أدري كيف!

ألقى الحبيب لقمتَه، وقفز فرحًا يجري نحوي يضمّني ويربتُ على كتفي ويمسح شعري كأنني طفلٌ رغم أنني صرت أطاوله تقريبًا.

لو كنتُ أعلم أنّ مجيئي سيشرح صدرَه، وينعش بسمته على هذا النّحو لجئته ولو ماشيًا، وعليه لم أحكِ ما فعل شعبان وصبيّه، ولم يحكِ هو.. تسمّرت طويلًا أمام أبي أشبع من ملامحه التي أوحشتني وأقبّل يده السّليمة

والأخرى حبيسة الرّعشة؛ فلم تزلِ استجابة الدّعاء فيها معلّقة مؤجّلة، وهذا يقول عنه أبي الطيب لعلّه خير مخبّأ ككنز اليتيمين في الجدار.

في سلسلةِ أسئلة سريعة أثناء الطعام اطمأنّ على الجدّ وعمّتي ومبروكة وبركة ومدرستي والحال والغيط، وكلّ شيء بكلّ تفاصيله حتى خشيت أن يسألني عن شربات، وكنت سأجيبه.

أسرع في طعامه متعجّلاً الشبع، وجلسَ خارج دائرة الأكلة يراقبني بإعجاب؛ فقد اخضرّت أرض شاربي وتناثرتْ فسائل الشّعر الخضراء في وجْهي تنبئ عن فارس قادم بل وصل، واستطالَ عودي أكثر مما كان فصرتُ رجلًا كاملَ البنيان.. ثمّ جلسَ معي يكمل حديثَه الجائع للسّماع والكلام، وبعد أنْ أنهى الرجال فترةَ راحتهم واستعدّوا لنوبةِ ما بعد الظّهيرة، تذكّر أبي شيئًا مهمًّا أربكه؛ فانتحى بأحد الرجال، وقد بدا لي أنه المعلّم البنّاء، وهمس له بشيء عرفته بعد قليل.

قرّر أبي الصعودَ مع (المعلم) إلى أعلى البرج حيث مكان البنّا، وطلب مني متابعته من داخل البرج حتى أستمتع كالمرّة الفائتة، مع تمنياته ألّا يتشابه الختامان.

كنتُ أعرف أنه في الفترةِ الأخيرة كان يعمل مناولًا عاديًّا في الأسفل وليس «صنايعيًّا» كما كان؛ فتفاصيل العمل أسمعها من أحاديث عمّتي وخالة اعتماد.. لكنْ بدا لي أنّ أبي لم يكن يعرف أنني أعرفُ، أو أرادَ أن يسعدني بهذا الدّور المسرحي، ويؤكّد لي أنه بخير.. رأيت توتّره وقرأتُ القلق في عينيه وفي ابتسامته المتردّدة اتّجاهي، وفي يده التي زادت رعشتُها؛ فغضضتُ بصري عنه

ودعوت الله أن يلطف به وبي.. وأن.. ثمّ سكتُّ عن الدّعاء، فإن كان الله لم يستجبْ لأبي وهو المؤمن العابد العارف بالخضر والأقدار، فهل يستجيب لمثلي؟!

رقِيَ المعلّم الجديد إلى نهاية ما بنوا من البرج بسرعة متسلقًا الخشبات التي تعترض بطنَ البرج ومعتمدًا على فتحات الغيَّات، لكنّ أبي- المعلّم الجديد القديم- تأخّر عنه قليلاً وهو يتنقّل ببطء.

ثمّ تدخّل المعلّم الطيّب يحبك الدّور التمثيلي من ناحية، ومن ناحية يفتح بابًا أمام أبي للاعتذار عن تلك المهمّة الشاقّة:

- أنت مجْهَد يا عمّ عبد الحميد اليوم.. استرحْ وأنا أقوم بأعمالك.

لم يجدْ أبي أنفاسًا ليردّ بها عليه، لكنّه استأنف الصّعود حتى وصل إلى أعلى البرج بجوار المعلم.. وفجأة صاح ولدٌ من الخارج ليهدم كلّ الدّراما التي ألفها أبي بجُملة واحدة وصيحة ساخرة:

- يا أولاد.. انظروا.. عمّ عبد الحميد صعد البرج!

كان صعودُه بالنسبة لهم أمرًا غير متوقّع بحسب ما علموه في الفترة التي قضاها معهم؛ فهو بحسب معلوماتهم لا يصعدُ ولا يستطيع العملَ إن صعد، خاصّة أنّه صاحب عاهة أو شبه عاهة!

كتمَ أبي أنفاسه وتوقّع أنّني لم أسمع، لكنّني سمعت وأُلهمت قرارًا مفاجئًا، لم أكن أتوقّعه من نفسي ولم يكن يتوقّعه أبي منّي (وما فعلته عن أمري)، فخلعتُ جلبابي وألقيتُه خارج البرج وقفزتُ في معجنة الطين بهمّة.

التفتَ حودة، وكان هو نفسُه الشابّ المكلّف بمناولة المعلّم كراتِ الطّين، مندهشًا من مزاحمتي إياه بهذه الطّريقة، وربما تعجّب من خوضي المعْجنة كأني حِرْفي قديم.. لم ألتفتْ لنظرات حودة اللاعنةَ تطفّلي، وانحنيتُ وكوّرت قطعةً من الطّين بحسب ما أسْعَفتني الذّاكرة، وأخذت شهيقًا مناسبًا وصحتُ أذكر أبي بصيحتِه القديمة:

- ابعت.

كانت المسافةُ بين ذراعي وذراع أبي أمتارًا قليلة، لكنّها كانت في صدري مئات الكيلومترات.. تُرى هل سيتكرّر السّيناريو السابق منذ أعوام فترتدّ قطعة الطين ثانيةً على وجهي، ويضحك العمّال خارج البرج وداخله، ويجدها حودة فرصةً فيردّ لي الركلة؟ أم ترى أنها تصل فذراعي اليوم قوية بسبب أعمال الغيطان لكنّ أبي سيحاول إمساكها بيدِه المرتعشة فتنفلتُ رغمًا عنه فيسخر العمّال خارج البرج وداخله؟ أم ترى أبي سيجازف ويتقمّص دوره التّمثيلي أكثر فيسقط كما سقط قبل ذلك؟

ذبحت كلّ الاحتمالات على منصّة حماسي العجيب، ولم يبقَ سوى احتمالٍ واحد أنّ أبي سيلتقط الكرة بلياقةٍ كما كان من قبل.. انتقلَ الحماس من قلبي إلى قلب أبي كتيار كهربائي مثل ذاك الذي تركته شربات في صدْري، وأنجبت همّتي همّته، ولأوّل مرّة أشعر أنّ أنفاس الخضر حضرتْ في المكان، وأشعرُ أنه هو نفسه العجوز الباسم صاحب العمامة الخضراء.

ثبّت أبي قدميه على العرق واثقًا متّزنًا في الهواء، خطف كرةَ الطّين بقوة واستدار بلياقة عالية.. لا تزال الرّعشة في يده لكنّه يتحكّم في توجيه يده كما

يريد، أيقنت أنّ الجميع في الخارج حوّلوا نظرهم نحو أبي فاغرين أفواهَهم فهُم لم يروه في هذا المكان مِن قبل، وتوقّف حودة عن العمل يتابع التّوابع، ويقرأ القصة التي لم يكن يعلم عنها شيئًا.

انتفضَ قلبي يدْعمني ويقوّي ساعدي مقرّرًا الاستمرار، فأردت أن ألحقَ النجاح بنجاح فطأطأتُ وكَوّرت، وأرسلت له الثانية فالثالثة فالرابعة، وأبي يتحرّك كالبهلوان من جديد، والمعلّم يشاهد دهشًا، ثمّ صاح أبي يستقوي بصوتِه على رعشة جسده، وقد عاد أعوامًا إلى الوراء:

- ابعااااات.

فوجئتُ بحودة يتدخّل ليناوب معي رميَ كراتِ الطّين تخفيفًا عني وقد أدرك قلّة خبرتي وأدرك معها قصّتنا؛ فتجاوز النّبيل عمّا كان بيننا وأبقى على حماسي مشتعلًا.

استمررنا على هذا ساعات.. كانت مباراة ممتعة.. تخيّلت في البداية أنّ الخضر قد يفاجئنا ويلعب ضدّنا، لكنّي اكتشفت أنّه كان يدعم أبي الذي ظلّ يصيح صيحته مُبتهجًا ناظرًا إلى السّماء شاكرًا تمرير الدعاء.

انقلبَ الحال بعد زيارتي، أو نقول انْعدل الحال؛ فذلك التّغير الاستراتيجي وضع أبي في مقامه القديم من جديد؛ فكان يكفي الجميع أن يروْه مرّةً واحدة يقوم بدور المعلّم ليوقنوا أنّه معلّم، وصاحب هذا التغير في الرّتبة تغيّر في العمل ومكانِ العمل وعائدِ العمل، وقبل كلّ ذلك زوال الرّعشة إلى غير رجعة، وبُعث أبي من جديدٍ وأنا معه.

هكذا والله بسهولة..

سبحانَ مغيّر الأحوال! إنها أحوالُ الخضر المدْهِشات، الذي سبق وأهدر كلّ تسديداتي القوية يوم المباراة ولم يُسكن في المرمى إلّا ضربةً غير مقصودة، لكن ربّما- لولا التسديدات التي فشلت- ما نجحت الضربة الفاشلة.

قضيتُ شهور أجازتي الصيفيّة تحت جناح أبي.. تحوّلت خلالها صبيًّا محترفًا في أعمال الأبراج وساعدني في ذلك حودة الذي صار صديقًا مقرّبًا.. وأحطتُ بما لم يحطْ به «عيد» خُبرًا، وصارت جلّ النظريات الخاصّة بالأبراج وبنائها ومكوّناتها راسخة في ذهني كأعمال الحقل التي كان لها فضل في تربية ساعدي لهذه اللّحظة.

وما استنكرته من نفسي بعدَ هذه المفاجأة الكبيرة، أني- لأوّل مرّة- لا أتلقى عطايا الخضر بتغيّر مباشر في حالتي النّفسية توازي مفاجأته السّعيدة التي تنقلنا من الضّيق للسّعة مثْلما حدث يوم المباراة ويومَ التلفاز ويومَ روضة؛ فهذه المرّة خنقتُ فرحتي بحبْل التوجّس في الآتي؛ فرغم تلك الفتوحات ظلّ قلبي منغّصًا بحالة سخطٍ متشبثًا بالصّعود المتّصل فقد استقرّ في قناعتي أنّنا لا بدّ أن نستغلّ الفرصة، ونؤمن سفينتنا ضدّ الملك الغاصب وضدّ الخضر نفسه، ونعيد بناء جدارنا المنقضّ بأيدينا؛ فنحفظُ كنزنا بأنفسنا، فالفرصة قد واتتنا ولا نعلم متى ستتكرّر.

ولا نعلم هل يظلّ الخضر وفيًّا لنا، أم أنّ حاله قد يتغيّر علينا، ويذبح غلام أحلامنا.

***

(٢٦)

بدأ العامُ الدّراسي الجديد والأخير لي في الإعدادية التي تأخّرت عنها عامًا، وأنا في حالة انتشاء متردّد، سعيد لكنّني حذر، يغزوني طمعٌ في درجةٍ أعلى من تلك بدرجات؛ فنحن لم نصلْ بعدُ إلى حالة عمر بن فؤاد أو حتى عيد بن شعبان؛ رغم أنّنا نستحق أكثر من ذلك بكثير.

أبدأ اليومَ بالتّفتيش عن شربات في طابور البنات، فهي قد غادرت هذا العام صفوف الابتدائية، ثمّ إذا صادفت عيني عينَها هربت سريعًا قبل أنْ ترانا مبروكة؛ فأنا لا أزالُ محترمًا للوثيقة التي وقعتها مع نفسي منذ موقعة السيجة.

اليوم، لم أرَ شربات في الطابور، أعدتُ التّفتيش بترتيبِ الصفوف، فربما أخطأت الغبية وانحشرت في صفوف الصّف الثاني أو الثالث، ثمّ تذكّرت أنّ أخاها التّعيس داسه أحدُ عجولهم المجنونة بالأمس؛ ففرك أصبعَ رجله، وكاد يبتره، وليْته فعل.

في الفصل تلفحني نسمةُ العصاري؛ فأركب أجنحةَ الخيال منطلقًا إلى جزيرتي الخضراء بلونِ عيون شربات.. أصنع كهفي الخشبيّ فوق الأشجار وأواجه الأخْطار وأنقذُ مبروكة من الأشرار، ثمّ أفاجأ بشربات في أقْصى الجزيرة صارخةً تستغيث وقد حاصرها دبّ بنيّ مخيف يستعدّ لغرس أنيابه المدبّبة في القدّ الجميل.

أسدلت ستارَ خيالي بشكلٍ مفاجئ عندما رأيتها على الحقيقة من نافذة الفصل تسير هناك متّجهة ناحيةً بوّابة المدرسة ترتدي زيّها المدرسي، وتسحبُ أتاننا وقد ركبَ عليها أخوها المصاب.. تأكّدت أولًا أنّ مبروكة التي صارتْ معي في الفصل نفسه مشغولة بالنّميمة مع جارتها في التّختة الأخيرة، ثمّ تابعت مراقبة شربات حتى دخلتِ المدرسة فسلّمت أخاها الكسيح، ثمّ خرجت تبحث عن مربط للأتان.

وأنا أتساءل دهشًا كيف لهذه البديعة أن تكون أختًا لهذا السّفيه وابنةً للوغد شعبان! سبحان الله إنها معكوسات الدّنيا وأعاجيبها.. ثمّ طرتُ مجددًا إلى الجزيرة لأتّم عملية الإنقاذ للآنسة التي تركتها بين أنياب الدبّ منذ قليل.

دار الأستاذ ووقف عندي:

- هاشم بالتّأكيد يعرف الإجابة.

التفتَ الطلّاب الذين يعرفون هاشم النابغة منذ الأعوام الماضية، ولكنّ حاله هذه الأيام لا يبدو على ما يُرام، فلا يزال على شروده وتجهّمه رغم أنه يحمل في يده ساعة «كاسيو» وقد ارتدى هذا العام أفخم القمصان.. اعتذرت للمدرس عن عدم انتباهي.

واضطرّ الأستاذ أن يشير لي بعصاه كي أفتحَ يدي، فهو لا يريدُ أن يبدو أمام التلاميذ كائلًا بمكيالين.. وانتبه جميعُ مَن في الفصل ليروا ذاكَ المغرور وهو يُهان، فتحتُ يدي مستعدًّا للضربات.

فجأة..

فعلَها صاحبُ البركات والمعجزات والمصائب والنّفحات.. ارتجّت الدّكك تحتنا وتساقطت الأقلام، وقفز الأستاذ الوقور من الفصل خارجًا وهو يصرخ:

– القيامة قامت..

تحوّلت المدرسة إلى سيلٍ بشريّ لا يُدرى له مجرى ولا اتجاه، فقد انطلق الأولاد، وأنا ومبروكة أولهم، إلى الطّرقات نتسابق نحو الدّرج وندفع بعضنا ويدوس بعضنا بعضًا، كي نهرب من توابع القيامة.

ما أغلى الحياة!

في لحظاتٍ، صارَ أقصى حُلمي أنْ أصل إلى بيتي سليمًا ولا مانع حينها من أنْ ألقي نفسي تحت أقدام عيد بن شعبان، بدلًا مِن ألقيها هنا تحتَ التلاميذ وتتوه جثتي بين الرّكام.

كأنّ صوتًا يهزّني في تلك الثّواني، ماذا ينقصك أيّها الأحمق السّاخط لتكون أسعدَ الناس! أرضك وبيتك ومقعد أبيك وعمر سميرك وجدك بجوارك ومبروكة سعيدة، ومُنحت فوق الصّفقة شربات!

بعضُ التّلاميذ الضّعاف ديسوا تحت أقدام الأقوياء، وأنا أفسحت لنفسي ولمبروكة التي سبقتني بمهارة عجيبة طريقًا بقوّة العضلات.. سقط جزءٌ منْ سور المدْرسة في الحوش فارتطمَ محدثًا دويًّا زاد من رعبنا خاصّة أنه أصاب أحدَ المدرّسين أو الفراشين المارين في الحوش.

وقبلَ أن أستديرَ عند نهاية الممرّ الطويل أمام الفصول لأنعطفَ ناحية الدرج سمعت صوت (عيد) يستغيثُ وقد وقفَ مسندًا ظهره إلى الجدار يقف على قدم واحدة، وهو يبكي حاله الميؤوس منه، وأنه بعد لحظات قد يسقط وسَيُداس بالنعال.

لم أفكّر طويلًا، بل لم أفكّر أصلًا، وواصلت طريقَ الهروب كأني لم أره.. يا روح ما بعدك روح.. ويكفي أنّ مبروكة قد أفلتت وسبقتني إلى الحوش، والبنت شربات لم تدخل المدرسة أصلًا.

بعدَ درجات، توقّفت رغمًا عني كأنّ شيئًا خفيًّا لكَمَني في صدري.. لا أدري حقيقة هو أم خيالًا.. ثمّ تداعى أمامي مشهدٌ قديم أليم جعلني أعدّل خطّ سيري وأعودُ مسرعًا حيث يقف عيد مواجهًا سيل الزّحام.. وصلته فاعتنقته، وكدتُ أعتذرُ له أني فكّرت أن أتركه، فأعطيته كتفي يتحاملُ عليها ومشينا نصارعُ الزّحام الذي خفّ بالفعل بعد الهروب الجماعي.

الزّلزال حلّ ضيفًا كريمًا خفيفًا لمدّة نصف دقيقة، أو أكثر قليلًا ما يعني أنّه رحلَ حتى قبل وصولنا للدرجِ، لكنّ توابعه فينا جعلتْه متّصلًا.. رأيت صبيًّا يقفزُ من الدّور الثاني فسقطَ في فناء المدرسة على بطنه فظننتُ يقينًا أنّه مات، ثمّ رأيته ينهضُ ويجري مسرعًا على عرْجَته، فساقُه بالتأكيد قد كُسِرت، لكنّها الحياة نحبّها فقط عندما يظهر الموتُ أنيابَه، ورأيت مُصابًا إثر سَقوطِ الحجارة يحمله الفرّاشون، وأحد المدرسين بعيدًا إلى زاوية الحوش.

ضحكَ عيد في هيستيريا كأنّ جنونًا مسّه عندما وضعنا أقدامَنا عند البوابة، وقد تأكّدت نجاتنا، ثمّ التفت إليَّ يقبّلني في امتنان، ويحتضن أخته شربات

الواقفة بجوار الأتان، ووقفت مبروكة العفيّة التي لم يؤثر فيها الزلزالُ تنظر إليه ساخرةً من حاله الطفولي.

تركتْ شربات الخطام، واقتربت تساعدني لرفع أخيها إلى ظهر الأتان.

أشرتُ إلى مبروكة، التي وقفت متردّدة في مساعدةِ هؤلاء الأعداء، لتمسك بالخطام وتعدل موقع الأتان مراعاةً للظّرف الاستثنائي الذي هزّ البلد كلّها ولم يهزّها؛ فتقدّمت متثاقلة وأمسكت باللجام.

خرجنا مسرعين مبتعدين عن مباني عزبة إسكندر؛ فإنْ عاود الزلزال نكون في الأمان وسط الحقول والأشجار التي لا تسقط بفعل الزلزال.

في مشهدٍ لم يدُرْ في خيالي المريض أبدًا، مشيتُ أنا فتوّة الجدعان ومرعب الفتيان ونجيب الفصل و«لُبلُب» الإنجليزية ساحبًا الأتان بـ«عيد بن شعبان» أمام جميع الصبيان، بل الغريب أني لم أجد أيّ غضاضةٍ في نفسي تجاه ذلك، بل تطوّر الأمر إلى ابتساماتٍ متبادلة وتهنئة بالنّجاة.. وتأخّرت شربات ومبروكة عنّا، ولأوّل مرّة فتحتا حديثًا معًا منذ يوم الغطاء الصّفيح والندبة، وأنا أستمع لشربات تقدّم الاعتذارات.

وهكذا تسبّب الزلزال في صنع سلام، ربّما يدوم أو يكونُ مؤقتًا، وفي كسْر ارتيابي وسخطي غير المبرر على الأيام.

قابلتْنا عمّتي في الطريق وسطَ طوفانِ الأهالي الذي انفجر على السّكك، وقد أتوا يطمئنون على أولادهم.

ووسطَ تحميدات وتبريكات وحوقلات، وقبل أن ندخل العزبة من ناحية «ترعة همس» فوجئنا بِدويٍّ رهيبٍ كأنه صوتُ انفجار آتٍ من عزبتنا، ثمّ رأينا سحابةَ عفار كأنها دخان بركانٍ تملأ الأجواء صاعدة من الأسفل إلى الأعلى كأنّ الأرض ستمطر على السماء.. ما يعني أنّ دارًا أو دورًا بركت على أهلها الآن جرّاء توابع الزلزال.

أصابتني رعشةٌ في البداية.. ثمّ تطامنتْ، فعَلَى من أخاف؟ فأبي ليس في العزبة، ومعي الآن مبروكة وشربات، ثمّ تذكّرت الصّغير بركة فالتفتّ إلى مبروكة وقفزنا مسْرعين مع المهرولين من الرجال والنساء ناحية العزبة، وهُم يهَمْهمون:

- الْطُف يا لطيف.

وصلْنا العزبة، وقبل أنْ أرمي ببصري إلى دارنا، أدركت أنّ قصر الحاج فؤاد هو مصدرُ العفار.. هدأ روعي وحمدتُ الله وتمتمت بالدّعاء؛ فأخيرًا الخضر يتصرّف على نحوٍ رشيد، ثمّ ذعرت عندما تمتَمت مبروكة بجواري باسْم ثالثنا في الأفراح:

- عمر!

أسرعَ قلبي لاهثًا وراء دقّاته، كلّا بل تعطّل محرّكه، كلّا بل غادر مكانَه من اليسار إلى اليمين، وربما تزحلق إلى ركْبتي فأصابتني هزّة.. فقد شعرتُ لحظتها أنّ الخضر جهّز لي جزاءً وفاقًا لحالتي قبل الزلزال؛ فأنا أعترف أنّي رغم النّعمة التي تدفّق شلالها على رأسي لم يكن رضاي بها على قدر العطاء، التفتّ لها ألتقطُ أنفاسي وأقول بعيني: ماذا تقصدين أيّتها الحمقاء؟ تريدين

أن تقولي إنّه تحت الركام؟ وهل تركنا الزلزال جميعنا وعندما أرادَ أن يهدم القصر الحرام هدمَه فوق عمر؟ يستحيل.. أيّ ظلم هذا!.. يستحيل.. وقبل أن تخور ركبتي التي لم تعدْ قادرةً على تحمّل الخاطرة، رأيته يمرّ بجواري مسرعًا وقد ألقى بحقيبة مدرسته ناحيتي، واقتربَ من الركام يدفع الناس يسأل عن أبيه والكلب.

عرفنا بعد ذلك أنّ أحدًا لم يصبْ بسوء إلّا الكلب النبيل والعجلة الفاخرة فقد قضيا نحبهما تحت الركام.. ونجا عمر ونجا فؤاد ونجا الكمان، ونجونا جميعًا في كلّ الناحية إلّا واحدًا.

أخبرنا عمّ مستكاوي وهو يحلق لرجال العزبة، وأطفالها وسط جرْننا بعد يومين من الزلزال أنّ الأستاذ صابر أصيب بشلل في قدميه إثرَ إصابته بحجارة ارتدّت إلى قفاه يوم الزلزال.. ولم أكنْ أعلم حتى ذاك الوقت أنه هو الذي أصيب في حوش المدرسة.

تأخّرت قليلًا عن مجْلس المحلّقين وانزويت كأنّني أواسي روضة بتواصلٍ وهْميّ المشاعر محاولًا أن أتذكّر جملتها التي قالتها إثرَ إحراجي لها بسؤالي الغبي عمّا أخذه منها الخضر.. لكنني لم أذكر إجابتها أو ربما تعمّدت ألّا أذكرها.

***

الزّلزال زلزلني، أقرّ نفسي وصوّب مسيرتها، وأعاد ترتيب أوراقها؛ فكما كان ظهور شربات ضوءًا أخضر بعث في مراهقتي الحياة، وكما كان ظهور

روضة ومضة تقول انتباه، كان الزلزال ضوءًا أحمر لشيء ما فهمته حينها لكنْ لا أستطيع تفسيره بالكلمات.

في اليوم التالي، قطعت شرودي شربات وأمّها خالة اعتماد اللتان دخلتا دارنا فجأة وأنا جالس على بسْطة السلّم الطّيني، وقد علمت خالة اعتماد بما فعلته مع «عيد» (وما فعلته عن أمري)؛ فجاءت تبدي امتنانها لنبلي وكريم أخلاقي، ثمّ دنت تسحبُ رأسي تريد أن تقبّله، فتراجعت للوراء مستغفرًا على طريقة أبي:

- لم أفعل إلّا الواجب يا خالة اعتماد.

وقبل أن تكمل قصيدةَ مدْحها في المنقذ البَطل، وجدت نفسي أصارحها:

- الحقّ يا خالة، أنا لم أفعل ذلك نبلًا منّي.. بل لم أكنْ أنوي إنقاذ ولدك أصلًا.

تركتْ عمّتي صينية الأرز التي تنقّيها ورمقتني من موْقعها، وانتبهت شربات لكلامي الغريب ولتعجّلي في نفي هذا الشرف عني، فأنا بفعلتي كدتُ أنافس السيد «باتشان».

واستطردتُ وأنا أشير إلى يدها اليُمنى:

- ما فعلتُه كان ردًّا للجميل.. كان من أجل هذه.

ثمّ مددتُ يدي فأخذت راحتها وعدلتها والسّيدة مندهشة، وشربات تتابع وعمّتي قد دنت، ثمّ أريتها تجاعيدَ في كفّها من أثر حريق قديم.

- تذكّرتك وأنت تحاولين حجزَ اللّهب عن صدر أمّي.. تذكّرت لسعة النار التي تحملتيها نيابة عنها، لهذا رجعت لولدك.

لم تستطعْ خالة اعتماد حجز دمعها أمام عبْرتي ودمعي الذي تساور على جفني مستعدًّا للهبوط؛ فجلست السّيدة على درج السلّم تجهشُ بالبكاء، ثمّ ضمّتني إلى صدرها، وهنا لم أتمالك نفسي ودخلت معها في نوْبتها، ولم تتحمّل شربات الموقف؛ فقفزت هاربة من المكان.

***

(٢٧)

زرتُ الأستاذ صابر مع أنور، وأنفار الشفيعي الأوفياء، وتلاميذ آخرين من المدرسة أخذتهم معي إلى هناك.. أبدَى سعادة كبيرة بنا، وأجلسنا بجواره عصريّة مطوّلة، وهو ممدّد أمامنا على أريكته، يتحفنا فيه بنصحِه وجميلِ تقبّله لوضعه الجديد، وأتْحفتنا روضة كعادتها بطعامِها الشهي ككلامها وبعروض الحلويات، وكأنّهم يتوقّعون أنّ الشّلل الذي أصاب الناظر جاء كدور زكام، وسيمرّ.

عدتُ ثانية للعمل مع أبي مستغلًّا البيات المدرسي فيما بعد الزلزال.. مواصلًا حالة الانتعاش الراضي بدفْقات النّعيم المتتالية على مهلٍ تسقي روحي العطشى، وتروي أرضي الشّراقي وتبل فيَّ ريق الحياة.

أعود في نهاية كلّ أسبوع في سيارة شعبان وصبيّه «حودة» النبيل، والذي لم يعدْ يثير حفيظتي اتّجاهه إلّا هندامه المبالَغ فيه وتفوّقه في الوسامة عليَّ رغم أنّه أسمر مثلي، ورغم أنّ شعري أكثر نعومة من شعره، بالإضافة إلى ما أراه من اهتمام واضح منه بالآنسة شربات وقربه الشديد من المعلم شعبان، ما يجعله تهديدًا مؤكّدًا لأملي المحتمَل الذي بدأ يراودُ خيالاتي في جلسات الخيال.. لكنْ ما بالي أعكّر واقعي بعفار الاحْتمالات! دعْها لله وما قُدر سيكون.

معَ تتابع الأيّام والشّهور، واقتراب عيد الأضحى، قرّر أبي النزول، وفي هذه المرّة طلب من شعبان أن نعْرُجَ على «المحلّة» لنشتري ملابس العيد

لأوّل مرّة جاهزة، وليست مُحاكة عند عمّ غالي، وليشتري لي هدية نجاحي ومروري من الإعدادية إلى الثانوية العامة سابقًا السيد عيد الذي اختار أن يلحق بمعهد المناديب، ولاحقًا بالمجتهد عمر الذي يختم هذا العام ثانويّته.

أضواءُ العيد وأجواؤه تملأ الشوارع وواجهات المحلات ووجوه السائرين والسائرات، وصوت أم كلثوم يشقّ تعرّجات الشوارع ليأتيني من كلّ مدخل وناصية ليوقظ فرحًا قديمًا وجرحًا أليمًا.

كانت عادتي مع أعياد ما بعد أمّي أنْ أهرب منها كأنها لم تأتِ فألوي عنق الزمان وأقفز على ذلك اليوم كأنّني أصمّ أعمى، وأتفادى سماعَ التّحيات والنظرات المشْفقات بالمكوث مع الجدّ عبد الباسط في كوخه طوالَ النهار أو خلف البقرة والعنزات!

لكنّ زحمة الناس الليلة وقفزاتِ الأطفال وإغراءَ الملابس والأضواءَ المبهرات ألقتني رغمًا عني في بحرِ فرحتي القديمة.. لكنْ أيّ فرحة وأمّي ليست هنا!

أبي ينظر إليَّ مع كلّ خطوة أمشيها، ولفتَةِ ألتفتُها يفتش عن السعادة في عيني، وأنا أيضًا أرقب عينه فكلّما نظر إليَّ وجدني متباسمًا متداهشًا من سحر الفاترينات.

ناداني وهو يشير إلى فستان مبروكة:

- ما رأيك يا هاشم؟

هززتُ رأسي مُعجبًا، فسيجعل مبروكة تشبه الممثّلات الفاتنات، خاصّة أنها كبرت وراهقت واستدارت! فما بالك لو ارتدتْ مثل هذا الفستان!

وبادرَ التّعيس شعبان ليشتري مثله لابنَتَيه، فقفزتْ فجأة أمام عيني، ودونَ داعٍ، الجميلة شربات، واشتعل رأسي وفارَ دمي عندما رأيت حودة يجسّ قماشة الفستان فخيَّل إليَّ خيالي المريض أنه يتحسّس صاحبة الفستان فضغطتُ ضرسي وبلعتُ غيرتي غير المبرّرة وتشاغلت بالزينات.

عندما أشار أبي إلى جلبابي المقترَح تحرّكت فرحًا أريه سعادتي، واخترت أنا بنفسي جبة وقفطانًا للصغير بركة يليقان بمشيخته المتوقّعة وبمدرسته الأزهرية التي سيدخلها بعد عام.

***

دخلْنا الدار، فوجدتُ مبروكة متلبّسة بقياس فستان ضاغطٍ على جسدها بنصف ذراع، اشتراه لها سليم شقيق زوج أختها الكبرى من إيتاي البارود، والذي جاءنا في زيارة مع أخيه فتيحة وزوجته ابنة عمّتي الكبرى، نظرت إلى مبروكة معْجبًا في البداية؛ فلأوّل مرّة أنتبه أنها ليست أختي، جسدها النحيل شبه الجميل بدا جميلًا وسمرتها تحوّلت لجمال مثير، والنّدبة لم تعدْ على قبحها القديم، تُرى هل هي أجمل أم شربات!

احْتضنتني عمّتي فأفاقتني، فصحتُ في مبروكة قبل أن ألقي تحيةً عليها، أو على الضيوف، أمارس دور الرّجل الثاني في الدّار فقد صرتُ ابن السابعة عشر، ومن حقّي الدستوري أن أملي بعض الأوامر:

– اخلعي هذا الفستان يا قليلة الحياء.

- لن أفعل.

- قلت اخلعيه.

فضّ أبي الاشتباك سريعًا وسلّم على الضيوف، وأخرج الفستانَ الجديد ليؤكّد إنهاء النزاع؛ فقفزت مبروكة نحو أبي تقبّله، وأخذت الفستان لتقيسه وهي تخرجُ لي لسانها، ولكن قبل أن تدخل إلى حجرتها طرقتْ شربات بابَ الرّدهة، ودلفت سعيدة تعرض فستانها لصديقتها الجديدة، العدو سابقًا.

استدرتُ أنظر من باب الحجرة تجاهها، تسمّرت أمامها فقد جاءت الساحرة مرتدية الفستان الجديد لتجيب عمليًّا على السّؤال الذي سألته منذ قليل، ولتجرّني جرًّا إلى خواطري السيئة؛ فهي- والحقّ يقال-أبهى كثيرًا من مبروكة، بل من كلّ فتيات العزبة؛ فقد صارت نسخة طبْق الأصل من المذكورة حبيبة رأفت الهجان وشهر زاد أمام «يوسف شعبان».

استيقظَ قلبي تجاه هذه الفاتنة؛ فشعوري اتّجاهها لم يعد مجرّد عاطفة محتملة، بل صار جنينًا تغذيه الأيام ويزيد انتعاشه مع كلّ طلّة لها واقتراب، لا سيّما بعد أن رمتني بسهمها الأخضر علنًا أمام مبروكة، وقالت تحييني وقد كساها حياءٌ جديد، ربما لتقدّم سنّها ودخولها عالم العرائس، وربما اصطناعًا يزيد الجمال جمالًا:

- كلّ سنة وأنت طيب يا هاشم.

وكما استيقظتْ مشاعري استيقظ الشيخ بركة من نومِه يصفّق سعيدًا بعودتنا احتضنه أبي وأعطاه زيّه الأزْهري، وفي فاصلٍ ذهْني مفاجئ شردتُ

عن فتنةِ شربات التي تسرّبت خلف مبروكة إلى حجرتها، إلى فتنة بركة السّعيد أفكّر متحيّرًا من أين تأتيه السّعادة، وكيف يجد الفرحُ مدخلًا لقلبه، وقد سُدت عليه كلّ كوات النور ومنافذ الحياة؛ فحتّى جلباب المشايخ الجديد الذي طار به فرحًا لا يعرف عنه إلّا رائحته!

في وقتٍ لاحق سأسأل عن هذا الأمر أبي أو الجدّ عبد الباسط.

أدارَ أبي المذْياع الصغير، الذي اشتراه حديثًا، على أغاني العيد ليدخل البهجة علينا حتى يحين موعد شراء التّلفاز من جديد، وقد اقترب.

ارتجّ قلبي عندما مسّته النسمات القديمة من نفس المكان القديم، أبي بجانبنا معافى، وعمّتي لاهية مع ضيوفها يحدّثونها في سرٍّ ما، ومبروكة في تلك الزّاوية تقيس فستانها وتتحدى شربات، وصوت بركة يتسلل في جنباتِ الدّار ليتمّم الكورال الذي يصنعه أطفالُ البيوت، وها هو الطّست الألومنيوم مستندًا إلى الجدار، لكن..

أين أمّي؟

أمّي غائبة..

بل ميتة لن تعود.

لم أستطعْ حجز دموعي أكثر؛ فدخلت في نوبة بكاء صامت.. سرعان ما انفلت منّي زمامه فأصدرت نحيبًا، ثمّ اضطررت أنْ أقفز هاربًا من المكان، لأواري سوأتي بتوتِ الظّلام؛ فعندنا بكاء الكبار أمثالي يخصم مِن رصيد رجولتهم بحسب ما قرّره السادة الأجلاف.

تسلّلت إلى الحظيرة مكاني المفضّل؛ حيث كنت أهربُ منها وأشاكسها، ولو كنت أعلم أنها ستغادر حياتي مبكرًا ما ضيعت تلك اللحظات العابثة بعيدًا عن حضنها.

جلستُ أتحسّس بطنَ البقرة، وأحسد جنينَها على ما فيه من نعمة، إنّه في مكان دافئ وملاذ آمن، إنّه حازَ الدّنيا وما فيها، ما أفدح خسارة الأم!

برقَ فستان مبروكة في الظلام، وبجوارها الجميل عمر يصيح:

- هيّا أيها الكسول.

ورغمَ أنّنا كبرنا كثيرًا على مثل هذه التّفاهات؛ حيث يخطو كبيرنا عمر إلى آخر صفوف الثانوية، وأنا ألحقه بعد شهرين في المدرسة نفسِها، والسيدة مبروكة تقاعدتْ مُكتفية بحصاد الإعدادية، لكن لا نزال متمسّكين بروح طُفولتنا فكلٌّ منّا يهرب من شبح ما.

دلَفْنا إلى خارج الحَظيرة من الباب الخشبيّ الصغير المجاور للفرْن القديم والمؤدّي إلى العشة؛ فكدت أنكص على عقبي هاربًا من المكان الذي يذكّرني بالأحزان، فجذبني عمر مصرًّا على أن أمرّ من المكان نفسه، مشوشًا عليّ أفكاري بذكر جنيهاتنا التي ربما تضاعفت الآن داخل ثقوب الجدار.

كما توقّعت المؤمنة مبروكة، والمؤمن عمر صارتِ الجنيهات الثلاثة ستّة، ضربت جبهتي معلنًا دهشتي فالأمر لا يُصدق.

لم ننفقْ إلّا جنيهًا واحدًا اشترينا منه الحلوى واقتسَمْناها وأهدينا منها لأصدقائنا، ثمّ دسسْنا خمسة جنيهات في الشقّ ثانية، والاقتصادُ في الصّرف

والتبذير كان بوصيّة من السيدة الرشيدة مبروكة؛ كي تكون فرصة الزيادة في العيد القادم أكبر.

عدتُ مبكّرًا مشتاقًا إلى الفراش وصوت أمّي في أذني..

- يا ولد، تعالَ نبحْتَ حسّي.

دلفتُ إلى الحجرة وألقيتُ بجسدي جوار بركة على الجانب الذي كانت تنام فيه أمّي.. وبين اليقظة والنوم جاءتني باسمة مضيئة كما توقّعت، معها دلو ماء يتصاعدُ منه البخار فنضحت في وجهي وهي تبتسم وأنا مستمتعٌ بالماء لأوّل مرّة:

- هذا حمّام العيد أيها العنيد.

ثمّ ألبستني جلبابي الذي اشْتراه لي أبي، ثمّ لثمتني على خدّي، وانصرفت مودّعة فتحركت أتشبّث بها، فالتفتتْ وهي تشير بأصابعها أنِ (استرخ)، وتقول باسمة:

- سأعود.

استيقظتُ منشرحًا على صوتِ تكبيرات أبي الذي سبقني للمسجد، والجدّ عبد الباسط والطيب عمر.

***

(٢٨)

معَ بداية أيّام دراستي في الصفّ الأوّل الثانوي، لفحتني شوارعُ المدينة وزحامها الذي لم أكنْ معتادًا عليه، ولوْلا تجربتي القاسية في الغيطان التي ترهبني عن أيّ نكوص، ولولا وجود عمر معي في المدرسة نفسها داعمًا ومشجّعًا، ولوْلا ارتداء «عيد» زيّ الشرطة بعد التحاقه بمعهد المناديب ما يؤكّد نديّته لي، لما تحمّلت أجواء الثانوية الكئيبة وكتبها الكثيرة، وضعف تحصيلي وتركيزي الذي تفاجأ بعالم جديد.

مضتْ مواسمنا سعيدة أعادَ الخضر معنا كثيرًا من ترتيباته، وردّ الله الرضا سالمًا كاملًا إلى قلبي الشّقي، وصارت حياتنا أسهلَ وأجْمل كثيرًا مقارنة بأيّ لحظة مضت.

في حجرة «القاعة» الذي أعاد أبي بناءها وجدد سقفها بالبوص والحطب وأعاد بناء السلم الداخلي وجعله موصّلًا إليه مباشرة، وكوَّم في مشْكاته العميقة المتّسعة بجوف الجدار كثيرًا من الكتب، جلس أبي على الكتلة الحجرية الكبيرة الشبيهة بالكرسي، والتي جلبَها من الشرقية، ينصت إلى بركة الصغير الذي يتلو القرآن على طريقة مُقرئي المعازي الكبار، ويقترب من أصواتهم بشكل مدْهش، وأنا جالس بجوارهما أهزّ جذعي.

صاحت مبروكة من على بسْطة السلم:

- أدْركنا يا خال.

– ماذا!

– البقرة تلد.

سامحَك الله يا مبروكة.. فأنا مع كلّ صيحة أخشى صفعةً جديدة تعيدنا إلى الوراء، أو ضربة سكين من الخضْر لا يعلم ضحيّتها إلّا الله، لكن الحمد لله.

واستجابةً للاستغاثة الدّرامية، التي كان الأولى أن تكون زغرودة من تلك البلهاء ابنة الأحزان، خرجت من القاعة مسرعًا وتسلّقت الجدار الخارجي هابطًا، أوْ بالأحرى قفزت واتّجهت نحو البقرة لأسجل سبقًا بأنني ثاني من رأى الوليد.. اقتربت نحوها أنظر أسفلَها بحثًا عن الوليد لم أجدْ شيئًا، ثمّ دقّقت النظر في مؤخرتها فرأيتُ تسللًا لجزء من الكائن الجديد، فأدركت أنه بالتّأكيد يدا العجل الوليد يطلبُ المعين؛ فقفزت مكاني أصيح وأتعجّل أبي.

وصلَ أبي هادئًا متبخْترًا فهوَ مُعتاد على هذا المشهد، وعلى كتفه بركة يرمي بأذنه علّه يسمع صوت الصّغير الجديد.

تحرّك أبي خلفَ البقرة ملقيًا بنظرتِه الخبيرة في موْضع الولادة.. ثمّ أخذ نفسًا عميقًا في استرخاء طبيب متمرّس، ثمّ أكّد أنّ الجزء البادي ليس له علاقة بالوليد، ولكنّه مقدمات الولادة، وخمن أنها ربما تلد الليلة أو في الصباح.

انتظرتُ مع أبي بجوارها أقدّم لها التبن، وأزيدها من الدقيق تأكيدًا لتحيّتها وتقديرًا لوضعها الأسري الجديد فهي ستصير أمًّا بعد قليل، وستكون كوّة جديدة تطلّ منها سعادتي المتّصلة منذ زمن قصير، وحالة الرضا من قبل

الخضر، وستتضاعف السّعادة عندما أحتضنُ العجل الصغير وألعب معه، سيصير عندنا بقرتان أو بقرة وثور أتفاخرُ بهما أمام عيد بن شعبان الذي لم أعدْ أراه منذ التحق بمعهد المناديب، والذي يملك أبوه- الثّري بطبيعة الحال- ستة عجول.

جنّ الليل الصيفي/ الخريفي، وعمّتي خرجت تستدعينا للعشاء، فكلّفني أبي بالبقاء بجوارها حتى يتناول عشاءه، ويصلي عشاءه ويعود.

مضى الوقت ولم يظهر جديدٌ ولم تلد البقرة.. وبدأ قلبي صاحب الوساوس يتوقّع خيانة من الخضر يقلب بها دور «السّيجة» السعيد ليعيد ترتيبَ الأحجار بما يروقه.. كلّا لن أسمح له أن يفسد عليَّ سلسلة أفراحي، سأتمسك بها وإنْ نازعني إيّاها سأقتله.. هززتُ رأسي أسقط عن كاهلي هذا الخاطر، والذي سقط بالفعل مع تسرّب صوت شربات من الكوّة المطلّة من حظيرتهم إلى حظيرتنا إلى حظيرة قلبي الدائخ، وهي تغني أثناء سقيها للعجول من حوض طلمبتهم إحدى أغاني المسلسلات:

صفّر قطر المحطة

فكرني بالحبايب

تحركت ببطء لأعتدل في جلستي دون إصدار صوت، واستكملت هي:

لقيت البال مسافر

ولقيت القلب دايب

يا قطر اسكت أمانة

لاحسن حبيبي غايب

لاحسن حبيبي غايب

كان جنبي وبين إيديه

ألمس إيديه بإيدي

خدته إنت ف مغربية

ودّيته فين يا سيدي

قطعت أغنيتها مع صوت أمّها التي صاحت من الداخل:

- شهّلي يا رقّاصة.. وراءنا خبيز.

سامحَك الله يا خالة اعتماد، صوتها كان بدايةَ نشوى روتني، وساقت البسمة إلى وجهي فجلست مسترخيًا إلى مزْود طيني خالٍ بجوار البقرة، أقبض على صدى صوتها في أذني وأراجع الكلمات البهية؛ وقد هيّأ لي خيالي أنّها تقصدني بمطلع الأغنية، بل ربما تعلم أنّي هنا في الحظيرة وتعمّدت أن تغني لتسمعني وتفهمني و.. ثمّ عكّر مزاجي- كعادتي في التعكير على ذاتي - خاطرٌ آخر فقد يكون المقصود هو الولد حودة؛ فالكلماتُ التي قيلت تتحدّث عن حبيب غائب، وأنا هنا مرابط وسط الجلّة والبهائم.

وقبلَ أن يعلو مؤشّر انفعالي تبعًا لعكرات مزاجي، عاد أبي يطمئنّ على حال البقرة ويجهّز المكان ليبيت بجوارها؛ لأنها لو وضعت وليدها ونحن

غافلون عنها؛ قد تدوسُه في الظلام، وقد تأكل مشيمتها فتؤذي نفسها بحسب ما أفتى به أبي.

أعْجبتني الفكرة، وأعلنتُ استعدادي للمبيت بجوارها بدلًا عن أبي؛ فلا شيء أحب إليَّ من ترقب الوليد الجديد، وأن أكون أوّل مبشِّر ومبشَّر به، وربما تكون الزّريبة المجاورة حافلة بمنوعات غنائية أخرى.. رفض أبي في البداية إشفاقًا عليّ من رطوبة الليل وحشرات الزريبة، لكنني أصررت فوافق.

رتّبت مكانَ نومي جيدًا أعلى الفرن القديم الذي يشبه المصْطبة وركب أبي مصباحًا كهربيًّا وسط الزريبة يزيدُ به إيناسي، وجلبت أنا كتاب الإنجليزية لأوهم أبي أني سأذاكر، وأحضرت لي مبروكة غطاء إضافيًّا وكانت مثارة مثلي، ولوْلا أننا ولجْنا ساحة السّبعة عشر عامًا لطلبت أن تنام هي الأخرى بالزريبة انتظارًا للصغيرة.

سمعتُ صياح بركة وهو يقول لأمّه:

- دعيني أبت معه.

جذبتُه من يده رغمًا عنه وهو يضرب الأرض غضبًا.

مضتْ ساعةٌ من الليل وساعتان وثلاث.. ومن جهته قام أبي المتيقظ بدور خفير الدرك الذي يصيح كلّ ساعة كنوع من الإيناس والاستئناس ولينبّه زميله المجاور له الذي قد يكون قد غفاً، فيسعل أبي سعلة قوية من القاعة التي ينام فيها، ثمّ يهبط إلى الحظيرة زيادةً في الاطمئنان وشكًّا في قدرتي الحراسية، وصدق في شكّه.. فكلّما دخل عليَّ وجَدني مستلقيًا على

الفرْن متوسّدًا كتابي أغطّ في نوم عميق، فيوقظني كي أدخل لأكملَ نوْمي في الدّاخل وينتظر هو؛ لأنّ مبيتي بهذه الطريقة إثمه أكبر من نفعه، لكنني أرفض وأعدُه أن أبقى متيقظًا.

في إحدى الغَفوات تسلّلت إلى أذني موسيقى «ألف ليلة وليلة» ثمّ فوجئت بشهر زاد شبيهة شربات، تقتحمُ خلوتي وتدْنو منّي هامسة باسمي توقظني: هاشم.. هاشم! فتحت عيني ببطء فتحوّلت «شهر زاد» إلى شربات، قمتُ مشدوهًا مسْحورًا بجمالها الذي تضاعف بفستانها الجديد وتحت مصباحنا الكبير المعلق في الزريبة.

اقتربتْ منّي تريد احتضاني.. ابتعدت خجلًا محتجًّا على تلك البجاحة؛ فتوقّفت غضْبَى ومالت في دلال، فتقدّمت بشكل مفاجئ كأني لم أجدْ بدًّا من التوقيع على وجهها البدر وثغرها البكر، ثمّ تراجعت ثانية للوراء، فابتسمت خجلة وابتسم العجوز الذي ظهر من خلفِها يلوح بكأسه الحمراء.

استيقظت فجأة على سعْلة أبي- سامحه الله.

ذهبتُ إلى المدرسة في الصّباح أحمل همَّ البقرة، وحُلم شربات ووجع ظهري من نومة الفرن، وهي أشياء كفيلة بإغراقي في محيطِ شرودي طيلة يومي الدّراسي، فلا أفيق إلّا مع فقرة توزيع التغذية.

مضتْ ليلة ثانية ولم تلدِ البقرة، وقد بتُّ على سطح الفرن مجدّدًا بعد ضبط الوسادة وفرش زكيبة قطن فارغة أسفلَ ظهْري متوسّدًا بعض كتبي، منتظرًا سماع صوت شربات والذي جاء في موعده مثل أمس بعد مسلسل الثّامنة تسامر أختها وتسبّ العجول، لكنها لم تغن.

بعد ساعةٍ من الليل سمعت تخريشًا وطقطقةً خارج الحظيرة من الجدار الجنوبي الذي أنام ملتصقًا به والذي نضعُ في شقوقه أموالنا، أو أموال الملائكة بحسب ما تعتقد مبروكة.

نظرتُ من ثقوب الباب الصغير المتهالك الملاصق لجسم الفرن، والذي لا نفتحه إلّا نادرًا، فميزت الواقف في ضوء القمر، إنّه عمر.. يا للهول، هل يسرقنا عمر؟ هل هو في حاجة إلى المال؟ أم هو داء الحرام الذي تسلّل إليه من أبيه؟ استحييتُ أن أفجأه فأنا إلى الآن لا أصدّق عيني.. انتظرت حتى انصرف ثمّ فتحت الباب القديم بصعوبة، وخرجتُ لأتأكّد من الواقعة، وأرى هل ترك اللّص الشاب شيئًا من الجنيهات الخمسة، أم إنه لهفها كلها.

مددتُ يدي في الشقّ الذي أعرفه جيدًا، وجدت أوراقًا نقدية، تنفّست الصعداء إذًا فهو إنْ كان لصًّا مثل أبيه لكنه لا يزال نبيلًا فنانًّا، فلم يأخذ كلّ النقود.. سحبت الورقات بأناملي حتى أخرجتها وعددتها..

وجدتُ الجنيهات الخمسة قد صارت عشرة.. ضربتُ رأسي في الجدار وأنا أضحك غير مصدّق، فقد بانت الرؤيا وصدقَ تخميني القديم أنّ "عمر" هو الملاك.. غفر الله لي ظنّي.. كتمت الأمر ولم أشأ أن أخبر به أحدًا حتى لا تفقد اللعبة متعتَها، والأهمّ من ذلك حتى يظلّ العطاء متّصلًا؛ فلو علمت السيدة مبروكة ستنقح عليها كرامتها و«تفركش» اللعبة.

جاءت الليلة الثالثة في ضيافة البقرة المدلّلة، وكنت قد تأقْلمت مع نومة الفرن ومجاورة البهائم وسقف الحظيرة، بل وجدتُ فيها كثيرًا من المميزات

التي لا توجد في حجرتنا ولا في القاعة، وأهمّها صوت شربات الذي يتسلّل إليَّ من الكوّة، إمّا بدندنة تطول بحسبِ الوقت الذي تسقي فيه العجول والجاموسة من الطّلمبة، أو بثرثرة بنات مع أختِها خضرة، لكن تغيّر مجْرى الحوار اليوم فبدأ هامسًا، لم أسمع تفاصيله ثمّ علا من جهةِ خضرة، التي قالت بصوتٍ مسموع:

– في قلبك أحد؟

– تحشّمي يا خضرة.

– إذًا لماذا؟

– لا أزال صغيرة.

– أصغر منك وتزوّجن.

سكتتْ شربات وواصلت خضرة:

– أجيبيني.. في قلبك أحد؟

– أنت قليلة الأدب.

– إذًا لماذا ترفضينه؟

انتفضتُ جالسًا على الفرن، حريصًا على ألّا أصدر صوتًا مستندًا إلى الحائط متكئًا على المزود الفارغ الذي أضعُ فيه كتبي، وقد شعرتُ بوخزتين؛ أمّا أولاهما فهي فحْوى الموضوع الذي يشير إلى أن عريسًا تقدم لشربات.. يا للكارثة! والوخزةُ الثانية من ضميري الطيب الذي انزعج لمواصلة التجاوز،

وتحوّل الأمر من استماع لدندنة إلى تنصّت مع سبق الإصرار والترصّد، وليس تنصتًا عاديًّا بل على بنتيْن، وهو ما يعد في عرفنا قفزًا للأسوار وخُلقَ سوء.

فكّرت في الانسحاب من المكان احترامًا لنفْسي الموقّرة وسمعتي الطيبة.. لكنّ الواقع كان أقوى مني وخطورة الموضوع لا تستدعي هذه السّذاجة في التفكير، فشدّتني جاذبية فضولي إلى أسفل مبرّرة ذلك بأني في زريبتنا، والكلام يأتيني ولم أذهب إليه ولم أتكلّف سماعه.

أجابت شربات السؤال المعلّق:

- ثقيل الدم.

- نعم.. نعم؟

غالبًا وضعت خضرة يدَها في خصْرها وهي تلقي هذا الاستنكار، ثمّ قالت تتهكّم:

- وهل تريدين أراجوزًا أيتها الحمقاء؟

- إنّه دميم وأسمر بزيادة.

كأنّ صفعة واتتْني من مجهول على قفاي الطويل، فذكرها السّمرة عيبًا في العريس هو قصف مباشر لجبهتي، خاصّة أنّ هذه الكاذبة سبق وامْتدحت سماري في أيّام الغيط الخوالي، بل شبهتني بذاك الممثّل الهنْدي، وها هي الآن ترفض عريسًا لسُمرته معتبرة ذلك قبحًا، هذا يعني أنها ترفضني أيضًا.. يا لك من مخادعة!

قطعت خضرة عليَّ استنكاري بجُملة ساخرة مشيرة إلى شخص يعرفانه:

- اسم الله على بياض أبي طويلة!

خضرة تعترضُ على اعتراض شربات بجُملةٍ تعني أنّ هناك شخصًا يعجب شربات أسمر وطويل، وهذا الكلامُ يحتمل الكذب والصدق، وهذا ما سيؤكّده الحوار.

اعتدلت في جلستي راجيًا أن تؤكّد شربات اتّهام خضرة شريطة أن يكون «أبو طويلة» هذا صفة لشخص وليس اسمًا له؛ فكونه صفة يمنحني فرصة جيدة لترشيح نفسي لأكون المقصود، وبالتالي أكون سبب رفضها ثقيل الدّم الأسمر بزيادة، لكن لو كان اسمًا لشخص؛ فهذا يعني أني لستُ على خريطتها، ولا حتى حودة الوسيم، وعلى ذكر حودة الوسيم دقّ قلبي مجددًا، فهو صحيح ليس أبيض لكنْ أيضًا ليس أسمرَ بزيادة، ما يعني أنّ الوصف أيضًا قد ينطبق عليه.. يا خائنة!

قالت شربات بصوتٍ هامس لكنّ أذني المصغية التقطته:

- خفيف على قلبي.

قالتْها شربات بسرعةٍ ردًّا على أختها، فضحكت خضرة ضحكةً شريرة كتمت نصفَها براحتها؛ فقد اصطادتها الماكرة، وانتزعت من شربات الطيبة الغبيّة اعترافًا صريحًا بوجود شخص ما في خيال الجميلة، وهما وحدهما تعرفان فحواه والبطل المقصود.

قالت خضرة بلهجة المنتصرة:

- وقعتِ يا بنت شعبان.. إذًا كما خمّنت.

ارتبكتُ وأنا في مجلسي الآمن فوق الفرن بعيدًا عن العيون، فما بال شربات التي تواجه تلك الخبيثة الماكرة! فقد ردّت المسكينة بغضب أنثوي يؤكّد التّهمة من حيث أرادت نفيَها:

- لا أقصدُ ما فهمتيه يا غبية يا حمقاء يا قليلة الأدب.

ظهورُ مبروكة وبركة المفاجئ لدى مدخل الحظيرة أفزعني فانتصبت مكاني فارتطمت بسقف الحظيرة، ثمّ زاد ارتباكي عندما توقّعت أن يتكلم أحدُهما بصوتٍ مرتفع فيفضح أمري لدى جيراني، فقفزت نحوهما أعالج الأزمة قبل أن تحدث، فقلت هامسًا:

- لا تنطقا.. البقرة تريد هدوءًا.

نظرتْ لي مبروكة متشكّكة أني كنت أفعل شيئًا مريبًا، فوصيّتي ساذجة للغاية وكأنهما دخلا عيادة نساء وتوليد لم تنطلِ عليها.. قطع صوت خضرة الآتي من الكوّة شكّ مبروكة بيقينها:

- بشوقك يا «إستر» هانم يا جميلة الجميلات.. لكنّ أباك لن يعجبه هذا الكلام.

التفتتْ مبروكة ناحيةَ الصوت، ثمّ عادت بعنقها إليّ وهي تبتسم ابتسامة ساخرة، وكأنّها وكيل نيابة سقط في يدِه دليل اتهام؛ فقد أدركتِ الشّريرة النّبيهة أنّ هاشم الطيب الخجول كان يتنصت على البنات.

قالت هامسة:

- الله الله.. اظهر على حقيقتك.

انتهى حوارُ البنتين بصياح أبيهما:

- بنت يا خضرة.

الحمدُ لله، غادرا الميدان قبل أن تجرِّس بي هذه الشريرة.. انسحبتُ للوراء هاربًا من نظرتها المهاجمة المفتشة الكاشفة عن دواخلي، خاصّة أنّ المصباح الكهربي الكبير الذي علّقه أبي جعلني أبدو كمجرم في حجرة الاعتراف.. فتبعتني مصرّة على إسقاطي وهي تجرّ بركة خلفها، فبادرتها:

- ما لكِ يا هبلاء؟

ابتسمت أكثر، واتّضح لي أنّ قلبها منشرحُ اللّيلة، وسعيدة من حيث كان من المتوقّع أن تكيل إليَّ اللّكمات.

قالت:

- أنا بالفعل كنت هبلاء بلهاء عمياء.

تدخّل الشيخ بركة وهو يدفع يدَها من على كتفه غاضبًا بعد ذكْرها العَمى:

- ماذا تقصدين يا زفتة؟

- لا تؤاخذني يا شيخ، أصل ابن خالك..

حدجتها قبل أن تقول شيئًا يشينني أمامَ الصّغير، وقلتُ بصوتٍ هامس متوسّل:

– كنت نائمًا في مكاني، ولم أكنْ أتنصّت أيتها الغبية.

غمزتْ بعينيها وهزّت عنقها كمَن قدر وعفا:

– سأمرّرها هذه المرّة.

ثمّ أشارت إلى بركة وهي تقول لي:

– استلم ابن عمّتك رأسه، وألفُ سيف ليبيتن في الحظيرة.

أخذت بيدِ الشيخ، واستدارت هي منْصرفة، ثمّ ثنت عنقها تغيظني:

– خذْ بالك من بقرتنا يا «هُش».. ودع بقرة الجيران.

حذفتها بحصاةٍ فقفزت هاربة:

– امشي يا بقرة.

أجلست الشيخ بجواري على الفرن وسوّيت له المكان.

– نوّرت الزريبة يا شيخ!

ثمّ أعدت الشريطَ سريعًا أعيد سماعَ الحوار من أوّله مسترخيًا لعلّ الإعادة تكون في صالحي؛ فبدأت من حيث بدأتا ثمّ قفزت إلى ذاك الأسمر أبي طويلة الخفيف على قلب الجميلة مقترعًا في خاطري بين (أنا) أو (حودة).. ثمّ قلت لنفسي أطمئنها بصوت هامس:

– بالتأكيد أنا..

التفتَ بركة:

- أنت ماذا يا هاشم؟

ارتبكتُ على انتباهةِ بركة وقلت متلعثمًا:

- أنا.. أنا.. أنا سأولّد البقرة.

- وأنا معك؟

- نعم.

شردت ثانية دهشًا أنّ مبروكة مرّرت الأمر بصدرٍ واسع وابتسامات، ولم تتوقف كثيرًا عند التّهمة، ولم تلعن غريمتها شرباتٍ، وكانت قبل ذلك في أمور أقلّ من هذه تنصب لي محكمة وتحكم وتنفذ في جلسة واحدة.

خطَفني النّعاس الجميل.. ولم أستيقظ إلّا على لكزة بركة:

- الحقْ يا هاشم.

علتْ دبْدبات البقرة في جوف الليل، وهي تتحرّك في مكانها جيئةً وذهابًا فأحسّ بها بركة صاحب الآذان التي لا تنام، فقمتُ مُنتفضًا واقتربت منها وأدرتها إلى اتّجاه المصباح الكهربي؛ فرأيت بروزًا ربما يكون حافر الوليد، كدتُ أطير فرحًا فأسرعت أنادي أبي، فجاء ملبّيًا ومن خلفه مبروكة التي كانت متيقّظة مثلنا في حجرتها.

كان الحافرُ الصغير قد انزلق ثانيةً إلى الداخل، فشمّر أبي ساعده الأيمن- الذي عاد ثابتًا قويًّا- وأدخله في جوْف البقرة، وأدرك أنّ الصّغير على وشكِ

الوصول؛ فأمرني أنْ أجهز المكان لعملية الولادة الطبيعية وأمْلاني التّعليمات، فأحضرت له قطعة قماش خشنة يستخدمها في الإمساك بأقدام الوليد وبرأسه الزلقة، وأحضرت قشًّا أفرشه تحتها حتى نسقط عليها المولود؛ فلا يتأذّى، وأحضرت مبروكة البصلة ليدّشها أبي في أنفِ الوليد؛ فتتفتّح رئتاه للعالم الجديد، ثمّ سكين لقصّ الحافر بعد الولادة مباشرة ولقطع الخلاص، ولم أكنْ أعرف ماذا يعني أبي بـ(الخلاص).

خرجَ الوليد بسلام، وكانت أنثى كما تمنّينا، وبادرت مبروكة تحاكي إحدى السيدات التي تحمل كلبًا في أحد المسلسلات:

- نسمّيها لاكي.

لم يعْجبني هذا الاسْم التّافه فاقترحت أنْ نسميها «بدرًا»، ولولا الريبة ونظرات مبروكة التي تراقبني منذ أمس لأسميتها اسمًا آخر.

لكنّ الماكرة قفزت إلى خيالي، وفتحت خزانته، ونسخت محتوياتها، وقالت متعمّدة إحراجي، وهي تغمز بطريقتها الجديدة الجريئة المنتشية:

- ما رأيك لو أسميناها «إستر»!

نظرتُ لها من خلف ظهر أبي أتوعّدها؛ فالمشاغبة توشك أنْ تفضحني، ثمّ هربت من نظرتها إلى العجل الصّغيرة أشارك أبي في إجراءاته الطبية.

انتبهتُ لأرى الوظيفة الإضافية للسّكين غير قصّ الحافر، فقطع أبي بها الحبل الواصل بين الوليد وأمّه والمسمّى «الخلاص» ليعلن استقلاله بالحياة!

سبق خاطر إلى ذهني، فقلت أبدي حكمتي أمام أبي المعجب بي دائمًا:

- أرأيت يا أبي.. السّكين التي منحته الحياة هي نفسها السّكين التي قد تذبح أمّه ذات يوم.

التفتَ أبي متعجّبًا ومعجبًا كما توقّعت، وقال:

- أحسنت يا هاشم.

ثمّ وضع تعديلًا بسيطًا:

- ولكنْ ما رأيك لو قلنا: السّكين التي تذبح هي التي تمنح الحياة.

كما تروْن ليس هناك فارقٌ جوهري في المعنى.

قرّب أبي العجل الوليدة إلى أمّها كي تلعقَ بقايا المشيمة العالقة على جلدها في مشهد يثير الأشجان، بعد قليل دخل أبي يغتسل، وساعدتُها أنا في الوقوف والوصول إلى ضرع أمّها كي تنال رزقها، وأنا أخفي بداخلي بعض الحسد لما تملكه ولا أملكه.

فاجأتني مبروكة بخبرها على استحياء:

- تكلّموا عليَّ.

استدرتُ لها مستغربًا مستفهمًا، فأعادت جملتها شارحة:

- سليم أخو فتيحة طلبني من خالي.

أخذتني صدمة، وتركت رأسَ العجل الصغيرة وأنا أبلعُ لعابي بصعوبة، ثمّ تباسمت:

- خطبك؟

هزّت رأسها سعيدة:

- نعم.

الآن فسّرت سبب انشراحها منذُ الأمس وتقبّلها لأمر شربات على هذا النحو، وتوزيعها البسمات إيابًا وذهابًا.. بل كان عليّ أن أتوقّع هذا منذ عام؛ فشقيق زوج أختها قد قرّر اقتناصها منذ زمن، فزياراته لنا كثيرة، وأيضًا هداياه والتي كان آخرها الفستان.. فعلها النشيط رغم أنّه لم يبلغ الثامنة عشرة بعد.. تذكرت الوغدَ "عمر" فسبق وقلت له: (أنت تليق بمبروكة، لا تتركها للغرباء) قال المتفاصح: (أنت غرّ لا تفهم في النساء).

قلتُ وأنا أُرضع الصغير متشاغلاً عنه مخْفيًا ارتباكي للخبر:

- وماذا أعجبه فيك هذا الأبله؟

ضحكت وقالت:

- سألته السؤال نفسه.

استدرتُ مندهشًا ولم أكن أتوقّع أنها فعلت، فقط كنت أمزح معها.. لكن يبدو أنّ الجميع صار جريئًا هذه الأيّام إلّا الساذج هاشم، فبادرتها:

- يا قليلة الحياء.. سألتِه؟

ضحكت، وأشارت إلى وجْنتها لأجيبها قبل أن تجيبَ هي، قلت دهشًا:

- الندبة؟

فضحكت:

- بل الغمازة يا أحمق! قال لي: أجمل ما فيك غمازتك!

اتّسعت ابتسامتي، وشردت بعيدًا عائدًا للوراء أعوامًا:

- إذاً، صدق عمّ غالي.

هزّت رأسها مؤيّدة، مضيفة ضاحكة:

- وسلمت يد شربات.

***

في اليوم التالي، عرفنا وعرفت العزبة كلّها أنّ العريس المتقدّم لشربات هو الولد حبشي الشفيعي أحد زملائي في الغيطان، والذي صار- اسم النبي حارسه- عسكري شرطة الآن، ورغم ذلك رفضته الآنسة المتعجرفة بدعم من خالها الذي ارتفع صوتُه اليوم وهو يسبّ الوغد أباها الذي يريد أنْ يلقيها لأي عابر. وانتهت المعركة ببصقةٍ على الأرض من الشيخ راجي، ثمّ انصرف وأنا أحيي شهامته وعجرفة بنت أخته.

***

(٢٩)

سقط عامٌ آخر من شجرة عمرنا، طاب ظاهرُ الجرح وباطنه، واعتدل ميزان حياتنا قليلًا، بل كثيرًا، وعادت البسمةُ إلى بيتنا تتقافز بين سقْف حجراتنا، فقد انتقلتْ إلى الصف الثاني الثانوي بنجاح «على الحركرك»، ولم أحصل على مثْل درجاتي القديمة إلّا في الإنجليزية، وقد اتّسع حلمي الذي جعله عمر محتملًا بعد التحاقه بمعهدٍ فنيّ مدّته عامان بالإسكندرية، وجعلت روضة الحلم حتميًّا بعد تخرجها من كليتها لتصير معيدة.

تعافى أبي تمامًا وصعدَ في عمله، واجتهد فسدّ جميع ديوننا واشترى التلفاز وجهاز مبروكة استعدادًا لزفافها الذي لم يتحدّد بعد، وادّخر مالًا مناسبًا ينافس به شعبان حتى صار شريكًا له في مشروع العجول في حظيرته التي جدّد بناءها بالطوب الأبيض، ووسّعها بعدما هدم البيت القديم وذهبت الكوّة التي كانت إحدى نوافذي على صوت شربات.

أمّا شربات فستختمُ هذا العام إعداديّتها، ولا أظنّها ستلحق بالثانوية، وربما تختار اختيار مبروكة وأختها خضرة، خاصّة أنّ الأخيرة وافقت على أوّل عريس، وصارت الآن في بيت الزوجية بقرية «المسين».

***

صعدت إلى القاعة في صباح جميل بعد ليلة قضيتها أبحثُ مع نفسي مجازفة غير محسوبة، وكان قد خطر لي- مجرّد خاطر- أنْ أغامر وأفاتح أبي أن يخطب

لي شربات، وتحوّل هذا الخاطر في الصباح إلى قرار ليس منه فرار، وبالتّأكيد سيرحّب أبي؛ فأنا وحيدُه، وقد صرت في سنّ مناسبة، وأقراني سبقوني إلى الزواج ووضعنا المادي مريح والحمد لله، وقد أكون أنا الأسمر أبا طويلة المقصود فيتمّ المراد.. وقبل أن أكمل صياغة عرضي في خاطري، أو أكمل مواربة الباب؛ قفز أبي إليَّ يستقبلني مبتهجًا يزفّ لي بشرى وفي عينيه دموع لا أفهم سببها.

قال لي:

- أحمد دعاني يا هاشم.

حكى لي رؤياه للنبي وهو يلوح له من بعيد باسمًا ويعاتبه:

- ما هذه الجفوة يا عبد الحميد؟

اعتبرها أبي دعوة للزيارة.. اجتاح الاشتياقُ كيانه فما يستطيع أن يستقرّ في مكانه من فرط سعادته التي أسْكرته، قبّلت يده رغم توجّسي من القادم، فرؤياه تعني أنه سيرتحل ويتركني وربما يتأخّر في عودته.

جلستُ أستمع له وهو يصفُ ما رآه مرّة واثنتين وثلاثة ولا ينقصه إلّا جناحان ليطير من فرط نشواه وأنا أستمعُ سعيدًا بسعادته فأنا عشتُ جزءًا مما يعيشه الآن.. بلعتُ عرضي التّافه العجول بماء دموعه الطاهرة. وقبل مضيّ ساعة من حكاية رؤياه كان الجدّ عبد الباسط يصيح عند باب دارنا، وقد أصابه ما أصاب أبي:

- أنا رفيقك يا عبد الحميد!

مَن أخبر الجدّ عبد الباسط بالخبر؟!!

لقد رأى رؤيا أبي نفسها، هكذا قال..

يا للمبالغات! لكنّ قلبي يصدقهما.

بعد قليل تفْكير، مال قلبي إلى ارتحال أبي، وأحببتُ له ذلك؛ فأقصى ما أرجوه أنْ أراه مبتهجًا سعيدًا، وهذه كانت أمنيتي في كوخ الجدّ عبد الباسط.. أيضًا ليس لدينا ما نخشى عليه في غيابه إلّا وحشة فراقه؛ فحالُنا في موْسمه الربيعي والخضر في بياتٍ شتويّ قد أصلح السّفينة وأحيا الغلام وأقام الجدار، ولا ينقصنا إلّا هدمُ البيت وبناؤه بالطّوب الأبيض مثل سائر الجيران، ولا إشكال أن يتأخّر أمر شربات؛ فسريعًا ما بدلت «سحنتي» واستبدلت ملامحي، وأبديت له سعادة وترحيبًا بمراده النبيل.

في ليلةِ سفره، وبعد أنِ انْفض جمْع الجيران المهنّئين المودّعين، جلس معي ليوضّح لي وضعنا المالي وما لنا عندَ الناس وما يكفينا لسنوات كأنها وصيّة مودّع.. نفضت الخاطر السيئ على عتبة قلبي وركلته بحذائي خارج حجرتنا، وبقيت منصتًا لأبي الذي أكّد لي أنّ لنا رأس مال يُقدر بأربعة عجول لدى شعبان سيعطيني أثمانها وقتَ الحاجة إليها.. ثمّ ختم كلامه:

– سفري قد يطول يا هاشم.. سأجاور.

لم أفهم الكَلمة بدقّة، لكنّني استوعبتُ أنّه سيمكث في المدينة أيّامًا زائدة عن بقية المَعتمرين والحجاج.. فهززتُ رأسي أزيدُه اطمئنانًا:

– افعلْ ما بدا لكَ يا أبي.. سيخلُفك رجل.

ثمّ قال لي:

– أتشْتهي شيئًا!

فكّرت قليلًا.. ثمّ قلت متفاصحًا:

- أشْتهي أن يظلّ الخضر راضيًا عنّا.

ابتسمَ وانْحنى قليلًا ليُساويني في الطّول، فرغم طولي الذي يبلغ ثمانية عشَرَ عامًا، لكنّه كان لا يزال الأطْول، ووضع عينَه في عيني كأنه يريد أن يسكبَ الكلام بجوفي فأهضمه:

- الخضر بلا حوْل يا هاشم.. الخضر مخلوق عاش ومات.. الخضر لا يرضى ولا يسخط.. بل الله الذي يرضى ويسخط.

- إذنْ أشتهي دوام رضاه.

وبالطّريقة نفسها مع نظرة باسمة:

- توقّع دوامَه وسيدوم.

بالطّبع الأسئلة لا تنتهي عند هذا الحدّ، لكن أسكت عندما أتذكّر مَن كانت تسكتني ويغيظها حلم أبي عليٍّ، فانسحبت من الحوار شاردًا فيما يخصّ طلبي والذي تبخّر الآن.

وضع يدَه على كتفي، واقترب من أذني:

- وسأزوجك إيّاها عندما أعود.

بلعتُ لعابي متباسمًا وقد ذهبَ صوتي من الحرج والمفاجأة، موقنًا أنه يقصدُ مَن في بالي، وأنه قد كشف أمري كما كشفته مبروكة، وربما بأدلّة أخرى؛ بل هو يعرف الكثيرَ من الأشياء دون حاجة لأدلة أو شهود..

وفي الصباح سافر الأب والجد.

وبقيتُ أنا فاتحًا ذِراعي للخضر.. أهلًا بالأفراح وأهلًا بالمعارك.

(٣٠)

وبدأ الفصلُ الجديد مع السيد خضر ساخنًا!

رُفع ستار مسرحي عن عطش وسعال وهزال تطوّر خلال ساعات إلى حمّى أربكت المخّ والمخّيخ، فصرتُ أهْرِف كالممْسوس وأتمايلُ كالدّرويش وأتحدّث كالسّكران، حاولتُ أن أقاوم المرَضَ الجديد الغريب المريب وأدفعه عنّي بعضَلاتي كما كنتُ أفعلُ مع الولد عيد قبل أن يلتحقَ بالشّرطة، لكنّني لم أستطع.. قلت هل من الممْكن أن تكونَ الحصبة اللّعينة جاءتني في هذا السنّ؟ لا ليست أعراضها.. أمْ هي الحمّى التي أقعدت أبي من قبل؟ فأرجح أنها هي.. يا وقعتي السوداء!

أنزعُ جسدي من الفراش، وأجلس متأهّبًا للنهوض فأهزّ رأسي بقوّة علَّني أُسقط ذلك الكائن الثقيل الذي علق به، لكنّه يزداد تشبثًا وتمسكًا.

أفيقُ أحيانًا فأغالبُ هُزالي وأستندُ إلى الجدار وأتحرّك بطيئًا نحو الباب مجتهدًا فأفتحه ثمّ أتسلل إلى الباب الخارجي في غفلةٍ من عمّتي التي تراقب أماكن وجودي خوفًا من أن يكون مرضي معديًا فأعدي المسكين بركة، فما أكاد أفتحُ عيني على بيوتِ العزبة التي تلوّنت كلّها باللّون المجهول الذي ليس له تفسير- من وجْهة نظري- حتى أصاب بزغْلَلة ودوار أمام ضوء الشّمس فأتحاملُ وأحاول الثبات ثواني أمتّع فيها نظري من الخضرة والبيوت والأولاد الذين يلعبون، لكن أجد الجاذبية الأرضية تناديني وتفتح ذراعيها

بالترحاب فأغلقُ عيني براحتي، وأسند ظهري إلى الجِدار وأنسلّ مرّة أخرى معلنًا الانسحاب من المواجهة على غير عادتي حتى أصلَ إلى حجْرتي المظلمة فألقي بجسدي على الفراش، وأنا أضرب بقبضتي الهواء غاضبًا لاعنًا ضعفي.. كيف يعصيني جسدي بهذه الطريقة المهينة!

لا يجدي مع المرض لا عرض ولا طول ولا عضل مفْتول، فقد ظلّت الحصبة اللئيمة متخفّية خلف جدران دارنا، ككنز الغلامين اليتيمين الذي أخفاه الخضر حتى يكبرا، ثمّ فجأة برزت لي لكنْ في صورة الحمّى إحدى قريباتها لتوقع حضورًا على الجسد الحصين.

انقلبَ طعمُ الطعام رغم أنّه الطعام نفسه، وانقلب مذاقُ الشراب رغم أنه الشّراب نفسه، وانقلب لون الحياة رغم أنّ عيني لا تزالان تبصران، فما كان عسلًا زلالًا بالأمس صار مرًّا حنضلًا، وعودُ القصب الشهي صارَ شيئًا ماسخًا كعود الذرة اليابس.

وأنا أسأل نفسي: كيف للشيء الواحد أن تتناقض صورته وطعمُه بهذا الشكل؟

قلتُ لعمر الذي حضر لزيارتي أبوحُ له بقناعتي الجديدة في السعادة:

- أهل الصّحة هم أسعد الناس.

ردّ عمر واعظًا وقد تغيّر كثيرًا بعد دخوله أروقة الجامعة بالإسكندرية:

- أهلّ الرضا هم الأسعد.

ثمّ أضاف:

- قريبًا عندما تقرأ أيّها الجاهل وتفهم ستجدُ كلامًا عن نظرية اسمها «النسبية» من بين معانيها أنّ الأشياء ليست دائمًا على ظاهرها، بل قد يكون ما لا نراه عكس ما نراه.

شردتُ مع الجُملة الأخيرة فهي شبيهة بجملة عمّ «غالي» لمبروكة عن غمازتها والتي صدقت رؤيته، وقد صرتُ أراها الآن غمّازة وليست ندبة، ثمّ استطردَ عمر يلمزني متخلّيًا عن خجله القديم الذي ذهب مع ارتحاله للجامعة:

- بالضّبط كطعْم العسل في حلْق المحْموم.. وكطعم المرّ في حلق العاشق المهيوم.

وعلى ذكْر العِشق، فاجأتنا شربات على باب الحجرة المفتوح تستأذنُ في الدّخول كأنها سمعت لمز عمر منذُ قليل فجاءت لتسلم نفسها بنفسها.

وثبَ قلبي المتعَب من موقعِه لينتقل إلى أقرب ساحل مطلّ على البحر بحثًا عن أكبر كمّية ممكنة من الهواء المنْعِش، كم أوحشتني الفاتنة! كم يرفعني ظهورها على بساط من ضياء ويدور بي في الأجواء.. آه أيتها الجميلة.. إنّ الأيام تواصل إتقانَ رسمها بريشة فنان، ويواصل الزّمان سحب أقدامي إلى حافة عشقها!

أفقتُ من تجمّد عيني ناحيتها بقرصةِ عمر في قدمي ينبهني.. بلعت لعابي واعتدلتُ في رقدتي مسندًا ظهري إلى الحائط؛ فلا يصحّ أن أظلّ طريحًا في

حضورها.. اقتربت خطوات محرجة متردّدة، وعينها قد صارت أكثر حياءً وأقلّ ثباتًا في اتجاهي، ربّما ذلك تغيّر جديد ليضاعف جمالها، وربما ذلك وهمٌ من آثار الحمى التي بدأت في المغادرة، وربما لأنّ الشّاب عمر العزول جالسًا بيننا يقرأ ما يدور تحت السطور:

– ألف سلامة عليك يا هاشم!

– الله يسلمك.

ثمّ انصرفتْ خجلة ساحبة معها هواء القاعة.

أردتُ أن أناديها لتمْنَحني وقتًا إضافيًّا، فوجودُها في المكان كالعافية في البدن كلحظةِ سلامٍ تخيّم على ساحة حرب، كسحابة طيّبة في يوم حار.

انتبهتُ على نظرات عمر، الذي احترف المكر، وانسلخ من جلد الطيبين مثل الشريرة مبروكة، يدقق في ملامحي كأنه يقول: ضبطتك متلبّسًا يا مدّعي الحياء.

***

(٣١)

أخيرًا قرّرت الحمّى- سيّئة الذكر- مغادرةَ جسدي بعدما أثبتت ما أرادت إثباته، وأجبرتني على ترك آثاري في حجرة الضّعفاء الأذلّاء، ثمّ أطلقت سراحي مع توْديعي بـ «شالوت».

عدتُ إلى نفسي القديمة، عادَ لي مذاقُ لساني ولونُ بشرتي وقوة بنيتي وجدت حبّي للحياة وأكثر شوقًا لمبروكة، وبالطبع شربات.

هنّأني الجميع كما كانوا يهنّئونني على حصاد الجوائز في المدرسة، فهُم يروْن أنّني تفوّقت وانتصرت رغم أنّني أرى أن المرض انصرف بالطريقة نفسها التي فاجأني بها؛ فقد هاجمني بأمر وانسحب بأمر، وبين أمر الهجوم وأمر الانسحاب لم أفهم المغزى ولا الغايةً ولا الآية، لكنْ ربّما يعرف أبي الذي يعرف الكثير عن الَخضر، وربما الغاية واضحة جليّة، ولكنّني (بليد)، وربما لا يكون هناك مغزى ولا غاية ولا آية!

الشّهور التي سبقت الحمّى كانت تشي بأنّ أيامنا ستظلّ سائرة على قضبانها هادئة ناعمة بريئة من القلاقل، خاصّة وأنّ السيد الخضر ارتحل عن أرضنا وسمائنا ربما انشغل بهاشم آخر أو هواشم، فعلى الأرجح اكتفى بقرص أذني بالحمّى المقيتة وتركني أتعافى وأنعمُ بالحياة مجدّدًا نبلًا منه وفروسية وانتظارًا لأبي حتى يعود من مجاورته للنّبي ليجاورني في جبهةِ قتال الحياة فتكون المعركة عادلة متكافئة.

لكن..

***

خرجت مع بركة ومبروكة إلى الحقل ذاتَ يوم مقرّرًا أن أعيد أمجاد السّيجة الخالية معها رغم أنني ليس لي فيها أمجاد ولا أعياد، لكنْ لنا جمهورٌ كان ينتظر مبارياتنا من حين إلى حين، خاصّة أنّ مبروكة صارت مقلّة في الخروج للحقل، ولم تعدْ تختلط بالصّبيان، وعن قريب تفارقنا إلى دارها، لكنّها خرجت اليوم معي كرامة لي، وإتمامًا لعملِها الذي تباشره منذ أن غيبتني الحمى.

تهلّلت لعرض مبروكة المتحمّسة لمواجهتي، فأنا أظنّ أنها هذه المرّة ستقدر أنّني خرجت من المرض لتوي فلن تكرّر خطأها الإنساني كما فعلت في المباراة السابقة، وستقدر اليوم وضعي الدرامي، ويا حبذا لو تركت شربات – التي لم تعدْ تخرج للحقل هي الأخرى – تدْعمني مجدّدًا، فأنا في شوقٍ لدعمها وإشاراتها وهمسها، ولن تعترضَ مبروكة فقد صارتْ أكثر سماحة معها، ولا أظنّ أنّ لديها مانعًا أن تكون شريكتي فيها، كما أنّني في حاجةٍ ماسّة إلى نصرٍ صغير يدفعني ثانية للحياة، وإن كنتُ صرت مدفوعًا لها بالفعل بعد أن ذقت مرارَ الحمى.

تركَنا بركة، وانتحى بجوار جَمل عمّ صبحي كعادته يغني حينًا، وحينًا يراجع القرآن الذي أوشكَ أن ينساه مع غيبة أبي والجدّ، وألقيت كتبَ الدّراسة بجوار المربط وانتقلنا إلى السّكة نجهز المكان.

حضرَ جمهورنا الكريم المتناثر في الحقول حولنا باستدعاءٍ من سعد، ومنّيت نفسي بأنّ شربات قد تفاجئني بعدَ قليل، وحينها سأشعر بخطواتها.. أخذَ الفتية المشتاقون لمبارياتنا موضعَهم على المدرجات الافتراضية متحلّقين

حولنا، وكان أغلبهم مِن أترابي الذكور، ولكنّ أغلب الواقفين يشجعون مبروكة بعد أنْ أدركوا أنها هي الأكفأ والأقربُ إلى النّصر دائمًا.. خاصّة أنهم تأكّدوا أن انتصار تلك المرّة التي مضى عليها ثلاثة أعوام كان بتوجيهات شربات ليس إلّا..

وسطَ خلفيّة موسيقية يصدرها بركة بقراءته الشّجية يصاحبها صمتُ المشجعين المتنمرين، وزعنا الحجر في عيون السّيجة بنشاط.. شمّرت كمّ قميصي وفركت راحتي براحتي، واستفتحتُ باسم الله ونقلت أول حجر إلى العين المسْدودة وانتظرت نقلةَ مبروكة.. لكن قبل أن تبدأ مبروكة بنقل حجرها الأوّل والمعروف موقعه غالبًا، كان السيد الخضر قد نقل حجرَه في عين لم يكنْ أحدٌ يعرفها ولا يتوقّعها على الإطلاق، فقد دوّت في المكان صرخة الشيخ بركة.

أهلُ العزبة كلّهم يعرفون أنّ جَمل «عمّ صبحي» أليف هادئ مستسلم لدرجة بعيدة أكثر من أتاننا، وحتى لو كان فيه داءُ العضّ؛ فالشيخ بركة صديقه الذي يحبّه منذ سنوات.. فكيف يفعل ذلك به؟

لكنّها مفاجآت الخضر.

قال شاهدُ عيان دهشًا:

– الجَمل التقم كتفَه، ورفعَه، ثمّ تركه يسقط بهدوء!

وقال عمّ مستكاوي الحلّاق عندما رأى في عيني شبهة بكاء:

– اجمدْ، والله سليمة إن شاء الله.

وقال طبيبُ مُسْتشفى الدّلنجات وهو يوقع ورقة تحويله إلى دمنهور: إنْ لم نتداركه بالعملية والعلاج فقد يتطوّر الأمر إلى شلل!

نهارٌ أسود.. عمًى في الميلاد وشلل في المهاد!

أصابتْني المفاجأة بالدّوار، فللْمَرة الثانية أواجه الخضرَ منفردًا، دون أبي ودونَ الجدّ، ففضلاً عن أنّ المصاب هو الشّيخ بركة، فأنا رجلُ الدّار المكلّف بالتصرّف كأنني كبير خبير.. فزعت واستدعيت كلّ قواي كي أواجه الخطر.

حوّلتنا مستشفى دمنهور إلى الهلال في القاهرة!

بركة أفاق عندما سمع كلمة (القاهرة) فصاح ينادي الجدّ الغائب:

- الإذاعة يا جدّ.. الإذاعة يا جد.

فتحْنا صندوق أموالنا، وتجهّزنا أنا وعمّتي لنضحّي بأي شيء بل بكلّ شيء، المهمّ أن يشفى بركة البركة؛ فالدّار بدونه ستعود قبرًا قفرًا، وأبي لو عاد ووجدَه على تلك الحال لنْ يسامحني على تقصيري وتفريطي، وربّما ينتكسُ ويصيبُه ما أصابه بعد أمّي.

في المساء دخل الجدّ عبد الباسط علينا المستشفى، يا فرج الله! انتصبتُ سعيدًا بقدومه فقبّلت يده وسألته متلهفًا:

- أين أبي؟

- رغب في البقاء.

لقد جاور كما أخبرني.

ذهلتُ عن بركة قليلًا أفكّر في أبي، وماذا وراء القرار، لكنّني عدت فحمدتُ الله أنه لم يأتِ ونحن في هذه الحال.

كان الجدّ يعرف طبيبًا بالمستشفى من عائلتنا.. يا تياسير الله.. بحثَ عنه وجاء به ليطمئننا أكثر على حال بركة.. ابتسم الطبيبُ صاحبُ الوجه الجميل، وأبدى استعدادًا تامًّا لأيّ مساعدة مؤكّدًا لنا أن عظمه سيلتئم سريعًا، ثمّ أضاف محرجًا:

- لكنّ التكاليف قد تكون عالية.

أجبته وقد صرتُ رجلًا يستطيعُ أن يصدر القرارات:

- لا يهمّ.

***

تركت الجدّ عبد الباسط بجوار بركة في القاهرة، وتوجّهت أنا وعمّتي إلى شعبان كي نطالب بحقّنا في مال أبي الغائب.. وتوقّعت في البداية أنّ موقفنا السيئ وما أصابَنا من دورة الزمان سيلينان قلب الرجل ويجعله يُعطينا مالًا مؤقتًا دونَ أن نضطرّ إلى بيع بهائمنا التي عنده ونخسر رأس مالنا.

لكنّ شعبان لم يعْطنا شيئًا، بل رفض أنْ يبيع في ذلك التّوقيت بزعم أنه لا يريد أن يعرِّض نفسه للخَسارة، وقال إنّه كي يحسب نصيب أبي لا بدّ أن يبيع العجول كلّها، وقد تبجح أكثر لما علم بمواصلة أبي المجاورة، بل بدأ يشيع البعض أنه لن يعود.

حكمَ الشيخ راجي إمامُ المسجد، وصهرُ شعبان، وصاحبُ الاختصاص في فضّ نزاعات العزبة والقرى المجاورة؛ أنّ على شعبان أن يعطينا عددَ العجول التي يملكها أبي بالتقدير، فلا داعي لذلك الورع الكاذب، لكنْ أصرّ شعبان على رفضه بحجّة أنه لا يريد أن يقع في شبهة الغرر!

لم يكنِ الحال وارتباك اللحظة بالإضافة إلى ذلك الحبل الوهمي الممدود بيني وبين شربات؛ يسعفوني كي أدخلَ في شكايات، وأطالب بتدخّلات من الكبار والصغار، أو أشغِّل حالة المسّ الشيطاني لديَّ، خاصّة وأنّنا تركنا الجدّ في القاهرة؛ فاقترحت عمّتي المكلومة في صغيرها مثلي أن أبيع البقرة العجوز.. التفت لها منزعجًا كيف تجرؤ على هذا الطلب!

لكنّني سرعان ما لنْتُ فليس أمامنا بابٌ آخر، بل بعت معها التلفاز.

أخذتُ نفسًا عميقًا، وطويتُ الجراح في درْج الصبر، وتأبّطت صديقي الألم، صامدًا أو متصامدًا.. ولا أدْري إلى متى أستطيع الصمود.

ما باليد حيلة، إنها معركة قدْ لا تكون الأخيرة مع القدر والخضر سأخوضُها رغم أنفي، وقد أهزم، وقد ينقذني الخضر نفسه صاحب العجائب.. لكنْ على كلّ حال أنا غاضبٌ منه شاك إليه؛ فالخضر ليس نبيلًا كما زعمَ أبي، فهو لم يضعْ في حسبانه أنّني أواجهه وحدي.

***

(٣٢)

لم يسدّ ثمن البقرة ولا ثمن التلفاز، ولا ثمن ستّة قناطير قطن الفجوة الجديدة المفاجأة في جدار بلوانا، ذهبت عمّتي ثانية إلى شعبان تحاول أن تستجديه مُستعينة بصديقتها الطيّبة خالة اعتماد، لكن الخائن سوَّف واحتجّ بانتظار موسم الذبح حتى لا يخسر.

إذًا ليس أمامنا إلّا بدر..

- بدر!

قالت عمّتي بهدوءٍ وهي تعرف أني سأفكّر وسأستسلم:

- بركة أو البقرة!

- بدر ليست بقرة.

نظرتْ لي عمّتي دهشة، فأطرقت حزينًا أكرر:

- بدر ليست بقرة.

بقيتُ طوالَ الليل أتلوّى على فراشي بالقاعة، وأقوم وأقعد وأنزل أمشي بجوار «بدر» وأتحسّس ظهرها وأنا أتخيّل أني أسلمها بيدي لوَضْم الجزار أو لغريب يحلبها.. لكنْ ما باليد حيلة؛ إنّها قرارات الخضر المأمور الذي أصرّ أن يجرّدنا من كلّ شيء للمرة الثانية.

ورغمَ الجدار الذي صار عازلًا للصّوت بيني وبين حظيرة شعبان إلّا أنّ صياح شعبان وصراخ شربات وجد منفذًا إلينا.

حسبت في البداية أنّ أحدَ العجول هاجَ كالعادة فداسَ أحدهم، لكنّ العجل الهائج الليلة كان شعبان نفسُه الذي صاح يختصرُ لي الحكاية دون اجتهادٍ منّي:

– تريدين عريسًا على المقاس يا بنتَ الرّفضي.. ستتزوّجينه رغم أنفك وأنف أمّك وخالك اللعين.

تدخّلت خالة اعتماد ليخفض صوته:

– فضحتنا يا شعبان.

– بنتُك هي التي تريد فضحنا.. ماذا يعيب الولد! لماذا ترفضه بنت الكلب؟

أدركتُ أنّ المسألة خاصّة بعريس جديد، وهي– والحمد لله– ترفض من جديد.

تدخّلت خالة اعتماد مصحّحة:

– هي لم ترفضْ، هي فقط تريدُ التأجيل بعد دراستها.. وحودة سينتظر.

إضافة سيئة من خالة اعتماد– سامحها الله– فقد ردّت الاحتمالات إلى وضعها بل عقدت المسألة بالنسبة لي من حيث أرادت أن تحلّها لزوجها الوغد.

إذًا، حودة هو ذاك الأسمر أبو طويلة المقصود.. هززتُ رأسي، كلّا.. ما هذا الغباء! لو كان هو لقبلته.. هي الآن ترفض، كلّا هي تؤجّل فقط.

– وهل ستصير دكتورة بنت العفش هذه؟ هي لم تفلح في تجاوز الإعدادية بعد!

قالها شعبان وقد بدأ يهدأ كأنّه يريد العودة للمفاوضات، وأردف:

– سنقرأ الفاتحة الآن، والزفاف بعد نتيجة الإعدادية.

صاحتْ شربات:

– لو فعلت سأقتل نفسي.

– وعلامَ يا بنت الرّفضي تقتلين نفسك! سأقتلك أنا.

ثمّ عاود ضربها، وظلّت المعركة مشتعلة هكذا حتى أخذتني غفوة، ثمّ استيقظت على نداء عمّ سنوسي فجرًا، فصلينا وأخذْنا البقرة إلى سوق الدّلنجات سيرًا على الأقدام من طريق «إبياء» حيث لا يصلح معها ركوب السّيارات، فهي تخاف كلّ الآلات كأمّها وتفرّ من أيّ شيء متحرّك وتجري هاربة إن لم أكنْ أنا أو أبي حاديها.

كان صباحًا باردًا بداخلي، وأيضًا بخارجي، والضّباب يحيط عيني حقيقة، ويجثُم على قلبي حقيقة أيضًا.. لا أدري فيما أفكّر، ولمن أخطّط؟ هل بركة الكسير أم للبقرة المباعة أم في شربات ومعركتها التي لا أدري إلى الآن هل أنا أحدُ طرفيها أم أحدُ الموهومين!!

أشردُ وأفيق على جذبتها للحبْل من يدي كأنها تريد أن تتملّص وتعود إلى الدار.. أو كأنها تذكرني أنها بدرُ.. حبيبته التي سهر بجوار أمّها حتى شرفت الزّريبة، وراقب أباه بنفسه وهو يقطع حبْل خَلاصها بالسكين، بل أنا بنفسي الذي نبّهت أبي بفلسفتي السّاذجة إلى الوجه الآخر لوظيفة السّكين القاسية، وها أنا اليوم أسلمها للسكين.

بعد ثلثي الطريق، ومع أوّل خيطٍ للنهار، وجدتني أخفّف قبضتي عن الحبل قليلاً، ثمّ أرخيه أكثر، ثمّ كأنها فهمتِ الإشارة فانطلقتْ كالسّهم وسط الغيطان، وقفتُ متفاجئًا أو مدّعيًا المفاجأة، لكن قبل أن يشكّ عمّ سنوسي بأنها خطّة مدبّرة، قفزت أجري خلفها، لكن بنصفِ سرعتي.

تصوّرت أنّها ستعود إلى الدّار كما تعود الأتان إذا تركتها، لكنّني كنت حمارًا؛ فالبقرة غير الأتان، وعليه اختفتْ «بدر» ليكمل بها الخضر سلسلة المآسي، ويلقمني حجرًا آخر، وعليَّ أن أبلع إن كنت رجلًا.

فتّشنا الناحية كلّها؛ الغيطان والزّرائب والمرابط والأكواخ والأشجار والترع، وبعد أن خارت قدماي وتأكّدت من ضياعها، وَفَاني الخضرُ كعادته بخيطٍ للنّجاة، فجاءنا عند الغروب مرسالٌ من عمّ (علي همس) يخبرنا أنهم وجدوها قد سقطتْ ببركة وسط أرضهم مكانَ الكبّاس القديم، وهي الآن تجاهد للخروج، والرجالُ يجاهدون لإخراجها.

انطلقتُ إلى هناك، وجاءنا دعمٌ من كلّ حقل، وتدخّل الخبراء بعروق الخشب والحبال حتى أخرجناها مُصابة، وأتينا بالشّيخ منعم المجبّراتي الذي

عالج ذراعي قبل ذلك ونالَ من لساني الطويل ما نال، لكنني كنتُ أعلم أنّه ماهر، فجبّرها وأخبرني أن قدمَها ستشفى بإذن الله، لكن لن تعود كما كانت.

حزنٌ وسعادة، هكذا يستطيع الخضرُ أن يعطيك الشّعورين في آن واحد.

فـ (بدر) لنْ تعود كما كانت..أيضًا لم تعدْ مُغرية للبيع، فلن تذهب بعيدًا عني.

تعوّدت المبيت في الحظيرة منذ يوم ولادتها وكأنّني كنت أستعدّ- دون أن أدري- ليوم إصابتها.. راعيتها كما أرعى بركة حتى تمّ شفاؤها والتأمَ الجرح، وأكّد لي الشيخ منعم أنّها رغم «الزكّة» الظّاهرة في مشيتها إلّا أنها قد تعافت تمامًا.

***

(٣٣)

حالةُ الشيخ بركة النفسيّة أفضل من حالة بدنِه بكثير، فهو يضحكُ ملء فيه ويطوح ويلوح بذراعه السّليمة، ويعيد لنا النّكات التي يسمعها من أهل القاهرة مُضيفًا إليها لمساتِه، وصاحب كثيرًا من المرضى المجاورين، ثمّ صار مُقرئ المستشفى المشهور الذي يصعدُ إليه الجرّاحون والمجروحون ليسمعوه وهو يقلّد الشيخ المنشاوي كأنه هو.

أخبره الجد أنّ مبنى الإذاعة على مسافة قريبة من المستشفى كالتي بين عزبة «صادق» و«الشفيعي»، وبالَغ الطبيبُ القريب فوَعَده بأنّه سيأخذه بنفسه إلى الإذاعة بعدما يتمّ شفاؤه، ويستطيع الحركة إلى هناك.

أمّا أنا فليتني أحْمل نفسًا كنفسِ بركة، فقد ثقل الحمْل عليَّ، وخنقني الزّمان بأحباله، وشدّت الدنيا من طرفٍ والخضرُ من الآخر، ولولا قروض الجدّ عبد الباسط لاضطررتُ إلى رهن الأرض للحاج فؤاد، وها هي امتحانات الصفّ الثاني تقترب وأنا لم أحصّل شيئًا.

تنفّست ملء صدري وصدور المنكوبين، أستجمعُ كلّ قواي لأقف أمام موجة الزمان الجديدة لأبقى صلبًا أمامَ كاميرات المصوّرين من أقاربنا وجيراننا المتابعين؛ فلا يشمت بي شامتٌ في غيبة أبي التي لم يمضِ عليها شهور، أو يقولون ترك وراءه طفلًا مدلّلًا.

لقد مررتُ بغيرها، وكانت أمرَّ منها ومرّت.

لكنْ هل يدعها الخضرُ تمرّ؟

نفضتُ ظنوني السّيئة فهي دائمًا تتحقّق، وأبي كان يقول..

انتبهت لجملتي: أبي كان؟!

أصبحتُ أقول (أبي كان؟!) هززتُ رأسي أزيح ذلك الهاجس القاتل؛ فأبي بالتّأكيد قادم، فرغم توقّعات شعبان النصّاب، وهمْهَمات عمّتي اليائسة البائسة، لكنّني واثقٌ أنّه عائد عمّا قريب، أنا أعرف أبي جيدًا.

استعنتُ بالله وجدّدت فكرة المشاركة على أرض بمعاونة الجدّ عبد الباسط؛ فتشارك لي مع الشيخ راجي الذي يملك نمرتين (النّمرة ١٦ قيراطًا) وليس متفرّغًا لزراعتهما، وأطفاله لا يزالون صغارًا.

تردّد الرجل كثيرًا، فرغم أني ابنُ الثامنة عشرة، وأفصّل درفتيْ باب كما تقول مبروكة، ورغم أنه يعرفني جيدًا ويعرف أنّني صرت متمرّسًا في أعمال الغيطان، إلّا أني لا أزال طالبًا في الثانوية ما يعني أنني لن أتفرغ لإصْلاح أرضه، وبالتالي خشي على أرضه ومالِه فتمنّع كثيرًا، لكن الجدّ عبد الباسط ضمنني عنده، وأكّد له أنه سيرعاني ويباشرني على الدّوام، ولم يوافق الشيخ راجي إلّا عندما وعده الجدّ عبد الباسط بالتعويض لأيّ خسارة ناتجةٍ عن تقصيري أو قلّة خبرتي.

مع ذلك التغيّر الكبير تأثّرت دراستي، ولم أكنْ لأستطيع أن أحمل كلّ هذا الحمل وأسير سليمًا، فتركت المدرسةَ والمذاكرة فلا بأسَ من رسوب عام، وتفرّغت لأمر الزراعة حتى أستطيع أن أسدّد ما استدنّاه من أجْل الشيخ

بركة، أيضًا لكي يأتي أبي فيجدَ الأمور خيرًا مما تركها أو مثلها أو شبيهة بها، وشمّرت مبروكة الطيّبة وعمّتي القوية عن سواعدِهما وكانتا معي في كلّ شئون الزراعة، وكان أنور كظلّي لا يفارقني إلّا عند المساء.

بحكْم خبرتي السّابقة التي ورّطني فيها الزمان في أعمال الغيطان تعاملتُ مع الأمر بسهولة للغاية، فجهّزت مشتلَ الأرز وراعيتُه حتى جاء موعدُ الشّتلة فجمع لي أنور زملاءَ الغيطان الجدد من مثل سنّي أو أكبر قليلًا.

وأثناءَ تلويط الأرض وتسوية تربتها وتجْهيز سطحها لاستقبال الساكن الجديد الأرز، ساعدتني «بدر» كثيرًا رغم إصابتها، وكان بعض الجيران يؤجّرونني وبدرًا لتجهيز أرضهم للشتل.

جاء موعدُ زراعة أرضي التي أشارك عليها الشّيخ راجي، ملخت المشتل وحدي، ثمّ فردت الشتلات في الأرض بمساعدة «بدر»، ثمّ نزلت أنا وسعد وفتيان من عزبة الشفيعي أرسلهم أنور لانشغاله بعمل آخر، والجدّ عبد الباسط يساعدنا على قدر صحّته، ومبروكة تنقل لنا الشّتلة من المشتل على «العوامة»، وعمّتي تعدّ لنا الطعام، وكنت أوصيتُها أن تتأخّر في القدوم به حتى ننجزَ على الأقلّ نصف فدان قبل الإفطار، ونصفه بعده، وبالتالي نستطيع أن ننجز الفدّانين في يومين.

لكنْ بدا الأمر على غير ما تصوّرت؛ فالشّتل عملية صعبة عسيرة تقصمُ الظّهر كمفاجآت خضر وأنا خبرتُ كلّ شيء في شئون «الفلاحة» إلّا شتل الأرز.

حاول الجدّ عبد الباسط أن يرشدنا نظريًّا ويبعث فينا الهمّة، لكنّنا كنّا بُلهاء في تلك الصنعة، حتى جاء الفرج ببنت شعبان التي كانت ذاهبةً لحقلهم، فقطعتِ الرحلة بأمر من قلبها ربما، وخلعت مداسها (أبو ورْدة) على المحدّة، وانْثنت ترفع هدبَةَ ثوبها عن ساقيها اللّتين سبق وكان لي معهما نظرة شاردة؛ فانخلع قلبي غيرةً عليها، وكدتُ أناديها ألّا تفعل قليلةُ الحياء؛ فقد بادرَ الصعاليك حولي ينظرون نحوها، فعيناها وحدها كفيلةٌ بإداخَتِهم، فكيف لو أبدتْ ساقيها هذه الحمقاء، لكنّ الله سلّم، وكفى المؤمنين طعنَ السّهام، واتّضح أنّ الجميلة تستر ساقيها ببنطال.

جاستْ في الماء، واندسّت وسطنا دون استئذان؛ فالأرض أرضُ خالها، ولها معي سابق مجاملات لا تحتاج لاستئذان.. ولم ألتفتْ إلى جهة مبروكة فأنا متأكّد أنّها تنظر إليّ الآن نظرتها المتّهمة المستكشفة، وربما تلقيني في قفاي بحزمةِ أرز لتنبّهني أنها تتابع، وأنها كانت على حقّ من البداية.

استلمتْ شربات شتلاتِ الأرز التي هي عبارة عن حزم كبيرة يتمّ تفصيصها إلى فسائل، ثمّ يغرسها الشّاتل في الطين؛ فأرتنا شربات مهارتها بداية، وأمسكت بحزمة وسارعت تنزعُ فسائل منها وتغرسها وتنزع وتغرس، وتنزع وتغرس، ثمّ إلى حزمةٍ أخرى، وهكذا، ونحن نتابع منْدَهشين من سرعة مناوبتها بين حزمة واستمرارها في غرس الفسائل دون أن تقيمَ ظهْرها، ومبروكة ترمقني وترمقها وتبتسمُ ابتسامتها المتّهمة لابن خالها الغلبان.

وبعد أنِ اطمأنّت شربات أنها أثارت إعجابَ المشاهدين وإعجابي كعادتها منذ سنوات، صاحت تُوجهنا وتصحّح الأخطاء التي تعيق سرعتنا، ونحن ممتثلون للتّعليمات؛ فيجب ألّا نرفع ظهرنا إلّا عند نهاية الشوط، والشّوط هذا نسمّيه «الوش»، مبرّرة ذلك بأن كثرة الاعتدالِ بعد الانحناء تزيد ألَمَ الظّهر لا تخففه، وألّا نسند بمرافقنا على ركَبنا أثناء غرسِ الشّتلة لأنّ ذلك أيضًا يزيد آلام الظهر لا يخفّفها، وأن ننهي المساحة التي بين أيدينا قبل أن نشتلَ ما حولنا حتى لا نفاجأ بأنّنا أحطنا نفسنا بدائرةٍ مشتولة وقد نفسد ما غرسنا أثناء التحرّك، وأن نحسنَ توزيع حزم الشّتلات حولنا بحسب عددِ الحزم المتاحة خلفنا حتى لا نكثف الغرس في مكانٍ ونقلل آخر.. وبالفعل عندما ذهب الجدّ ليرفع أذان العصر كنّا قد أنجزنا الفدان.

اكتفيتُ منها بهذا الدّعم النظري المجيد، وكانت تريدُ استكمال المشاركة في الشتل، لكنّي هززت رأسي بالرّفض، وأشرت إليها بالانصراف؛ فشتلُ الأرز يعني ضغطَ الجلباب على الخصر واستمرار الانحناء وسط هؤلاء الأوغاد، وعيونهم المتلصّصة لن تتركها في حالها، وكذلك عيوني.

ضبطتْ جلبابها مبتسمةً لي ابتسامة ذكيّة لها مغزى ومعنى وكلام، وقد فهمت مرادي، وأبدت راحة لرغبتي التي تعني لها الكثير؛ فانصرفت مودّعة الصعاليك.. وهم يقولون في سرّهم:

- منك لله يا هاشم.

ثمّ فاجأتني بإشارةٍ من يدها أمام الأوغاد تعني أنها تريدني في أمر خاص، تحرّج موقفي للغاية وقلت ما هذه البنت، هكذا علنًا أمامَ الشباب، هل

ستخبرني الآن وسطَ هذه الجموع أنّني الأسمر أبو طويلة!! هل ستطلب يدي للزّواج! تركتُ حزمة الشّتلة التي في قبضتي وتحرّكت متعثرًا في الماء، وأنا أرقب مبروكة التي وقفتْ على رأس المشتل تتابع المشهد المثير.

قالت شربات بثبات:

- أردتُ أن أخبرك شيئًا.

بلعتُ لعابي محرجًا، واقعة سوداء.. ماذا ستقول هذه الجريئة!! هل ستقولها فعلًا! ثمّ انتبهت إلى تحرجي ووقوف أنفار الشّتلة لمتابعة وقائع اللّقاء، وربما يشاهدنا جميع مَن في الغيطان الآن، فالبثّ على الهواء مباشرة من وسط الغيطان.

استحيتْ أخيرًا والحمد لله، مدركةً الأبعاد الإعلامية الدّعائية لمثل هذا الانفراد، وفي هذا التوقيت وأمام هؤلاء الأوباش، فهي وإنْ كانت أجرأ منّي بكثير، لكنّها تحسب للناس حسابًا، وتحترم قوانين حشمتنا، فانصرفت محرجة حتى دون استئذان وهي تقول:

- فيما بعد.. فيما بعد.

استدعاؤها إيّاي، ثمّ تركي معلّقًا كمشنّة خبز فارغة في سقفٍ أكله السوس؛ جعل موقفي أكثر حرجًا مما لو حادثتني أو حتى عانقتني أمام الجمهور؛ وعليه لم يفوّت الرعاعُ الفرصة، وسمعت ضحكات سعد الذي حاول أن يكتمَها خلف راحته؛ لكنّها خرجت بصوت أعلى يشبه رُغاءَ جملهم، ثمّ انفجر الجميع في قهقهة عالية.

***

(٣٤)

- هل أنت غبي!

قالتْها المهندسة روضة بانفعال.. وأردفت:

- لا تؤخّر دراستك لأيّ سبب.

- الظروف.

- لا ظروف.. هل أنت ضعيفٌ لهذه الدرجة!

- لم يتبقّ سوى أسابيع.

- تستطيع.

- مستحيل.

- المستحيل مقبرةٌ بناها الكسالى والتّافهون، يُهْرعون إليها عندما تلسعهم حرارة المواجهات مع الحياة وشرار الناس.. اعمل نهارَك واسهرْ ليلك على كتابك.. لا تخيّب فيك أملَ أبيك وتوقّعات محبّيك.

دخلَ الأستاذ صابر على كرسيّه المتحرك وقد سمع صيحاتِ ابنته، فنهضتُ مسرعًا أحتضنه وأقبّل رأسه.

أيّد الأستاذ صابر كلامَ ابنته، وذكّرني أنّ نظام «التّحسين» سيمنحني فرصة جيدة، وسأستطيع الإعادة في أيّ مادّة في الدّور الثاني وأنال مجموعَها كاملًا، فلماذا أضيّع عامًا بتعمّد التغيب والرسوب!

خرجت حائرًا بين الخيارين، فهما بالتأكيد يقولان كلامًا نظريًّا ولا يدركان ما أنا فيه، فاتجهت إلى السيد عمر لعلّه يحسم لي المسألة، فوافقني لأوّل مرّةٍ وأيّد قرار الانسحاب المؤقّت من الدراسة، فارتحت إلى هذه الموافقة المؤكّدة أنّ اختياري الأصوب، وقرّرت أن أتغيّب عن الامتحان وأتفرّغ فقط لضبط موازين الحياة فأنا بشرٌ ولي طاقة، إلّا أنّ شربات كان لها رأي آخر.

قالت لي:

– سأرسبُ هذا العام.

لا أدْري هل كانت تعلم أنّ عمّتي ومبروكة وبركة ارتحلوا إلى إيتاي في زيارة عائلية، أم جاءت مصادفة..

أجبتها وأنا أرقبُ الطريق خوفًا أن يراها أحدٌ واقفةً معي في ردهة الدار:

– ولِمَ تفعلين؟

– أبي يريد أن يزوّجني بعد النجاح.. ورسوبي سيفرض عليه تأجيل الفكرة.

واضحةٌ بنت شعبان، كلامُها مباشر مُستقيم لا تعرف شيئًا اسمه التّمهيد.. وعليه لم أستطع أن أفهم على وجْه اليقين، هل جاءت لاستشارتي كصديق وجارٍ موثوق وأحدِ نجوم الثانوية، أم للإشارة أنها تفعل ذلك مِن أجلي، وتحاول وضع خطّة محْكمة تجعل مرادي ومرادها ممكنًا.. أنا غبيّ يا شربات لا أفهم الإشارات.. كدتُ أسألها: (هل أنا دافعك؟)

يا لَغبائي! كلّا.. الفتاةُ ستظنّ فيّ السوء لهذه الجرأة، وربما جاءت تسألني كأخ لها لما بيننا من أفضال ووثيقة سلام، وما تعهده عنّي من أدب وحياء.. أنا الآن أمام خيارين كليهما محيّر.

أميلُ أن أرجح قرارها لتبقى بعيدًا عن عيون الناس، فمثلها لو خرجت إلى المركز ستختطفها ألفُ عين وسيتوافدُ إليها العرسان.. لا، لا.. الأفضل لها ولي أن تقفزَ معي إلى الطريق نفسِه حتى لا تتخلّق فجوةٌ بيننا يصنعها فارقُ التّعليم، بالإضافة إلى أنّ بقاءها في الإعدادية سيعطيها فرصة لن تزيد عن عام، وستصير عروسًا مستحقّة لأيّ وغدٍ مارّ.

قلت:

- هناك حلّ أفضل.

- قل.

- تنجحين.

هزّت عنقها كأنها تقول ما هذا الغباء! جئتُ أستشيرك في الرّسوب فتقول لي (تنجحين!) وما الصعوبة في النّجاح، أصلًا أنا أنجح كلّ عام يا ذكي!.. لكنْ قبل أن تنطقَ أكملتُ فكرتي الألمعية:

- تنجحين بمجموع.

سكتتْ تريدني أن أتابع:

- وأظنّك لو لحقت بالثانوية العامة فسيتردّد أبوك كثيرًا في مسألة تزويجك، وربما يتركك تكْملين طريقَك، وتصيرين فخرَه الأوّل.. وحتى إن فعلَ فلن يكون العريس الوغدَ حبشي أو الولد حودة!

كانت المرّة الأولى التي أردتُ أن أنالَ فيها من حودة، وليتني ما فعلت، فقليلةُ الحياء لم يعجبها ذكْرُه بجوار حبشي، ثمّ تلقيبه بـ «الولد» على سبيل الإهانة؛ فاستنكرتْ لمْزي إيّاه مقاطعة:

- حودة ليس سيئًا يا هاشم.

بلعتُ لعابي لا أجدُ ردًّا على البجْحة قليلة الحياء التي كادتْ تقول (بل هو أفضل منك).. لا أعرف معنى دفاعِها عنه دونَ ريبة أو حساب لشكّي.. هل فقط لأنّ الفتى نبيل كما أعرف وعشرته لهم طويلة! أم لسببٍ أكثر وضوحًا أنها أكثر ميلًا إليه منّي، كما تؤكّد وقائع كثيرة.

تركَتني الغبيّة غارقًا في شقلبة جُملتها، وقرفصت أمام الباب مستجمعةً ثيابها على ساقيها، تقلّب الفكرة على مهَل، مُتناسية أنها في دارنا وليس أحدٌ فيه غيرنا، وأنا مشتّت بين ذكْر حودة الذي عكّر جلستنا حتى في غيابه، وبين المارين على الطريق.

انتصبتْ ثانية وهي تنفثُ منزعجة:

- لا، لا.. هذا صعب.

بالطّبع كنت متوقّعًا هذا الردّ، بل كنت أريدها أن تقول (مستحيل!) كما قلتها أنا منذ قليل؛ فكان ردّي جاهزًا أخذته نسخًا من المدعوّة المهندسة روضة حتى دون التفاتٍ أنّ شربات قالت (صعب) ولم تقلْ (مستحيل).

- المستحيلُ مقبرةٌ بناها الكسالى والتّافهون، يُهرعون إليها عندما تلسعهم حرارة المواجهات مع الحياة وشرار الناس.. اعملي نهارك واسهري ليلك على كتابك.. لا تخيبي فيك أمل أبيك وتوقعات محبيكِ.

قلتُ السّطرين بحماس أكثر من روضة نفسها؛ فقد أدركت أنّ هذا الخيار سيجعل حودة حامل الإعدادية خارجَ حساباتها.. وكدت أحرّف في الكلمة الأخيرة لأجعلها (حبيبك) لكنّها لم تردْ في النّص أعلاه.. ثمّ تبعت هذه الفقرة الدّستورية بخُطبة عصْماء عن الكفاح والعرق مقتطعًا معظمَها من كلام روضة الذي أحفظُ معظمَه.

ثمّ أوقفت شريطَ ثرثرتي عندما رأيتها تقوم مُنصرفةً دون استئذان شاردةً مذهولة، لا أدري هل اقتنعتْ بكلامي، وسيطر عليها الحماس لدرجة أنها نسيتْ أن تشكرني بكلمتها الأثيرة لدي (متشكرة)، أم رأت أنّ كلامي أتْفه مِن أن يجاب عليه، وأنها جاءت تستنصحُني باعتباري محلّ ثقةٍ فخيّبت أملها بكلام ساذج مكرور!

***

لم أتفاجأ بنفسي بعد أن حوّلت رأيي واجتزتُ الامتحانات آخذًا بنصْح روضة وأبيها معرضًا عن قراري الأوّل وعن نصيحة عمر؛ فحصلتُ على درجات عادية كما توقّعت روضة مكّنتني من دخول التحسين الذي هو بمثابة إعادةٍ شاملة في معظم الموادّ يشبه إعادة العام، لكنّ مفاجأتي الكبرى، بل دهشتي التي لم أكنْ أتوقّعها كانت في شربات التي حصلت بالفعل على مجموع الثانوية!

باجتهادها ربما، أو بضربة حظّ كهدفي يوم مباراة العيد.

***

مضى موسمُ البذْر والموالاة صعبًا بطيئًا، بل زاحفًا على بطنِه وسط أرضٍ صخرية ملأى بالأشواك.. لكنه مضى، ومضى موسمُ الاستعداد لدخول التّحسين واجتزت بعضَ المواد بمجموع محترم، وبعضها بالكاد النّجاح والإنجليزية بالدرجة النهائية، لكنّه مضى.

أخرج من الدارِ مع خروج الشمس مِن دارها وأروح مع رواحها، ازدادَ بدني قوّة برياضة أعمال الزراعة التي لا تنتهي، وقويت روحي مع شعوري باقتراب المرور من ذاك الخندق وبتعافي بركة قليلًا وبتشتّتي قليلًا عن التّفكير في مصير أبي، وصارتْ لي سمعة طيبة دفعتني وسطَ الرّجال قبل أن أبلغ سنّ الرجال الرسمي، وأختم يوْمي بالاستماع إلى أغنية نهاية «أرابيسك» وموسيقى عمار الشريعي التي تأتيني متهاديةً من فسحة (فراندة) شعبان؛ فتأخذني الكلماتُ كأنها موجّهة إليَّ مفسّرة قدري وعمري وخطواتي:

إنْ درت ضهرك للزمان يتركك

لكن سنابك مهرته تفركك

وإن درت وشك للحياة تسبكك

والخير يجيك بالكوم وهمك يهون

جاء الحصادُ بعد ترقّب طويلٍ وهمّ ثقيل، وكنتُ أخشى مصيرًا شبيهًا بمصير شراكتنا مع الحاج فؤاد.. لكنّني صرعتُ تشاؤمي بتفاؤلي وتوقّعي الحسن النّادرين الحدوث، فكان الكرمُ من الله واسعًا..والحلال يأتي بالحلال، هكذا كان.. كلّا.. هكذا يقول أبي، وليس كان.

حصدْنا الأرز أنا وأنور وسعد ومبروكة وعمّتي، بل جاء عمر يقدّم لنا الخدمات.. وجاء المحصول مضاعفًا ثمّ زادني الشيخ راجي أكثر من حقّي سعادة بي وامتنانًا وإغراءً منه لي كي أستمرّ أرعى له أرضه، فكان مدخلًا ميسرًا للرزق حاولت أن أسدّد بعضَ الدّيون وأتابع علاج بركة.

ثمّ فتح الله ببابٍ جديد، واسْتدعاني الأستاذ صابر عبْر أنور لأمر خَطير، وأكّد لي أنور باستشعاره الفريد أنّ النّاظر السابق يريد أن يؤجّر لنا الأرض، فهو بعد إصابته لم يعدْ قادرًا على مباشرة الأرض أو حتى المشاركة عليها.

كان جلّ همّي أن أضبطَ ميزان الحال قبل أن يعودَ أبي ليجد الأمر كما تركه، وقد كنت أترقّب رجوعه في كلّ وقت، وها أنا سدّدت معظمَ الكوات أو أوشكت، ولو عادَ أبي الآن فوجدني ناجحًا في الثانوية مسددًا مؤمنًا عيشة مستورة لنفسي وعمّتي وأولادها محافظًا على سيرته وسيرتي، سيكون أسعد الآباء.

قابلتنا المهندسة روضة بالتّرحاب وبعشَراتِ الأسئلة عن حالي وعالمي وكتبي كأنّني ابنها العائد من سفر.. وبالسّؤال الحتمي الذي كنت أجهّز له ردًّا طول الطريق:

- كمْ مجموعك بعد التحسين؟

رددتُ خجلًا وأنا أتوقّع أن تقابلني بعاصفةِ هجوم كعواصف مبروكة، فالرّقم بمقياس هذا العام والأرقام الكبيرة التي جاءتً نتيجة النظام الجديد كان عاديًّا:

- ثمانون.

سكتتْ قليلًا:

- لا بأس.. شدّ حيلك في عامك القادم.

قدّرت المهندسة ظرفي، وذاك العرق الذي خطّ خطوطًا في وجهي، وطبقة السّمار التي علت فوق سماري الأصلي، ثمّ أرادت أن تخرجني من حرجي:

- الأستاذ منتظرك في الغيط.. عنده لك خبر حلو.

ابتسمت منتظرًا إخباري إيّاه، فقالت:

- سيخبرك بنفسه يا عجول.

لم أستطعِ التّخمين، لكنّ الخبر بالتأكيد الأمر ليس متعلقًا بتأجير الأرض فقط، فهل قرّر الرجل الطيب أن يكتبها باسمي ولم يخبرني أنور لأنّ معلوماته دومًا ناقصة؟ أو ربما قرّر أن يزوّجني ابنته الكريمة التي تكبرني بستّ سنوات؟ ليس عندي مانع.. لكنّها لن تقبل أحمق مثلي، أو ربما..

وجدتُه جالسًا على مدخلِ العريش على كرسيّه المتحرك يهزّ جذعه مع أغنية قديمة في الراديو الأحمر الصّغير المعلّق في حائط البوص.. هشّ فوْر رؤيتي وكادَ ينهض ماشيًا:

- هاشم!

لم يعْطني فرصةً حتّى أتأمّله في مشهده الجديد، فهو كابنته لديه روحٌ أعلى بكثير من ترّهات أمثالي:

- كيفكم يا أبطال؟

رحّب بأنور، وامتدح أعماله وصيته في الفلاحة الذي يؤهّله الآن لمرتبة مستشار زراعي وليس فقط مهندس، ثمّ أعاد عليَّ أسئلةَ ابنته وأنا شاردٌ بين الخبر الحلو المتوقّع، وجلسته على الكرسي المتحرك متعجّبًا كيف يضحك ملء فيه وهوَ في هذه الحال.. مدّ يده فأغلق المذياع الصغير، وقال يمهّد لي، ولكنّ تمهيده كان فيه كلّ الكلام:

- عدتُ من عمرتي أوّل أمس.

الله أكبر.. كنت كلّما سمعت بعودةِ حاجّ أو معتمر في أجوارنا انطلقت إليه أسأله عن غائبي الحبيب كأنّني أتسوّل إجابةً بعينها؛ فلعل فلانًا قابله وجهًا لوجه فحمَّله رسالةً بخطّ يده تطمئني وتثبتني، أو لعل فلانًا تعثّر فيه في الأرض الطيبة فألقى التّحية والسلام، أو لعلّ فلانًا رآه مِن بعيد ملبّيًا وسط الأفواج، أو حتى شُبه لفلان شخص غريب فتخيّله هو؛ فيمنحني أملًا أتقوّى به على الأيام، لكني إلى الآن لم أسمعْ عنه خبرًا؛ بل في كلّ مرة تؤنبني عمّتي بأني أحمّل نفسي ما لا تطيق، وعليَّ أن أنسى قليلًا الأمرَ برُمّته حتى يأذن الله بخبر.

إذًا، هذا هو الخبرُ الحلو، بل أجْمل الأخبار.. قلت متعجّلًا أضعُ الإجابة على لسانه:

- رأيتَه!

سكتَ قليلًا، فبلعتُ لعابي منْدهشًا من عشْق الناس للدّراما حتى في حواراتهم.. نظرت إلى أنور مستفهمًا لماذا سكت؟ وقعَ قلبي في قدَمي يبدو أنّ الخضر يجهّز مفاجأة.. كلّا.. إلّا أبي.. أغاثني الأستاذ صابر بابتسامة:

- انتظرا حتى يغلي الشاي.

أشعلَ الوابور الذي يضعُه على جذع نخلةٍ عالٍ في العريش بمحاذاة ذراعِه، وعيني مغروسة في تقاسيم وجْهه الباسمة أخشى أن تتبدّل شيئًا آخر فيردّني إلى حالي، وربما أسوأ.. اقتربت منه أستعطفُه ليجيب.

قال باسمًا:

- نعم رأيتُه.

سحبتُ شهيقًا وعصرتُ جفني على جفني أحجز الدّمعات، وبعد ثانيتيْن أجهشت بالبكاء، وأنور يتابعني دهشًا وهو لا يدري ما السّبب، ومن المعنيُّ بالرؤية!

ربتَ الأستاذ على ظهري، وقد تفاجأ بردّة فعْلي السّريعة، رغم أنه لم يفسّر بعد، لكنّي كأنني شممت عطرَ أبي في كلمته اليتيمة.

مع مرورِ الرّجال على القنوات والسّكك يلقون السلام، وبعضهم جاء ليصافح الأستاذ مهنّئًا إيّاه.. لملمتُ ثيابَ دموعي خجلًا، وقطعت أشجاني، واستكمَلَ هو يكمل جملتَه على استحياء:

- فقط رأيتُه.. لم أستطعْ أن أدركَه فقد غاب عن ناظري في لحظات.. لكنّني واثقٌ أنه هو.. في وافر صحتِه وكامل البهاء.

ظنّ الأستاذ أنّ فرحتي ستنقصُ بمعلومته المبتورة، لكنْ لا.. يكفيني أنّه رآه، أنا إذًا صادقٌ وهو على قيد الحياة؛ بل في عافية.. مكثْنا على جلستنا قليلًا صامتين، يعطيني الفرصةَ في استنشاق عبيرِ أبي الذي حلّ في المكان مع ذكْره، ثمّ مسحتُ دمعي وشكرته واستأذنتُه بالانصراف حتى أعود إلى القاعة، وأنفرد بأبي وبصورته التي تجدّدت في خيالي وسط مكانٍ غير المكان، فأصنعُ منها تمثالًا وأضعُه في المشكاة بجوار الكتب وأردّدها كلما أوحشني.

استوقَفَني الأستاذ:

– لا يزال لك عندي كلام.

توقّفت:

– أؤمرني يا أستاذ.

أشار إلى أنور ليلقم الشّاي ويجهّز الأكواب.

– سأؤجّر لكما الفدّانيْن.. والمال آخذه آخرَ الموسم.

قالها كأنّه قرار.. وقفتُ متردّدًا فقد ضاع نصفُ تركيزي، فسحبني أنور لأجلسَ وتولي هوَ دفّة الحوار فهو السيّد، وهو القائد في مثل هذه المسألة.

قال الأستاذ:

– أنا وروضة سنرتحلُ إلى الإسكندرية بعد زفافها.

تردّدت مشاعري بين الانشراح والانقباض، فرحًا من أجْلها، وحزنًا لفراقها، ولوْلا فرحتي بأبي لرجحت كفّة الانقباض:

– المهندسة ستتزوج؟

- زميلًا لها في الإسكندرية.

احتضنتُه أداري اختلاطَ مشاعري مباركًا له، ولكنْ غلبتني دمعتي لا أدري مِن فرحتي بأبي، أمْ مِن حزني أنّ روضة ستغيب عني:

- يعزّ علينا فراقكما يا أستاذ صابر.

- ستجدانا على رؤوسكم كلّ صيف.

سكتْنا قليلًا.. فاستعجل إجابتنا.

- ماذا قلتما بشأن الفدّانين؟

قبل أن أردّ برفض أو قبول، سبقني أنور بالقرار:

- خير وبركة يا أستاذ صابر.. موافقون.

نظرتُ لأنور لا أدري أؤيّده أم أمتنع.. لكنِ اعْتبر الأستاذُ موافقةَ أنور موافقةً منّي.

- على البركة.. إذنْ نتعشّى معًا.

كدتُ أرفض، فأشار الأستاذ إلى فمِه:

- هسسس.. هيّا.. ادفع الكرسي يا ولد.

***

(٣٥)

تعافتْ نفسي كثيرًا بعد خبرِ أبي الذي منَحني نفسًا إلى أنفاسي، وثبّتني على مساري، ودرتُ أكرّر جُملةَ الأستاذ صابر ثمّ أتصوّر ما رآه، أبي بجلبابٍ أبيض وعمامةٍ خضراء كذاك الرجل الذي أراه في المنام.. يبتسم أبي من أمام الكعبة ثمّ يذوبُ في الزّحام.. ولم يعكّر ذلك المشهد الجميل إلّا فراقُ روضة وخسارتي نصحها الخالص.

لم أشأ أن أخبر عمّتي بتلك الرؤية التي لن يكون لها محلٌّ عندها من الإعراب؛ فهي تخمّن أنه لن يعود، بلْ أقرأ في عينيها توقّعَها الكئيب أنه مات.

أمّا الشيخ بركة فقد تعافى بدنُه، وطابت عظمةُ ترْقوتِه ولحمها وشحمها، فلم يعدْ في حاجةٍ إلى رعاية الطّبيب إلّا مرّة كلّ ستة أشهر لمدّة عامين أو ثلاثة.

لكنّ مزاجه الجميل قد تغيّر وتعكّر قليلًا، بل كثيرًا، ربما حسدته عيني، فهو الآن دائمًا غاضبٌ ساخط ثائرٌ فائر؛ فالطبيبُ القريب خانَ القسمَ وأخلف وعده، ولم يأخذْ شيخنا الصّغير إلى ردهات الإذاعة بعد أن ألقاه على شطّ الأحلام ليالي طويلة.

حاولتُ تطييبَ خاطره وتطبيبه بوعودٍ جديدة قد تجبر ترقوةَ قلبه وتداوي جرحها، فنحنُ سنذهب كثيرًا بعدَ ذلك للمتابعة، ولعلّه يفي بوعْده، وإن لم يفِ فسأوصلك أنا إلى الميكروفون.

لَوَى شفتيه وأشاح بوجهِه وهوَ يهَمْهم: أنت أيضًا كاذب.. وكنتُ بالفعل كذلك.

اليومَ قطع الجدّ عليه خلوته وربتَ على كتفِه، وأخبره أنه في المساء سيأخذه ليقرأ في عزاءٍ بعزبة إسكندر..

انتصبَ بركة سعيدًا:

- صحيح يا جدّ؟

***

جاء الجدّ في المساء ليفي بوعْده مع الصّبّيت بركة؛ فاستأذنته أن يمرّ معي على شعبان لننْهي أزمة العجول ونسندَ بها قوائمَ أيّامنا القادمة، وأرادت عمّتي أن تأتي معنا خوفًا من تطوّر الأمر إلى شجار، لكنّني رفضت مجيئها تحسبًا للأمرِ نفسه.

خرجنا وأنا شارد أثناءَ الخطوات القليلة بين دارنا ودارِهم في ترتيبِ كلماتي وحساب ردّة فعلي إذا ماطلنا الشّرير، وأيضًا في احتماليّة رؤية شربات التي قد تزيد الموقفَ إرباكًا، فتعقدُ لساني المعقود بطبيعة الحال.

مع انحناءتِنا من جرْننا لجرنهم وفي «الفراندة» الجديدة، رأيتها وليْتَني ما رأيتها؛ فالآنسة التي كنت أظنّها مهذّبة صاحبة حياء، وأنّ دخولها الثانوية سيصعّب مهمّة حودة، أو أيّ حودة إنْ أراد طرق أبوابها؛ بل كان خوفي أن

يظهرَ على ضفافها مَن هُم أنجبُ منّي ومن حودة، لكن يبدو أنّ قليلة الحياء سهلة المنال.

رأيتُها تقفُ مع الفتى الذي سبق ورفضتْه، وثالثتهما أختها خضرة تحمل على خصْرها رضيعتها، يتحدثون في شيءٍ ما، وربما يتضاحكون على نكتةٍ قالها السخيف الوسيم.

تصلّبتُ مكاني تحت عامودِ الإنارة متأخّرًا عن الجدّ أحدجها بغضبٍ كأنها زوجتي.. ألقى الجدّ السّلام، والتفتتِ الآنسة «إستر» فرأتني.. ردّت السّلام على الجدّ، ثمّ انصرفتْ مغادرةً المكان إلى داخل البيت، ما يعني أنّ ظهوري أرهبها.

هشّ حودة مصافحًا الجدّ بابتهاج، وقابلني باسمًا كأنه لم يفعل شيئًا قليل الحياء، بل ربما يبتسم متعمدًا إغاظتي، فكدتُ أسأله: ماذا تفعل هنا؟ ألم ترفضك مِن قبل؟ ألم تيْأس منها بعدُ وقد صارت ابنة الثانوية؟ لكنْ راعيت الودّ الذي بيننا وموقفه الذي يصعبُ أن أنساه فصافحته ودخلت خلف الجدّ.

غادرَ حودة مع وصولنا ليفسحَ لنا مكانًا في (المندرة)، وربما لأنّه أنهى حديثه مع قليلة الحياء ولم يعدْ بحاجةٍ للبقاء، وربما أنهى ترتيبَ الخطبة مع شعبان وأنا جالس بدارنا كـ «البلاص» بعد أن أوهمتني الخبيثة أنّ دخولها الثانوية كان من أجلي.

دخلتُ متجهّمًا وقد أضيف إلى رصيدِ غضبي الذي خرجتُ به من دارنا شحنة غضبي التي دخلت بها دارَهم، وهو ما رجّح اندلاع معركة مبكّرة في بيت قليلة الحياء.

قابلَ شعبان الجدّ بالأحضان وبضحكته الصّدئة الباردة محاولًا امتصاص أيّ نية للانفعال من قبل الجدّ الوقور، وقابلت "عيد" الذي لم أعدْ أراه إلّا نادرًا، وعلمتُ أنه أنهى معهدَه بسلام، وصار الآن معاونَ أمنٍ في أحد الأقسام.

دخلتْ قليلةُ الحياء بالشّاي، ووزّعته بتأنّ، وانتهت بي فتوقّفت قليلًا، وأنا مشيح بوجهي كزوج هاجر أو حبيب ثائر، وشعرت أنها كانت تحاول جسّ حالتي ومحاولة استرضائي، وربما فكّرت أن تهمس لي لتفسر بسبب وقوفها مع ذاك الطّويل لتبرئ نفسها بحجّة واهية أمامي.

وضعتْ قليلة الحياء صينيةَ الشّاي وانصرفت، وانصرف معها آخرُ خيوط حِلمي عندما رأيت شعبان ينفي - ببجاحة - حقّ أبي الذي أعرفه ويعرفه الجدّ ويعرفه الشيخ راجي شقيق زوجته، فقلّصه إلى عجل واحد.

صحْتُ:

- أنت كاذب.

قابل الجدّ جُملتي الشّاردة المتعجّلة بغضب قبل أن يصطادها شعبان «تلكيكة» ويغلق باب الكلام ويرمي الغلط في ملعبي مبكرًا:

- اصمتْ.. حقّك علينا يا معلم شعبان.

أدركتُ أنّ تشنجي ليس فقط بسبب إنكارِ شعبان، بل مزاجي العَكر سببُه الأوّل قليلة الحياء، بالإضافة أني أدركت أنّ الوغد أباها سيصير عقبة يستحيل إزاحتَها إذا ما فكّرت أن أضمّ الجميلة إلى داري، هذا بالإضافة إلى عقبة السيّد حودة الذي يبدو أنّه لم يغلق ملفّه بعدُ مع شربات رغم دخولها الثانوية، يا لَهُ من مجالدٍ صبور!

لم يغضبْ شعبان من جُملتي، بل اعتبر الأمر هديةً، وصار هو الطيب الوديع، وهزّ رأسه كأنه الحليم الكريم.. والأغرب أنّ ولده عيد لم ينفعلْ من جُملتي أو يردّها عليَّ، بل كان يرشق أباه بين جملة وأخرى بنظراتٍ لا تختلف كثيرًا عن نظراتي.

قال شعبان:

- نتحمّله من أجل عيونك يا عمّ عبد الباسط.

استكملَ الجدّ استلطافَه واستعطافه ليقتنصَ منه حقّنا أو جزءًا منه، واستمرّ شعبان في نكرانه الكاذب ولفّه ودورانه وزوَغَانه.. تململتُ في مكاني ووضع الجدّ يده على ركبتي وضغطَ بقبضته كأنه يقول لي (إياك أن تنطق).

حاول الجدّ تذكيره بالله والجنّة والنار وعاقبة المال الحرام؛ فاعتدل البعيد ورفع سبّابتيه إلى السماء مقسمًا بالله وأغلظِ أيْمان المسلمين أنّ المعلّم عبد الحميد لم يكنْ له إلّا أربعة عجول نفقَ منهم ثلاثة، والرابع هائج تلفان.

وأنا مع كلّ جملة لشعبان أتململُ وأنفخ وأرقبُ "عيد" الذي يحدج أباه بنظراتٍ حارقة، ويريد أن ينطق ويعلن أنّ أباه كاذبٌ فاجر، لكنْ يخشى العاقبة من ذاك الدميم الذميم.

أخرج الجدّ الطيب من صديريّته رقعة ورقية بدا أنها صفحةٌ من مصحف قديم ليقسم عليها شعبان؛ فظننتُ الوغد سيتمنّع في البداية على طريقة أهلنا عند الحلف على المصحف، فالأمر في عرفهم كارثي وخطير، لكن اللّص اختطف التّميمة سعيدًا ليقسم ثلاثًا، انتفض عيد وانصرف مسرعًا من المكان وأنا وجدّي نتابعه.

أدرك جدّي وأدركت ماذا يعني انصرافُ عيد بهذه الطريقة، نظرت لجدّي فهزّ رأسه هزّة ترجمتها: استعوض الله.. فإنْ كان هذا الشيطان استحلّ القسَم على آياتِ الله فليس فيه رجاء.

تسمّرت أضغطُ على ضرسي أريد أن أنفجرَ في ذلك الوغد، لكنّ جدّي ضغطَ ثانية على ساعدي وهو يحدّث شعبان:

- إذًا، أنتَ تقرّ أنّ لهاشم عجلًا.

- أجل. حدّ الله بيني وبين الحرام.

- ومتى تسلمه؟ أو تسلم ثمنه؟

- قبل أن أسلم العجول للتاجر سيكون عندكم ثمنُه.

نهضَ الجدّ:

- نستأذنُ الآن.. هيّا يا هاشم كي ندرك العزاء.

استوقفنا عيد في الخارج:

- يا جدّ عبد الباسط.

التفتَ له الجدّ، ووقفت أتابع ماذا سيقول عيد:

- أنا بريء يا جدّ ممّا يقوله أبي ومن ماله الحرام.. ولو أردتم عقد «جلسة» سأكون أول الشهود.

دقّقت في عيد دهشًا وقد صار شخصًا غيرَ هذا الذي أعرفه، غير هذا الذي كنت ألكمه ويلكمني وأصرعُه ويصرعني، بل إنّ ملامح وجهه تغيّرت، وعيْنه التي كانت غائرة متنمّرة اتّسعت وبرقت، لم يعدْ بتلك الشّراسة وحالة الاستنفار الدّائم.. عجيب! هل من المْكن أن يتغيّر الناس بهذا الشكل وبهذه السرعة! لكن ترى لماذا تغيّر وماذا غيره؟

ربتَ الجدّ على كتفه:

- أنتَ شهمٌ نبيل يا عيد.. لكنْ لا تخسر أباك.

***

في طريقنا للعزاء ظللْتُ أسب اللعين، وأعاتب الجدّ على مهادنته مع هذا اللّص الفاجر.. فأكد الجدّ أنّ بعض الحقوق أحيانًا تحتاج للتفريط.. صُدمت من جُملته ونظرت إلى وجهه على ضوء القمر وتوقّفت في مكاني:

- التّفريط يا جدّ؟

هزّ رأسه بـ(نعم)، وسحب يدَ بركة وواصل المسير، واستأنف صدمي ولكْمي:

- بل أحيانًا نضطر للتفريط في حقّ كامل حتى لا يضيع حقّ أكبر.

- أنت عجيب يا جدّ.. تعلّمني الرجولة، وفي الوقت نفسه تبرّر الـ...!

- النّذالة تقصد؟

سكتُّ محرجًا، واستطرد هو:

- عصا القدر يا هاشم قد تهبُ لخصمك حقًّا لك وهي لا تريد حربًا بالتأكيد.. ولكن تريد أن تعلمك كيف تأخذه، أو ربما كيف تتنازل عنه.

- هذا عبثٌ يا جدّ، وتعمّدٌ للإيقاع بالطيبين؛ فكيف يرمي القدرُ برأسي بين أنياب الشر؟!

- اختبارٌ كسائر الاختبارات كاليتم وكسر العظام والفقر وغياب الطيبين وفراق المحبين.

- وهل يفهمُ اللصوص هذا؟

- كلّا.. اللصوص لهم قوانين غيْر تلك التي يضعها لنا الله.

وقبلَ أن أسيء فهمَه استكمل:

- اللهُ وضع قوانينَه لعبيده، وترك لهم حرية الاختيار؛ ففريقٌ ارتدى ثوبَ العدالة ووضع على قلبه الميزان، والكثيرُ دخل في عباءةِ الشيطان، والأخيرون

التزموا قانونَ الزحام والغصب والأكل الحرام.. وعليه فالأوّلون مطالبون أن يدركوا كيف يتعاملون مع دولة الشيطان.

التفتّ له مغاضبًا أريد أن أستدرك وأعترضَ وأناقش، فاستطردَ يردّ عليَّ، وكأنّه يعلم ما سأقيئه من كلام مكْرور:

- اقتناصُ الحقّ شيء جميل ونبيل.. لكن إن كان اقتناصُ الحقّ سيضيع حقًّا أكبر فالاستمساك بالأول غباء.. لا بدّ أن تختار بين البدائل، توازن أيّهما أقرب لك فتترك شيئًا وتأخذُ آخر، فتدرك متى تغضب ومتى تحلُم ومتى تنفجر ومتى تصبر ومتى تسالم ومتى تضرب؛ فالشّيطان مخلوقٌ عامل نشيط ليس له مكان في ساحة المتفرّجين، أو على شونة القشّ، بل هو أحدُ الحكّام في هذه الحياة.

قلتُ معترضًا:

- وهلْ لو فرّطنا في جزءٍ أو في حقّ كامل سيترك لنا اللّص الجزء الآخر أو الحق الآخر؟!

- استنكارٌ حكيم.. والإجابة مِن زاويتين: أولاهما أنّ قانون الخلق سخّر الجميع للجميع.. فأبقى دومًا ثغرةً لطالب الحقّ يغري بها اللّص لأنّ اللصّ لا محالة سيحتاج لشيء عند صاحب الحقّ. وثانيهما: أنّ اللّص قد يكون خارجَ هذا القانون، بمعنى أنه قد نالَ كلّ ما عند الطيب من حقوق وأخذ كلّ ما يملك.

- نعم هذا ما أقصده.

- سيصيرُ من الغباء أن تخاف خسارةً وأنت لا تملك ما تخسره أصلًا.. وحينها اضربِ الشّر على بوزه.

ضحكَ بركة ضحكتَه الصّافية، وهو يردّد:

- على بوزه.. هههههه.

فضحكَ الجدّ على ضحكةِ بركة، وابتسمتُ محاولًا بلعَ كلام الجدّ غير المقنع فلم يبتلع.

بتّ ليلتي أستعيد مشهدَ حودة مع شربات، وأتخيّل أني صفعتها على خدّها، فجثت على ركبتيها تعتذر فسحبتُها من ضفيرتها إلى أعلى لتعتذرَ بطريقة أخرى.. أضبط رقدتي وأدورُ على الجانب الآخر فأتذكّر شعبان الكاذب النّتن، وأستغرب لحلم الأقدار عليه وهو يستحقّ الحرق بالنار، لكن منذ متى والخضر يتصرّف التصرّف الأمثل.. اعتدلتُ إلى ظهري، ثمّ غفوتُ لأرى صاحبَ العمامة الخضراء يأتيني الليلة يحمل جثمانَ طفل صغير في قماشةِ كفن.. اقتربت متوجّسًا، دقّقت متردّدًا خائفًا، فوجدته رضيعًا بوجْه عيد.. انتفضتُ مُستيقظًا مفزوعًا من المنظر الغريب.

***

(٣٦)

تغيّر جدول يومي كثيرًا، فألغيتُ خانةً ودوّنت أخرى، وصرتُ أقضي معظمَ وقتي في القاعة، ثمّ تحوّلت القاعةُ إلى حجرتي الوحيدة التي عزلتُ فيها نفسي بإرادتي أولًا، ثمّ برغبة مواربةٍ من عمّتي التي ترى رجولتي قد خطّت طريقها، والأفضل أن يكونَ بيني وبين مبروكة سياجًا على اعتبارِ أنها أنثى؛ فرغم أنّ عشرتنا جعلت منّي أخاها وجعلت منها أختي، لكنّ الواقع يقول غيرَ ذلك، وصار مِن الأسلم أن تضع لجنسنا اعتبارًا، وأيضًا لأنها خُطبت فضروريّ أن يعرف خطيبها أنها لا تعيش مع شابّ في المكان نفسه.

وجدتُ في خلوتي السّلوان والنّسيان، ومدّت من خلالها يدي في مشكاة الزمان فاختطفت حلوها لأئتنس به وأستروح في أيّام نكدي وكدري؛ فرائحةُ أبي المتناثرة على أغلفة الكتب القديمة وأوراق الجرايد المرصوصة في جوْف المشكاة وسبحاته المعلّقة وأبريق وضوئه، ثمّ وجهه الذي رآه الأستاذ صابر يفرد جناحه حولي فيحفّني ببعض سكينة ويربتُ على قلبي.

ووجدتُ في القاعة المكانَ الأمثل لمذاكرتي دون إزعاج في آخر محاطي مع الثانوية، والتي أنتظر بعدها فرجة جديدة في طريقي المغبشّة.

***

بعد صلاةِ التراويح صعدتْ مبروكة إليّ بطبق حلويات وجلست تأكلُ معي، وعينها تبرقُ بفرحة مكتومة خلفَ سحابة خجل، أدركت أنّ في جوفها شيئًا تريد أن تتخلّص منه، فأخبرتني متردّدة:

– سليم يريد تحديد الفرح معك.

انحشرتِ اللّقمة في مجراها رغم السّيولة المرورية، ووقفت متردّدة بين الهبوط أو العودة إلى موضع الإقلاع.. حاولت أن أخفي صدْمتي أو أخفّف ظاهرها، والحمدُ لله أنها دفنتْ نظرها في جوف الطبق كأنها منشغلة بالطّعام، ربما حياء منّي كعادة البنات في هذه المواقف، أو ربما لتوقّعها ردّة فعلي المصدومة المهزومة.

مبروكة كانت أختي وصديقتي، وظلَّ أمّي بعد أمّي، وخطبتها كانت إجراءً روتينيًّا لم أتخيّل أنه سيتحوّل حقيقة هكذا، وتصير عروسًا ويخطفُها سليم بعيدًا عني، صحيحٌ لم أتخيّلها زوجة لي، ولا أظنّها في يوم تخيّلتني زوجًا لها وإن كانت تغارُ عليَّ أكثرَ من زوج، حتى أهلنا لم يكرّروا ذلك كعادة الأهالي الذين في بيتِهم أنثى وذَكَر متقاربان، وربما ساعد تساوينا في السنّ على استبعاد ذلك التصوّر، لكن مفاجأتي- كما تعلمُ هي- أنّ مغادرتها البيت هو هروبٌ لآخر جنودي وانهدامٌ لآخر حصوني وسقوط الفرع الخشبي الذي كان يسندُ الجدار.. هكذا سأصيرُ في العراء، فبعد رحيلِ أمّي ثمّ غياب أبي وظهور روضة المفاجئ ثمّ رحيلها؛ ها هي السيدة مبروكة تلملمُ ثيابَها لتعلن انسحابها من حياةِ ذاك البائس المحبوس في صندوق الخضر.

لكنْ ماذا كنت أتوقّع غير هذا؟ قد سكنت التّاسعة عشرة، وهذا يعني بيْن الفلّاحين أنها تأخّرت كثيرًا في الزّواج، بل الذّكور أنفسهم يتزوّجون في هذا السنّ، بالإضافة أن هذا مصيرها في النهاية لبيتٍ غير بيتنا، إنها كانت موفدةً قامت بدوْرها في حياتي، وجاء الوقت لتقوم بدوْرها- ربما الأكبر- في مكانٍ آخر على خريطة الحياة، ربّما لا أرى أنّ هذا هو الوقت المناسب، لكنْ منذ متى

ورؤيتي تصيب، بل منذ متى والخضرُ يضع لرؤيتي أيّ احترام.. وعليه آنَ الأوان أن ترحل كما رحلَ الآخرون، وربّما يكون رحيلها إفساحًا لغيرها.

على وقْع صوتِ نغم «ليالي الحلمية» الذي يرتفع بفعْل فاعلٍ مع توقيت المسلسل ويتهادى إليّ من كوّة القاعة، وعلى نحيبِ كمان «ميشيل المصري» و«أكورديونه» البديع، أخذت نفسًا عميقًا وفعلتُ كما كان يفعل أبي عندما لا يكون ردُّه جاهزًا، فبلعتُ لعابي أجمع شتاتي وأركّز في ردّ مناسب:

– ومتى يريده؟

– بعدَ غدٍ يشتري بقيّة الشبكة، وبعد شهر الزفاف.

أجابتْ بسرعة تريدُ أن تنجزَ مهمّتها التي جعلتها تجلس لأوّل مرّةٍ أمامي بهذا الأدب النادر.. اختلجت الدّماء مجددًا في مجاريها؛ فتحرّكت في مكاني أخفي ارتباكَ ملامحي:

– بهذه السرعة؟

– الشقّة صارت جاهزة، وجهازي مكوّم منذ رحيل خالي.

لم يعجبْني تعبيرُها عن سفر أبي برحيل كأنّها تؤكّد خيال أمّها المتشائم.. لكن لعلّها لا تقصد.. أو تقصد لا بأس بجُملة الأوجاع.. قالت مبروكة توقظني:

– وأنت؟

فهمتُ سؤالها لكن أردتُ أن أعطي نفسي فرصةً للتفكير؛ فأنا أعرفُ أنها بَجحة صريحة، وستقول الاسم جهارًا، وربما تقوم لتصيحَ به من الكوّة التي لم يعلم بسرّها أحد إلى الآن.

– وأنا ماذا؟

– أمَا آن لـ(درفة الباب) أن تجد نصفها الآخر؟

– نخلص منك أولًا، ثمّ نفكر في أمر الدرفة.

– الوقت ليس في صالحك يا طيب.. الصبيّة فاتنة، وتقدّمَ لها إلى الآن عريسان، وأعطتك فرصة طيبة بدخولها الثانوية فلا تضيّعها.. وربما تتحوّل الفرصة إلى قرصة، وتدخل علينا العزبة غدًا بكومة عرسان.

حاولت التملّص منها:

– مَن تقصدين؟

قالتْ وقد عادت لسَحنتها الطبيعية المتحفّزة دومًا:

– أنت أحمقُ بالتأكيد.. لا داعي للتغابي.

– الظّروف لا تسمح الآن.

وقفتْ وقالت متهكّمة:

– أحسنت.. دعْها لمن ظروفه أفضل.

انصرفتْ مبروكة وقد ختمتْ بجُملة تعرف أنها صفعةٌ جيدة من سيّدة حكيمة تعرف كيف تستفزّ الرّجال.. تكوّرت في مكاني واضعًا ركبتي بين ساعدي مستندًا إليهم بذقْني شاردًا في تصريح مبروكة المنطقي.

لا أدري ما عدتُ أفهَم الخضر، بل لم أفهمه يومًا قط.

أفقتُ على وقْع حجر على جدار القاعة من ناحية جُرن شعبان، انتصبت وارتقيت الكتلة الحجرية لأنظر من الكوّة؛ فوجدت شربات واقفةً بالجرن تستعدّ لإلقاء حجر آخر، لكنّها توقّفت عندما رأتني طللت، ثمّ أشارتْ إلى التلفاز الذي يتوسّط مندرتهم الجديدة.

نزلت عن الكوّة وأنا أحاول الاستيعاب.. بعد دقيقةٍ فهمت أنّ شربات تعرف أنني أتلصّص من القاعة كي أتابعَ المسلسل، وأنهم يدخلون التّلفاز إلى الحجرة الخارجية في الشتاء، فهي تحتال وتضعه في مقابلة كوّة القاعة، وتتعمّد رفعَ الصّوت حتى أميّز الصور البعيدة عني، ولما لم ترَ ظلّي خلف الكوة ألقت بالحجر تنبّهني.. يا خيبتي!

ابتسمتُ للخاطرة، أربكتني، ولشربات التي حيّرتني بين رغبتها التي تكون واضحة صريحة ثمّ غموضها الذي يشوّش عليَّ أحيانًا.. زادت زخّات المطر التي بدأت تتسرّب من أحد أركان القاعة في إرباكي، كأنها تنبّهني أن أستدفئ، فضممتُ نفسي إلى نفسي ونمتُ راحلًا إلى الأحلام؛ فوجدت أمّي في انتظاري تحتضنني حتى الصباح.

***

(٣٧)

في المساء التّالي، قبيل مدفعِ الإفطار.. طرق أحدُهم بابَ القاعة، ظننتُها خليلتي الوحيدة:

- منذ متى تطرقين الباب يا..

كان الطارقُ شربات وفي يدها صينيّة طعام.. اعتدلت مرتبكًا، وقبل أن أردّ تحيتها، بادرتني وهي تتأخّر إلى باب القاعة كإجراءٍ احْترازي أو ادّعاء الحياء من قليلة الحياء:

- ذهبت العمّة ومبروكة وأمّي لشراء الذهب.. وكلفوني بإفطارك.

لم يكنْ في ذهني متّسع لأستنكر عدمَ إخباري فأنا منشغل طوال اليوم في الغيط، وأنا الآن ليس عندي وقتٌ لأنشغل بغير تلك الواقفة أمامي، بل ليس عندي وقتٌ أن أسألها عن وقفتها المريبة مع حودة.

استدارت لتنصرف فلم أردْ أن تفوتني تلك الفرصةُ لأصطاد منها أيّ شيء يفكّ عقدة تلك اللحمية المتكوّرة في فمي، وأفعل شيئًا من وصية مبروكة:

- كيف فعلتِها؟

التفتت وأدركت أنّ سؤالي المختصر عن عبورها المفاجئ إلى الثانوية العامة رغم أنّ العزبة كلّها تعرف أنها لم تكنْ بهذا النبوغ، تنجح صحيح.. لكنْ ليس لدرجة الوصول للثانوية.

قالت بابتسامتها الذكية:

- كلماتك فعلتها.

شعرت بهدهدة جميلة وإطراء أكثرَ سحرًا من إطرائها الكاذب يوم شبهتني بـ«أميتاب»، هذه الفتاة تملك رشاقة في قاموسها ينبئ بأنّها قد تصير روضةً جديدة لو تركت المرآة قليلًا.. استدارت لتنصرف من المكان، وقد أدركتْ أنّ كلمتها وقعت موقعَها المراد، كدتُ أقول لها الحقيقة؛ فالكلمات من نحت المهندسة حرفًا بحرف سوى الخطبة العصماء.

استدارت منْصرفة، قفزتُ من موضع فراشي وراءها قبل أن تصلَ بسطة السلم:

- منذ متى تعلمين أني أتابع من الكوّة؟

استدارت، وعلى وجهها ابتسامتها الذكيّة الشهية التي تكاد تنطقُ قبل أن ينطق لسانها:

- منذ أن غنيت لك.

أمامَ جمالها وجمال جُملتها لم ألتفتْ إلى فحْوى الخبر الذي يؤكّد أنها كشفت عاري منذ أربع سنوات.. عدّلت وضعيّة عنقي كأني أمام مشهدٍ جَمالي يستحقّ الانتباه، ودارت عيني أمام خريطته أبحث له عن بداية أو نهاية لأنّه كلّه جميل وكلّه جَمال.. ظللتُ متسمّرًا أقرأ ملامحها وأعيدُ وأزيد.. عيونها الهاربة لتوّها أحدُ البساتين، شعرُها البني الذي لا يزال يتلصّص من تحت قماشتها الزاهية،

جبينها، خدّها، قدّها، كلّها.. صارت كزرعة ارْتوت منفردةً في موسمٍ شتويّ فاخضرّ العود وأثمر واستكبر على الحصاد ولا يزال مستكبرًا.

طالتْ جرأتي مع نظرتي الطويلة التي لم تنكسرْ ومع ثباتها أمامي كلوحةٍ زيتيّة تستشعر إعجابَ المتطلعين لا تحرّك إلّا عنقها الذي يدور خلفَ عينها في أرجاء الحجرة حياءً من مواجهة عيني التي تبجّحت بشكل استثنائي، ربّما من مفعول ذلك المخدّر الأخضر في عينيها.

تسلّل الشيطان إلى عتبة المكان الذي طالما تُلي فيها القرآن.. بيني وبين الزّلل خطوة وربما زللت بالفعل تحت غواية النّظرة التي طالت الخريطة كلّها، أنهارها وبحارها وهضابها وسفوحها.. ونفسي المتعبة مهيّأة لمثل هذا الزّلل وأكثر، بل في لحظةٍ توهّمت الجميلة تقول «هيتَ لك»، لكنها في اللحظة نفسها، وكأنها أحسّت أنّ الأمر غادر ساحةَ البراءة إلى زنزانة النّزوة، وأنها خُدعت في وقح مثلي وكانت تظنّه الأكثر حياء في النّاحية؛ بل يعطي لنفسه الحقّ في مغاضبتِها على أفعالٍ تافهة؛ فكذّبَت خاطري المنفلت وقفزت إلى السلم ثمّ إلى الخارج.

***

أفاقني، بعد ساعةٍ من الشرود الجميل مع الجميلة، ومن بعض تأنيبِ الضّمير لنظراتي الوقحة الجريئة، صوتُ مباركات وتهنئات في بهْو الدّار- الصّامتة منذ عامين- ترحيبًا بالعروس العائدة بالذهب والياقوت والمرجان.. كستني حالةُ رضا بالشّوط الذي قطعته مبروكة معي، وقرت نفسي وأقرّت

أن تلك هي النهاية المثلى لها، والتي تستوجب منّي الفرح؛ لا سيّما وأنّ الثقب الذي خشيت أن تتركه في قلبي تعمل الآن إحدى الطبيبات على خياطته.

نزلت قافزًا على درجات السلّم الطيني لأدرك الفرحة طازجة وأهنئ العروسين وأشارك في مهرجان الفرجة على قطع الذّهب.. بادرت مبروكة نحْوي تعتذرُ عن عدم انتظارهم لي فقاطعتها بابتسامة تترجم حالتي المنْتَشية، والتي لن يعكّرها أيّ انتقاص أو تجاهل، وأشرت بعنقي ألّا تكمل الاعتذار، وبادرت نحو عريسها البشوش أهنّئه وأحتضنه.

دلفتْ شربات مجدّدًا إلى بهْونا واستفتحت دخولها بزغرودةٍ مبهجة فاتنة، وحرصت هذه المرة ألّا تطارد عيني عينها لأؤكّد لها أنني الحيي كما أنا.

بعدما استأذن العريس الطيّبُ ليدرك سيارات إيتاي، أكملت السّهرة بين عمّتي وخالة اعتماد وشربات ومبروكة وخضرة.

قالت لي مبروكة الجريئة بصوتٍ مرتفع بعد أن دارت في فستانها دورةً كاملة كأنها تستعد للطيران:

– أنا أجمل أم شربات؟

تعمّدت العروس الشريرة، التي انقلبت فجأة كما انقلب الولدُ عمر وتخطّت جرأتها المعدودة عالمها الصغير معي، وفي الدار إلى العالم الكبير والزحام فلم تعدْ تولي أحدًا اهتمامًا، أن تورّطني أمام هذا الحشد، وكأنها تخبرني أنها تعلم بسرْسوبِ العشق الذي بدأ يتقاطر إلى قلبي.

بلعتُ لعابي محرجًا على طريقة «يكاد المريب»، وجفّت الضحكة على وجه شربات واستبدلت به حياء زائغًا غزا وجنتها بالاحمرار أمامَ هذا السؤال الظّريف الذي بدا للجميع مزحة؛ فشرباتُ هي جميلة العزبة وعليه فوقْع الكلام عاديٌّ، لكنّ الأمر لم يكنْ بالنسبة لي مزحة بعد تطوّرات الليلة وما قبلها.

زادَ صمْتي الوضعَ إرباكًا، وزاد ورطتي أنّ الآنسة شربات تمكّنت من أنفاسها وأمالت عنقَها تنتظر سماع ردّي كأيّ أنثى تحبّ الإطراء، وأنا أشعر بنظرتها دونَ نظر، فرغم أنّ السّؤال بدأ هازلًا إلّا أنّ حالتي المُكهربة وحرجي المبالَغ فيه حوَّله إلى مسألةٍ جادّة تحتاج بتًّا في الحال.

شعرتْ مبروكة بوحْلتي، فأنا لم أتجرّأ بعد كما تجرّأت هي وعمر؛ فمدّت يدَها تنقذني، تقول بطريقة شعرية:

- قل الحقّ ولا تخجل.. غرام خاتون طبعًا أجمل.

لم أفهمْ معنى غرام خاتون، لكنّ انصراف البيضاء في حياء أوضحَ أنها المقصودة.. ثمّ تمت عملية الإنقاذ بوصول صاحبات مبروكة اللاتي دخَلنا ليبدأن ليلة غنائية طويلة احتفالًا بالعروس.

***

(٣٨)

هدأتْ نفسي قليلًا فقدْ ملأت شربات فعليًّا فراغًا لم يعدْ ينقصه إلّا المصارحة بالكلام والتقدّم لخطبتها ليتحوّل خطّ الخيال المرسوم بالرّصاص إلى لونٍ واضح يحدّد الملامح، ويجعل لدبيب قلبي معنى وأيضًا يدعمها في مواجهة أبيها إذا جاءَ عريس ثالث، خاصّة وأنّ انضمامها للثانوية جعل الفرصةَ صعبةً على الكثيرين من بينهم حودة، ولستُ واحدًا منهم، ولكن، كما أوضحت العفريتة مبروكة، فقد يسهّل انضمامها للثانوية الفرصة على آخرين من جهةٍ أخرى.

لكنّ الظّرف الذي أعيشه الآن يمنعني من التقدّم لها أو مفاتحتها بشكل خاصّ لحجز مقعد في طابور المتقدّمين أو في قلبها، وعليه فقد قرّرت أن أكتفي منها بإشارات الاستلطاف المتبادل والذي يرجحه من حولنا، واعدًا قلبي ألّا أجهده بتلك النّظرات مجدّدًا، وكانت هذه رؤية السيد عمر أيضًا الذي لا يرغب ابتداءً أن أكمل هذه العلاقة.

انقطعتْ ليالي التّلفاز في الشّهر الذي سبق زفاف مبروكة لعدّة أسباب؛ أوّلها أن البنات كن يتجمعنَ كلّ ليلةٍ ليغنّين ويرقصن في دارنا، وبالطّبع كانت شربات قائدة الأوركسترا، وبالتالي لا تشغّل التلفاز وإذا شغّله غيرها لا يرفع الصوت، أو لا يفتح نافذة الحجرة كما كانت تفعلُ هي، بالإضافة أني منشغلٌ بمذاكرتي ولا أريدُ أن ألتفتَ عنها بأيّ شيء فمهمّتي صعبة أو

مستحيلة، والمهندسة ليست هنا لتقرأ عليَّ مادتها الدّستورية عن الكسالى والتّافهين، بالإضافة أنّ الوزارة ألغت نظامَ التّحسين متواطئة ضدّي مع الأيام والخضر.

قبيلَ الزّفاف بأسبوع انتقلت الاحْتفالات إلى بيت شعبان الأوسع من دارنا، لازدحام المكان لدينا ببقية أجهزة العروس ولوازم الزّفاف وطوارئ خبيز الكعك، وأقضي جلّ ليلي؛ إمّا مع عمر أو في القاعة مع الشيخ بركة أقرأ عليه ويقرأ عليَّ.

لفتَني صوتُ البنات من دار شعبان يصحْنَ على طريقة الموالد: شارباااات.. شارباااات.. شارباااات.. ما يعني أنهنّ يطلبنها للنزول في ساحة الرقص.. بدلت متعهّدة تشغيل «الكاسيت» الشريط المشغّل، فأسكتت «فاطمة عيد» وأدارتْ شريطًا ليس فيه إلّا صوت رنّة طبلة متّصلة على نغمة راقصة تشرح أنه صنع خصيصًا لحالة خاصّة.

يا وقعتك السّوداء يا هاشم أفندي!

أنا لم أفعلْها طيلةَ الليالي السابقة، ولم أحاول مراقبةَ رقص البنات ولم أكن أجرؤ؛ وذلك حياءً مني أولًا، وخوفًا من أن يشعرَ بي ذاك الشّيخ الصغير ثانيًا، ولأنّ عمر يطبّ عليَّ فجأة ثالثًا، ولأني أذاكر رابعًا، ولأنّ شربات تستطيع أنْ تراني من مكانها خامسًا، ولو رأتْني شربات أتلصّص عليها على هذا النحو قد تبصق في وجْهي في أوّل لقاء، فقد سبقَ وتجاوزت عن نظرتي الوقِحة منذ أيام واعتبرتها هفوة شيخ، لكن هذا الفعل المشين من شابّ يدعي الحياء تجريس وعار.

لكنْ لم يفلح ضميري في إسكاتِ رغبتي؛ فذكر شربات على هذا النحو ومع رنّة الطبلة هذه أحيا شيْطاني المراهق- أحرقه الله؛ فألقيت كتابَ الفلسفة جانبًا واستأذنتُ «بركة» دقائق كي أرتّب كتب المشكاة وأنا أريد أن أرتّب شيئًا آخر، ثمّ ارتقيت الحجرة الكبيرة وأنا أتلفّت للشيخ الصغير كأنه سيبصر الآن.

رفعتُ جبيني ببطء حتى صار المكانُ متاحًا لنظري.. رأيت البنات يدفعْنها وسط دائرة المحتفلات والمطبّلات والمزغردات أمامَ العروس في منْدرة شعبان المطلّة على الجُرن بابًا ونافذة وهي تتمنّع في حياء، لكن ما لبثتْ أن خضعت لطلبهنّ والحمد لله.. رأيت ذراعَها البيضاء وقد انحسرتْ عنه الثياب يمتدّ بمحاذاتها معلنًا بدء الوصْلة.

أخرستُ ضميري الذي يحدثُ جلبة يريدُ أن يعكّر عليَّ نشوتي.. وقفتُ أنظر وأتابع مسروقًا من هاشم القديم الغشيم، مسحوبًا من قَفاي وتلابيبي ومسامّ جلدي إلى شاطئ بحرٍ هائج في ليلة مدّ مرعبة، لا بل مجرورًا من تلابيبي إلى فوّهة بركان لأقفز فيه لحظة الفوران.. أعوذ بالله من الشيطان.

أفقتُ على صوت بركة يناديني كأنّه يقول (شايفك).. سقطت من على الحجر كلصّ قفشوه بـ«شيلته»؛ فلنْ ينفعه هروبٌ ولا إنكار.. ثمّ نهضت في عجلةٍ وأنا أحاول لململمة حرجي ومواراة زلَلي خلف صوتٍ أبْديه طبيعيًّا:

- ما لك يا بركة؟

- كتفي تؤلمني.

جلستُ بجواره أمسحُ له وأمرّر أصابعي ببطء على كتفه، وأمسح عرقي الذي نزّ على جبهتي رغم أننا في عزّ الشتاء، ولا تزال أذني معلّقة بالطّبلة التي لا تزال ترنّ، والصّورة التي لا تزال تحوم حولي، فواصلت الاسْتغفار بصوتٍ مرتفع أشوش على إغراءاتِ العاشق الهائم (هاشم) حتى أنقذني عمر بطلّته، سامحه الله.

أخبرني أنه سيذهبُ قريبًا لخطبة فتاته الإسكندرانية الذي صدّعني بكلامه عنها.

- ما رأيك أخطبلك معي في الليلة نفسها؟

- مَن؟

- حورية

- حورية مَن؟

- هذا وصفُها وليس اسمها يا جاهل.. إنها شقيقةُ عروسي.. فاتنة بديعة مرسومة مهضومة تضرب شرباتك بالقبْقاب.. لو رأيت عيونها الحور ستنسيك خضارَ الفلّاحات.. حدجته أذكره أنّ بركة جالس ولا يصحّ مثل هذا الكلام.. لكن سبقتِ الكلمات إلى أذن الشيخ الصغير الحصيف، فقال يهزّ رأسه مرحبًا بمشاركتنا في مثل هذا الحديث:

- يا عيني يا عيني! أكمل يا عمر.

ضحكَ عمر سعيدًا بمشاركة بركة صاحب الرّوح المرحة.. هززتُ رأسي منزعجًا مؤنّبًا إيّاه، فالأمر لا يتحمّل هزلًا، والولد صغير وقد يذيع سرًّا ونفتضح.. قال يتكلّم بالإشارة، والماكر يجيد الإشارات:

– نألف أوطاننا حتى نظنّ أنها الأفضل.

– لا شيء أجمل من الوطن.

– لأنك لم ترَ غيره.

– بل لأنّه الوطن.. حبّه لا يحتاج لمفاضلات.

– لا يتأكّد إيمان الشخص إلّا باختبار.. وكذلك لا يتأكّد الحب إلّا بتعدد المعروض ثمّ الاختيار.

– هذه لغة تجار.

– مَن يرَ الغزلان يزهد العنزة.

– هذا إن كان المحبّ حيوانًا.

– وما الإنسان إلّا حيوان عاقل.

صاحَ بركة وهو ممسكٌ بكتفه الموجوع:

– أي غزلان وعنزات وحيوان.. حدثنا عن حورية يا عمر.

***

(٣٩)

فعلها عمر..

فلم أكن أتوقّع أنّ ليلة حنّة مبروكة ستكون بهذه البهجة، بل تخيّلت العكس تمامًا، والعكس كان الأرجح في ميْزان النّكد الخاصّ بتعيس مثلي؛ فأنا الليلة أشهدُ فراق أهمّ أركان نفسي في دارنا بموافقةٍ منّي، بل مطالب أنْ أكون سعيدًا بذلك متهلّلًا، وهذا نفسه هو الفارق بين رعْب العملية الجراحية وبين سهولة الجرح الذي لا ننتبه له، بالضبط كالفارق الذي أدركته بين تهشيم العظيم عيانًا بيانًا وبين السقوط المفاجئ.

لكنّ الفتى القديم الجديد عمر صاحب التغيرات والتحوّلات استطاع أن يصنع من العالم شيئًا تعلّمه بعد أن صارَ في الجامعة، فقد عرف الفتى كيفيّة طبخ السعادة على موقد الحطب، وخلق جنين الفرح في رحم الواقع؛ فحشد أصحابه الجدد، وجاء بجهاز الكاسيت الخاصّ به ذي البطاريتين، والذي يعمل مذياعًا وكشاف إضاءة، وفي الوقت نفسه تُدار فيه شرائط الكاسيت، وجعل الليلة أجمل ما يكون.

تجمّع الرجال والشباب في جرْننا، بعضهم واقف يصفّق خلف الشباب المتراقص، وبعضهم جلس على الكراسي المتناثرة في المكان مستدفئين من بردِ آخر الشتاء بالنّرجيلة ودخانها، وبعضهم ينزل أحيانًا ليلعب العصا منافسًا عمّ صبحي النابغ فيها.

أمّا البنات فقد تحلّقن في جُرن شعبان مستفيدات بالسّور الفاصل بين الجرنين كساترٍ مناسب لفصل المجموعتين، ومنع الأعين المتلصّصة.

جذَبني الطيب- أو الذي كان طيبًا- إلى حلقة السّيدات في جُرن شعبان كي يشعل الاحتفال بعروس الليلة، وأنا وهو معنا تصريحٌ رسمي بالدّخول المباح بحكم القرابة، وبالتالي التحرّك دون ريبة وسط النساء الرّاقصات منهنّ والمطبلات والمغنيات.

ومبروكة بالتّأكيد في حاجةٍ إلى إسعادها بنا؛ فلنتُ معه وتركتُ يدي ليدِه ومشيت خلفه محرجًا، وقبل وصولي دائرةَ النّساء لمحتُ «حودة» واقفًا في زاويةٍ مُظلمة أسفلَ العمود يتطلّع إلى الفتاة التي ترقص، وفوْر رؤيته إيّانا انسحبَ خجلًا إلى جرْننا وسطَ الرجال، وتوقّفت ثواني أتبعه بنظَري الشاكّ، ولولا يده التي له عليَّ لكان لي معه كلام.

ولجْنا إلى حلقة الحريم، اقتحمَ عمر بجرأة لم تعدْ غريبة عليه، وأنا توقّفت على حافة الدائرة مستحيًا:

- «سمع هوووووس».. أخو العروس وصل.

إنّه يقصدني؛ فأنا بالنسبة لمبروكة واقعًا ومجازًا، وفي الدار والعزبة أخوها الوحيد ولست ابن عمّتها، قطعت شربات مباشرة وصلةَ رقْصها، ولم أنتبه أنها هي التي كانت ترقص إلّا وهي تفكّ الحزام القماشي عن وسطها منسحبةً خارج الدائرة ربّما حياء من الشّابيْن الوافدين، وربما محاولة لتمرير معنى أنثوي مَفاده أنها «تخشى غيرتي».

وقبل أن تتوهَ طائرتي من الحفْل الصّاخب إلى فضاء شربات وحودة الذي كان يتلصّص على رقصها، أطلقتِ النساء الزّغاريد دفعةً واحدة ترحيبًا

بأخوي العروس، وقفزت مبروكة من على مقعدها سعيدة بنا وكأنها كانت في انتظارنا.

وقد صدق توقّع عمر؛ فظهورُنا أمامها ضاعَفَ فرحتها، بل أشعل فرحةَ البنات وأجواء الحفل الصاخب في حلقة النساء، والذي بدأ يهدأ قليلًا مع ظهورنا.

ومع رنّة طبل النّساء مدّ عمر يدَه لمبروكة ليراقصها كما يشاهد في التلفاز، وأنا أتابع إعجاب الجميع بجرأته الغريبة عليه وعلى عزبتنا، ونظرت عفوًا فضبطت شربات متلبّسة بالنظر نحوي، ثمّ انتبهت أنها تناوب النّظر إلى جهةٍ أخرى أيضًا عند العامود حيث عاد حودة إلى موقعه يتلصّص، وكأنها تعقد مقارنة.

أشار عمر إليَّ لأكون ثالثهما وسط حلقة الرّقص، بلعتُ لعابي وتمنّعت محرجًا مكتفيًا بالتصفيق؛ فأنا لا أجيدُ الرّقص ولا أحبّه، وسيكون أدائي مدْعاة للسّخرية، لكنّ الجريء جذبني بقوّة وسط همسات البنات المعْجَبات بعمر، وضحكات النّساء وصياحهنّ باسمي لأنزل الحلبة:

– هاااشم.. هاااشم.

لانْتشالي من بِركة ارْتباكي فاجأتني شربات مِن خلفي تستفتح إحْدى أغنياتها كأنها تحفزني على المشاركة، والنّساء يردّدن خلفها:

– خطِّي العتب يا اخوها.. خطي العتب.

خطّي العتب يا اخوها.. خطي العتب.

راجل وملو توبك

كاسيها من جيوبك
رافع جدارها طوبك
خطّي العتب
خطّي العتب يا اخوها.. خطي العتب
لسّاك يا واد فارسها
والحُر اللي حارسها
لحدّ دار عريسها
خطّي العتب
خطّي العتب يا اخوها.. خطي العتب
خيّال زاين مقامك
حرّ ومرفوع حسامك
سَبْع ومسموع كلامك
خطّي العتب
خطّي العتب يا اخوها.. خطي العتب(١)

بعد وصلةٍ أرهقتني ونشوةٍ اجتاحتني انسحبنا منْصرفين أشُدّ عمر في يدي وأنا غارق في خجلي، ثمّ انفلت عمر من يدي متذكّرًا شيئًا فدسّ في قبضة العروس آخر مبلغ كان في شقوق الملائكة، والذي صار خمسين جنيهًا بقدرةِ قادر، وأنا وحدي أعرف مصدرها.

***

(١) كلمات الراوي.

(٤٠)

تحرّك العام الدراسي بطيئًا ثقيلًا على نفسي القلقة، وعلى جيوبي التي اطمأنّت قليلًا، لكنّ الجيوب لا تعرفُ الأمان؛ فأنا قدْ جرى بي الزمان على متْن التاسعة عشر، واكتملت رسمة الشّارب على شفتي، ولا أزال طالبًا في الصّف الثالث الثانوي، وقد تبدّلت الحال وسبقني «عيد» وصارَ موظفًا محترمًا، وأنهى السيد عمر معهدَه منذ عام، وأتمّ خطبته للفتاةِ الإسْكندرانية والحمدُ لله لم أذهبْ معه هربًا من الحورية المذكورة.

أحاولُ الإفلات من شبّاك الشّرود والتركيز في دروسي المتزاحمة في الكتب، وفي عقلي المرتبك بالواقع؛ فطريقي الضّيقة لا تحتمل فشلًا جديدًا في الدراسة، وقد ينتهي بي الأمر إلى مغادرة التعليم نهائيًّا أو على الأقلّ الانتقال إلى دبلوم؛ فيكْبو وضْعي الاجتماعي بالإضافةِ إلى كبْوة القلب؛ فتكثر عليَّ الكبوات وتعيدني كسائر شباب العزبة، بل حتّى قد لا تقبلني شربات إذا تقدّمت لها حينها؛ فهي الآن ابنة الثانوية وعبرت النّصف الأوّل بنجاح، وقد رفضت عريسين أحدهما لا يزال يحومُ حولها وربّما يأمل أن تكبو في دراستها؛ فتطيب له مجدّدًا وتفسد حجتها لدى أبيها.

وقد أضطرّ مع وطأة الظّرف والواقع الملْتبس أن أسلمها بنفسي لهذا الحليوة كما فعل الغبي يوسف الضوّ وأرسل دبلة حبيبتِه مع فريد فراويلة، وكما ينصحني الوغدُ العقلاني عمر.

وعلى ذكْر ذلك الحليوة الذي قدْ يخطفها، وسوسَ لي شيطاني، وربّما الخضر نفسه، أن أفعل شيئًا حيالها، أنْ أقتنص منها موافقةً أو وعدًا أو كلمة، كما يفعل أبطالُ المسلسلات الوسماء، ثمّ أتفرغ بعدها لمصارعة الزّمان بصدر صاف، وذهن معافى من كدرِ الاحتمالات وتشويش الخضر، ويكون أبي قد عاد؛ فالآنسة لم تعدْ صغيرة، ويقينًا سيعاودها الخطاب إن لم يكنْ حودة فقد يكون أحدَ أبناء الدلنجات، وأظنّ لولا جِلفة أبيها لاختطفها شابّ وسيم يليقُ بها منذ سنوات، وأنا أتوقّع بين لحظة وأخرى أن تخبرني عمّتي أو أحد الأصحاب أنّ الجميلة خطفها عريس نجيب، وقبلت بعد تمنّعها الطويل.

وعليه لو حتى قابلت عرضي بالرّفض فخيرٌ وبركة، ونهاية لذلك الوضع الصبياني المعلّق بين السماء والأرض فلا طيران يؤمّنُ الحياة ولا سقوط ينْهيها، لكنّ الماكرة أوحت إليَّ أكثر من مرّة أنني الأفضل.

وقفتُ في موقف السيارات منتظرًا وصولها؛ فأنا أعرف موعدَ خروجها من مدرستها وتقريبًا موعد وصولها للمكان.

فكّرت سريعًا أرتّب للمشهد التالي.. ماذا؟ لم أجدْ في ذهني شيئًا.. لا أدري إن ظهرت ماذا ستكون الخطوة التالية؟ ماذا سأفعل؟ هل سأناديها مُنفردة وأخبرها؟.. كلّا هذا التصرف سيشنع عليَّ وعليها! هل أكتبُ لها جوابًا وأدسّه في يدها؟كلّا هذه قلّة حياء! هل..

قطعت الهلهلات هذه، وأغلقت بابَ الشرّ، وقفزتُ في السيارة الأجرة هاربًا من وسوستي مقرّرًا شيئًا آخر.

***

أُقدّم رِجْلًا وأؤخّر رجلين، أهمسُ لنفسي.. تشجّع.. قلِّد عمر.. أنْهِ المسألة.. هي موتة أم أكثر! كلمتان وردّ الغطاء، خطوة جريئة في الطّريق تنهي جولة مهمّة، وربما تهبني مفتاحًا للحياة والابتهاج.

استجمعتُ قواي وناديت من أمام داره:

- شيخ راجي.

خرج ولده الصغير يفرُك عينيه:

- أبي نائم.

يا لَلّحظ! وهل هناك مَن يقيل حتى العصر؟ يبدو أنّ الطريق مغلق بفعل السيد خضر، فهو بالتأكيد يحلو له أنْ أظلّ معلقًا حتى تستمرّ الكرة في ملعبه وتتواصل الإثارة كدراما المسلسلات.. لكن على كلّ حال عاد لي هدوئي، ولسانُ حالي يقول (بركة يا جامع) فلم أكنْ أدري كيف سأواجه الرجل، وماذا سأقول وربما صفَعَني وطردني من داره وجرّسني أمام الخلق.

وقبل أن أبتعدَ أمتارًا ناداني من حجْرته بصوتٍ تخنقه حشرجة ما بعد النوم:

- تعال يا هاشم.

بلعتُ لعابي واستدرت مأخوذًا.

ربما أفاق الشيخ سريعًا وترك وسادتَه الطريّة ظنًّا أني جئتُ أحدّثه في أمر خاصّ بأرضه التي أشاركه فيها منذ أربعة مواسم، وربما ظنّ أني جئته بفائض المال رغم أنّنا لم نتمّ موسم القمح بعد.

جلست على الأريكة في حجرة الجلوس منتظرًا عودته من الحمّام.. أرتّب الكلام وأقلبه وأجمعه وأفرده حتى يخرجَ في سياق مقْنع، مجهزًا إجابة لكلّ سؤالٍ محْتمل حتى أبدو أكثر رشدًا وأكبرَ من سنّي الذي سيكون أوّلَ العوائق فيما سأطلبه الآن.

- أهلًا أهلًا يا هاشم.. كيف حالك يا طيب؟

- الحمد لله يا شيخ.

- أليس هناك أخبار عن الحاج؟

إنّه يسأل عن أبي الذي أخونُه الآن وأتعدّى على مقامه، فكّرت أن أخبرَه برؤية الأستاذ صابر له، لكنّه قدْ لا يصدّق الأمر ويتّصل الحديث في زاوية أخرى.

قلت:

- أسأل عنه كلّ عائدٍ من الحج.. لكن لا خبر.

ثمّ مستدركًا:

- لكنّه عائد.. عائد إن شاء الله.

مضتْ ثوان في صمت، وهو ينظر لي منتظرًا أنْ أقيء ما في بطني وأنا أنظر إلى العصا «المحلب» المعلقة فوقَ رأسه، والتي قد ترفع الآن على رأسي.. بلعتُ لعابي واستعنتُ بالله وقفزت في الماء البارد:

- كنت عائز...

سكتُّ أبلع لعابي، فاستحثّني:

- أؤمر يا هاشم.

وددتُ لو قال لي: (انتظر حتى يجيئوا بالشّاي) أو (خذْ نفسك من الطريق) أو (هل رويت الأرض القبليّة) أو أيّ شيء يمنحني عطلة بأيّ شكل حتى آخذ فرصتي كاملةً في التفكير، وحتى أعيد ترتيب أنفاسي التي أثر اختلالها على أعصابي فبدأت ترتعش، لكن عمله في التفتيش بوزارة التعليم بالإضافة إلى قعَداته العربية جعلته أكثرَ مباشرة وأحوج للإنجاز.

قلت:

- شربات.

قلتُها مطلقة هكذا في الهواء.. نظرَ لي مستفهمًا، فأنا لم أستطعْ نحتَ الجملة كاملة من أوّل طلعة، ثمّ سرقتُ نفسًا أعمق جاءني من النافذة المفتوحة خلفي:

- أريد آآ.. أطلب يدها.. آآ.. يد شربات.

أشارَ إلى كوب الشاي:

- اشرب.

مددتُ يدي المرتعشةَ إلى الشاي ومصصتُ رشفة ثمّ أعدتها خوفًا أن تندلق في حجري، وقد خمَّنت من لهجتِه وردّه السريع وبسمته المعلَنة أنه سيطردني بذوقٍ يليق بشيخ عرب مثله، وقبل الطرد سيتحفني بخطبة طيّبة

ونصيحتين أبويّتين عن ضرورة التفرّغ للمذاكرة؛ فأنت يا هاشم يا طيّب ابن الثانوية العامة ولا يجوز لك ما يجوز لأبناء الدّبلومات حولنا من الزّواج السريع، وإن كان الولد حبشي تزوّج في السابعة عشرة وظريف تزوّج في التاسعة عشرة، فهذا لا يعني أنْ تقلدهم؛ فأمامك جامعة ووظيفة ومستقبل لا يحتمل المغامرة، ولا تنسَ أنّ في رقبتك «كوم لحم» يحتاجون القوت وعائد الأرض.

انتبهتُ على سؤاله البعيد عن خيالي:

- هل حدّثت جدّك؟

انتقالٌ غير متوقّع، بل كلّ انتقالاته القادمة غير متوقّعة؛ فالسؤال يعني أنّ الأمر لا يبدو له غريبًا أو صادمًا بل استقبله كأنّني أخبره بموْعد زفافنا.. هززتُ رأسي بالنفي، ثمّ قلت بصوتٍ خفيض بحسب ما أسعفتني قوّتي:

- قلتُ لا داعي.. (سعلة).. لا داعي لإحراجه حتى أعرف رأيهم.

- أحسنت.

إطراؤه المختصَر دعّمني قليلًا، فشربت رشفة أخرى.. ثمّ تعكّر الدعم بتخمين جديدٍ من تفكيري السّوداوي؛ فـ«أحسنت» هذه قد تعني: أنّ هذا أفضل لأنّ الأمر مرفوضٌ ابتداءً فلا داعي لنشره، خاصة أنّ له سلطانًا قويًّا على بنات أخيه، ودعم شربات قبل ذلك في رفض العريسين.. وقد تعني الكلمة..

قطع عليَّ تخْميني كما كانت الحبيبة أمّي تقطع عليّ شرودي، ونادى ابنه بصوته الجهير:

- ولد يا أحمد.

ماذا يريد مِن الصغير؟ هل سيقول له (هات الكرباج!) ويفعل بي ما فعل القنصل مع ابن أخته حربي في مسلسل «خالتي صفية والدير»!

- أمرك أبي.

- نادِ شربات.

ضربتِ الرعشة جميعَ مفاصلي.. يا وقعة سوداء! مَن أوقعني مع هذا الرجل غريب الأطوار! بهذه السرعة يتصرّف ويأخذ القرار! تجمّدت محملقًا فيه منتظرًا ما سيُمليه بعد ذلك.. الأمر صارَ جديًّا، هل هذا ما كنت أريده؟ بل أبعد بكثير مما كنت أريد.

استأنفَ الشّيخ راجي مباحثاته مع الشاب الطائش المرتعش.

- كيف دراستك؟

نفسٌ عميق أحاول به أنْ أنسى فرمانَه الذي أصدره قبل قليل، وخطورة نتائجه:

- هذا الـلـــ.. العام أفضل بحمد لله.. وإنش.. إن شاء الله.. أأأحصل على مجموع جيد.

- والأرض؟

- النّمرة الشرقية ذرة.. والقبلية زر.. عفوًا.. أرز.. وأرضك.

- ماذا لو وافقتْ شربات؟

كأنّ الرجل يتعمّد إرباكي ويسُرّه تهتهتي؛ فيوالي الأسئلة كأنّه في جلسة عربية من جلساته.. كرّر سؤاله ظانًّا أني لم أسمع:

- ماذا لو وافقت؟

دشّ بارد في فجر ليلة شتوية، الشيخ يلقيني في حالة كنت قبل ساعة أتخيّل أن بيني وبينها سنوات وأقصى علاقتي بها رسمًا في رأسي وأنا جالس على التّختة الثالثة في فصل ٣/ ٣ أدبي.. أربكني وعصرني فنزّ العرق شلّالًا.. ولوْلا تجْهيزي للإجابات مسْبقًا لسكت، أو ربما انصرفت قبل أن يتوقّف قلبي سابًّا الشيخ وبنت أخته.. ثمّ أجبته قبلَ أن يكرّر السؤال ثالثة:

- سا.. سنقرأ الفاتحة.. ويكون كتبُ الكتاب خلال عامين.. أكون جهّزت نفسي وأعددتُ الدار واجتزتُ إلى الجامعة وهي أنهتْ ثانويتها.. إنش.. إن شاء الله.

- تعرف يا هاشم؟

هززتُ رأسي سعيدًا مرحّبًا بالسّؤال الذي يعني أنّ وراءه إجابة، ولسان حالي يقول تكلّم في عرضك، كلّي آذان صاغية.

- للأمانة شعبان ليس صهرًا جيدًا.

انتبهت لجُملته فأضاف:

- لكنْ للأمانة أيضًا شربات عروس جيدة.. ومثلك يليق بها.

لم أهتمّ بذمّه للذّميم الدّميم فأنا أعرفه، لكنّ وصفه لشربات بالعروس ووصفه لي باللياقة بها، شرح صدْري وهوَّن ورْطتي وزوّدني بأسطوانة أكسجين صابحة طازجة ضُخّت في صدري فأنعشتني فهذا يعني موافقته وترحيبه الشخصي.

ثمّ استطرد:

- تعرف يا هاشم؟ أنا تزوّجت في العشرين.. كان أبي.

ثمّ توقّف يسألني:

- ألست في العشرين؟

لم أشأ أنْ أخبره أني أصغرُ من ذلك بشهرين، لكنْ لا داعي لقطْع كلامه من أجل فروقٍ تافهة مثل هذه، أيضًا ربما تكون التّاسعة عشرة رقمًا غيرَ مرغوب فيه في مثل هذا المقام؛ فهززتُ رأسي مصدِّقًا إياه.. فاستأنف:

- كان أبي عاملًا في الطّاحونة البحرية، وجاءني انتدابٌ للعمل في كفر الشيخ بعد أن أنهيت دبلوم المعلّمين، فأقسم عليَّ ألّا أغادر العزبة إلّا وفي يدي بنتِ الحلال فزرعَ وحصدَ ورهنَ واستدانَ حتى يزوّجني.. وقد كان.. ولا أجمل من تبْكير الزّواج، يشبع العين ويسكن الجسدَ ويريح البال ويجعل من أولادك أصحابًا.

كانت فقراته القصيرةُ فرصةً جيدة وداعمة آتتْ أُكُلَها وأدخلتني في أجواء العرسان الكبار الذين يتحدثون مع آبائهم أو أحمائهم، فهدأتْ أنفاسي قليلًا، وصرتُ أكثر اتّزانًا وشربت كوبَ الشاي وتجهزت للإجابة على بقية أسئلته، وقد نسيت أنّي في انتظار انفجارٍ جديد سيحدُث الآن.

- يا خال!

آه.. إنها هي.. سماعي لصوتها بالخارج أطاحَ بي من المكان والزمان، وطار بي في الفضاء ليعلّقني من عرْقوبي، ويُدلّيني من سقف السماء، أُخذت كأني لم أسمعْ صوتها من قبل، كأنها ليست هي جارتي التي أعرفُها وأحفظ ملامحَها ولونَ عينيها ولحنَ صوتها.. ربما نسبيّة أينشتين التي أوجع عمر بها دماغي هي نفسها هذا الإحساس المختلط المعكوس المتضارب.. وربما تكون هذه هي قاعدة «الخضر» في الحياة وفي اختلاط مظاهرِ الأشياء، الذي حاول أبي شرحَها لي قبل ذلك ولم يسعفْه البيان.

- تعاليْ يا شربات.

تسارعتْ ضربات قلبي وقبضتُ يدي محاولًا وقفَ الاهتزاز اللاإرادي الضّارب في جميع أوصالي.. ماذا فعلتُ بنفسي؟ لماذا تعجّلت يا هاشم؟ لماذا هذا القرار الأحمق؟ كيف ستواجهها؟ ماذا لو رفضتْ؟ بل ماذا لو وافقت؟ ماذا ستقول عنّي؟ ماذا لو لم تكن تفكّر فيّ أصلًا وقلبها مع الفتى حودة كما تشير قرائن كثيرة؟

تجمَّدت ابنة السبعة عشر على عتبة الباب عندما رأتني جالسًا مع الشيخ، وانتقلت حالتي بتفاصيلها وفيزيائها ونسبيّتها إليها كأنّ أينشتين أفندي

أوصلَ سلكًا بيني وبينها، ربما تكون قد خمَّنت المطلوب..كلّا مستحيل؛ فما فعله الشّيخ غريب الأطوار لم يكنْ يخطرُ على بالي أصلًا فكيف يخطر على بالها!

- أهلًا «غرام خاتون» هانم.. اجلسي.

العزبة كلّها تناديها الآن بـ«غرام خاتون»؛ وما عرفتُه بعد تلقيب مبروكة لها بهذا اللقب ليلة قياس الفستان أنّ اسم شربات يتغيّر بحسب تغيّر أدوار شبيهتها الممثّلة فائقة الجمال بدءًا بـ«إستر» حبيبة رأفت الهجان، مرورًا بشهر زاد حبيبة شهر يار، وصولًا للفاتنة «غرام» حبيبة الخديو في بوابة الحلواني.

جلست في مقابلتي على الأريكة التي يجلس عليها الشيخ، وعينها هاربة منّي بل هاربة منها.. واصل الشّيخ لكْماته للمنطق وللحوار الطبيعي في مثل حالتنا:

- هذا الفتى المحترم يطلب يدك.. ما رأيك؟

نصبتْ عودَها البان واقفة فزعة كأنّ عقربًا لدغَها.. ردّة فعل غير متوقّعة كجُمل خالها، ربما تريد أن تهرب من المكان! لكن أين تذهب! ربما تريد أن تصرخَ رافضةً أو تصرخ موافقة.. لا أدري.. تلوّن وجهها الأبيض البدر بالأحمر ثمّ للأصفر ثمّ الأزرق الذي يسبق الإغماء، دارت الدّنيا بها كما دارت بي.. أخطف النظر اتّجاهها فأجدُ المسكينة مثلي، وكنت أظنّها أكثر جرأة وأقوى قلبًا فقدْ ضبطتها قبل ذلك تتحدّث مع الولد حودة دون تكلّف أو حياء.

من هوْل الموقف تمنّيت أن ينتهي على أيّ وجهٍ حتى لو قالت: (لا أقبل هذا الكبش الأحمق فأنا أحبّ حودة الوسيم، وقد تقدّم لي بالفعل وقبلتُه بعد رفض، حتى الثانوية البغيضة سأتركها من أجله).. أيضًا سأرتاح، المهمّ أن أخرج من هذا الصندوق الذي وضعني الشّيخ غريبُ الأطوار فيه بهذه الجرأة والسرعة، وكذلك أهربُ من صندوق العشق الذي أغلقه الخضر على عنُقي ولم يُحْكم الإغلاق؛ فلا أنا ميّت مرتاح ولا أنا حرّ سوّاح.

قالت:

- مفمفمف.

أو صوت شبيه بهذا.. أصابتني نفضة دفعت ظهري للوراء..خمّنت- ولأوّل مرّة أستبشر في تخميني- أنها قالت (موافقة)، حاولت التّماسك والإمساك بآخر خيوط هيبتي، فالكلمة لم تتضح بعد.

- لم أسمع.

قالها الشيخ راجي وهو يضع راحتَه على أذنه ناحيتها يريدها أن ترفع صوتها.. رمقتني بنظرة خاطفة من فنجان عينيها الواسع اللاسع، ثمّ انسحبت محمْلقة في الأرض، وصدرُها يعلو ويهبط بنفس المسافة التي يعلو ويهبط بها صدْري.

- موافقة يا خال.

اللهُ أكبر.. أغمضتُ عيني وطرتُ هناك هناك، وضعت كرسيًّا هزازًا على أعلى سحابة في السماء ونمت، لا.. لم أنم، لنْ أستطيع النّوم.. يا ألله..

هل ما حدثَ حدث؟ هل أنا بالفعل ذهبتُ للشيخ راجي فوجدته نائمًا فكدتُ أنصرف فاستيقظ فناداني ونادى لشربات، وسألها ووافقت.. هل هذه المشاهد المتتالية السريعة وقعتْ بالفعل؟.. أمّ أنّ المسّ الشيطاني يتبعني ويخيّل لي خيالات.

– على بركة الله.. قوموا روحوا.. وغدًا أفاتح شعبان.

نظرتْ إليَّ باسمة وقد ذهب عنها بعض حيائها، وكأنني صرتُ حلالها في لحظة، استثمرنا دقيقة خاطفة تشاغل بها الشيخ راجي بالنّظر من الشُّباك يحدّث أحد المارين.. النظرة طالت، ولأوّل مرّة نخلطها ببسمة منْتَشية مسترخية مطْمئنة؛ فقد رفع ستار الريبة وصار الحرامُ مكروهًا، والمكروه مباحًا، والمباح مندوبًا ولو مؤقّتًا.. ظللتُ أحفر نظرتي في قاع عيْنيها وتحفر نظرتها في قاع عيني بمسافة تقدّر بنحو سبع سنوات التي هي عمرُ انتباهها لفتى أحمقَ مثلي، وعمرُ انتباهي لعينيها الساحرتين.

– قلتُ روحوا.

قالها الشيخ راجي صائحًا مازحًا ينْتشلنا من الغرق الجميل؛ فخرجت شربات تلملمُ ثيابها خجلة، وقفزت إلى الشّيخ راجي أحتضنُه كعادتي عندما تعجز التعبيرات.

***

(٤١)

لم أنمْ بالطّبع.. وأعرف أنها باتتْ على الحال نفسها.. الحلم تحقّق بالجملة وبالقطاعي، وكسبت الرهان مع غُرمائي الحقيقيّين والافتراضيّين، وأدركتُ أني أنا الفتى الأسمر أبو طويلة الخفيف على قلب حبيبته.

راجعتُ كلّ خيالاتي ورسماتي معها منذ سماعي لصوتها يهتفُ في جرن عمّ حمدي «هاااشم.. هاااشم»، وحتى سماعي لصوتها وهي تنادي (يا خال).. تركت على كلّ صفحة خيال جمعني بها توقيعًا يؤكّد أنّ خيالي كان حقيقة، فلم أكنْ مبالغًا فيما شعرت وقرأتُ وترجمت، وفيما فككت من طلاسم.

أوحشتني كأني لم أرَها من شهور سبحت إلى مندرة الشيخ راجي لأوقف الصورة (فيكس كادر) ثمّ (زووم) على وجهها أعيد اللّقطة مرّة واثنتين وعشرة حتى تبقى اللّحظة في الذاكرة، وحتى يبقى عسلها مختلطًا بريقي.. أقومُ بين الحين والآخر أطلّ من الكوّة لعلّها تخرج لفسحتهم الجديدة أمام البيت هاربةً من سهدها مثلي.

عددتُ في تلك الساعات بوصاتِ سقف القاعة تحت ضوءِ مصباحنا الكهربائي الكبير، ثمّ أعواد الحصيرة التي أنامُ عليها عودًا عودًا.. حاولت تخفيفَ نشْوتي لأعيد إلى نفسي اتزانها.. لكنّني أقاطع نفسي منتهرًا: ولِمَ تريد أن تخفّف نشوتك يا أحمق! عشْ لحظتك كاملة كما عاشتها مبروكة ويعيشها عمر.. الأمرُ بعد قليل سيصيرُ علنًا، وعمّتي عندما تعلم ستطلق زغرودتها

مستبقة الأحداث.. افرح وانطلق.. فالجدّ- وإن أبدى تردّدًا لاعنًا أباها- بشّ قائلًا (تكرم لأجل أمّها وخالها) بل وعدني أن يجعل ليلتي مع عمر، وأن يدعمني بأيّ مال ويتمّ الخطبة بعد عودته ببركة من القاهرة مباشرة.. إذًا.. افرحْ أيها الكئيب!

يا لَكَ من «خَضر» جميل نبيل! ماذا يا رجلُ لو أمضيت الحياة كلّها بهذه السهولة والمرونة؟ ماذا لو نال كلّ امرئ ما تمنّى وعاش الكون كلّه راضيًا مسبحًا؟ وأحرقت إرادةُ الله قوانينَ الشيطان.. ماذا لو تصرف كلّ كبير برشاقة الشّيخ راجي ولياقته وأناقته؟ لماذا الحروب والخصام والقطع والخِناق والعراك والشقاق والرضاع والفطام والكسور والجبائر والندوب والغمازات؟

استيقظتُ بعد ساعة واحدة نمتُها قبيل الفجر على دفْعَة عمّتي للباب، ثمّ وكزها لي توقظني:

- انهض.. شعبان يبيع العجول.

نهضتُ بكسل عريس في صباحيّته.. شردت باسمًا، هذا صوتُ الطيف الخضر يعبثُ معي وليس حقيقة.. مجرّد مزاح لعلّه يريد أن يُفْهِمني أنّه قادر على..

قالتْ تستحثّني:

- إنْ لم تدرك مالك الآن لن يعطيك إيّاه.

جلستُ في مكاني أتفحّص عمّتي التي تهزّ أكتافي تفيقني.. هل هي عمّتي أم جنيّة مبعوثة كي تقطع عليَّ سيلَ سعادتي الجارف وتحوّل مجراه إلى الوراء..

يقينًا لن يتعكّر أوّل صباح لأوّل ليلة كاملة السعادة؛ فالخضر ليس بهذا الشرّ.

فركتْ عيني.. هززتُ رأسي.. حملقت..آه.. إنها عمّتي بشحمها ولحمها.

مسحتُ وجهي بيدي، وأنا أقول في سرّي: (فعلها الخضر!)، صاحت تتعجلني:

- أسرعْ قبل أن يحمل العجول في السيارة.. وأنْهِ المسالة.

نزولي الآن قد يتحوّل لعراكٍ مع شعبان، والعراكُ مع والد شربات يعني أنْ أمسح أمس من الزمان.. وهل أنا مجنون! كلّا لن أفعل، فليذهب المالُ إلى الجحيم.. ولأتّمم ما بدأته من خطْو رشيد، فلا بأس أن أفرط في بعض حقّي وحقّ أبي في سبيل حقّ أكبر كما قال الجدّ.

- أستَتْرك مالَ أبيك لهذا اللص؟

لم أجدْ ما أردّ به على عمّتي فألقيت بجذعي على حصيرتي هاربًا منها؛ فهي بالتّأكيد مكلّفة نيابة عن الأحزان والأشْجان والشيطان، وتحاول استفزازي بأيّ سبيل كي تستدْعي واقعي النّكد من حجرته المظلمة في الصّحراء، وتسود أيامي من جديد وتحدث وقيعة بيني وبين الرّجل الذي قد يصير آخرَ النهار حموي.

صاحت:

- ماذا جرى لك أيها الأحمق؟

لن أستطيعَ أنْ أخبرها أني أخشى المصادمة معه الآن، وأني فجأة صرتُ حليمًا أحسب لكلّ خطوة مليون حساب، لن أستطيعَ أن أخبرها أنّ من حقّي أنْ أتغيّر كما تغيّرت مبروكة وعمر.. أردت أن أقول لها يا عمّتي: شربات قالت (موافقة)، نظرنا وتعانقت ابتساماتُنا ورفعت الراية البيضاء تعلنُ الأنسَ الطويل والهمْس الجميل والعشق الحلال، وأمام كلّ هذا لا بأس لو فرّطت في بعض حقّي.

انصرفتْ عمّتي تضرب كفًّا بكفّ، وقد تأكّدت أنّ جنّ النخوة الذي كان يركبني بات وديعًا، أو ربما صار مخنّثًا.. وضعتُ يدي على رأسي داعيًا أنْ يمضي الصّباح على خير، ولا تجرني عمّتي إلى...

قبل تمام التّخْمين، صاح شعبان يردّ على عمّتي التي نزلت الميدان بالفعل:

- ليس لكم شيء.

صار الشكّ يقينًا؛ فهناك خطّة تُدبر لإرغامي على منازلة الوغد وتعكير نهر العسَل، وسدّ الطريق على الشّيخ راجي قبل أن يخطو خطوتَه الطيّبة.. ثمّ قلت لنفسي: (لا إشكال أن ينكر شعبان حقّي الآن.. بعد الخطبة سأجلسُ معه وأحاول استمالته ونيْل الإقرار منه، بلْ لا بأس أصلًا إن تركت مالي هدية لشربات).

- أيّها المحتال.. هذا مالُ يتيم.

صيحة عمّتي وصياغتها للجُملة أرعشت قلبي وأيْقظت عقلي وألقمت فرنَ أعصابي بعشب يابس؛ فأنْ تقف تناضل عن حقّي وحقّ أبي، وأنا أجلس

مقيّدًا تحت دعوى العقل والحلم والحفاظ على الرباط الذي لم يعقدْ بعد، والزّحف على تراب عالم وهْمي من السّلام والوئام شيء مزعج.. لكنّني تحاملت ونفثت في شرارة عودِ الثّقاب فأطفأتها قبل أن تصلَ للعشب.. يا لي من حليم!

- غوري من هنا.

صاحَ بها شعبان في وجْه عمّتي.. آه.. اعتدلتُ واقفًا.. لا مفرّ من المواجهة.. لكن سأحكم قبضتي على أعْصابي للنهاية وأكلّمه بأدب؛ فشربات ربما تراقب المشهدَ الآن.

نزلت متّجهًا إلى شعبان الذي يشارك صبْيان التاجر في سحب ثاني عجل إلى سيارة النقل، فهو بواقع خبرتِه وبضخامة جسده؛ الوحيدُ القادر على السيطرة على العجول.

لوّحت بيدي أسلّم على التاجر وصبيانه، ودنوْت من شعبان، وقلت بصوتٍ خافت أكمل ما بدأته عمّتي:

- أليس لي عندك حقّ يا معلّم شعبان؟

انتبَه التّاجر وصبيانه لظهوري بعد ظهور عمّتي، بل هناك بعض الدور بدأت تفتح شبابيكها وأبوابها، فأدرك التّاجر أنّ هناك أزمة مرشّحة للتصاعد، فأشار إلى صبيانه ليوقفوا إجراءاتهم.. فصاح شعبان فيهم:

- لماذا توقّفتم؟! أخرجوا العجول.

لازمت فراشَ هدوئي الذي لا أعرفه ولا يعرفني، والتحفتُ ببرودٍ غريب عني، وأعدت الجملة متمنيًا أن يمضي الأمر دونَ خسارة كبيرة ومواجهة يصعُبُ معها الإصلاح:

– أريدُ مالي يا معلّم شعبان.

وددتُ لو أجَّل الأمر، وقال لي غدًا أو بعْدَ شهر، أو خدعني كما خدع الجدّ قبل ذلك في داره؛ كي أجدَ مبرّرًا أسحب به عمّتي إلى الدّاخل، ومسلكًا يحفظ لي كرامتي، وحبْلًا يتيمًا يمشي عليه الشّيخ راجي ليلًا، وموقفًا شفيعًا يدْعمني أمامه إذا ما طلب لي الجدّ عبد الباسط يدَ مصونتهِ التي خرجت إلى «الفراندة» تراقبُ التطوّر مذْعورة، ثمّ عادت مسرعةً للدّاخل لعلّها توقظ أمّها.

أخذت الوغدَ العزةُ بالإثم، وغرّه هدوئي الأحمق، وهكذا يفعل الأوغاد أصحاب المعدن العكر؛ فأنا أحفظهم جيدًا منذ بدْء عملي في الغيطان.

رفعَ صدره للسماء، وألقى بجُملة تنهي ذلك الصّداع قبل أن يتجمع سائر الناس:

– ليس لك مال ولا عجول.

عادتْ شربات تتابع الأمر، ونادتني بنظرة ترجمتها (من أجلي يا هاشم!)، قرأتها وفهمتها وبلعت لعابي أقصر الشّر وأحكم إغلاقَ الباب على الجنّ النّائم بحجرته؛ خرجت خالة اعتماد مسرعةً من الدار لتقطع طريقَ الغباوة على زوجها الأرْعَن، فلعلّها علمت بما جرى بالأمس بيني وبين كريمتها:

– ليس هكذا يا أبا عيد.

فاجأها الوغدُ وفاجأ الواقفين بصفعةٍكادت تسقطها:

- ادْخلي يا بنت الـ...

أعدتُ النظرَ إلى شربات أقول لها: هل تأكّدت الآن أنّ أباك يستحقّ ضرب الصُّرم.. ثمّ قلت في نفسي كأنّني أحاور الجدّ الذي سافر فجرَ اليوم للقاهرة مع بركة.. أتراني يا جدّ؟ أترى أين يذهب بنا الحلم؟ انظر شريطَ صبْري لا يزال ممتدًّا وكنتُ تظنّني أهوج غضوبًا.

صاحت عمّتي تدْعمني كأنها لاحظتْ بي ضعفًا، فقالت لشعبان:

- أنت لصّ كبير.

- اخْرسي يا مَرَة.

أهلًا بالجنّ فقد قفزوا الآنَ من النّافذة إلى الجرن، ولا أمل في المفاوضات وقد تأكّدت أنّ شربات لم تعُدْ تمانع أنْ أفعل ما ينبغي مع أبيها اللّعين.. وبنفس سرعةِ صفعته لزوجته وردّه على عمّتي كانت سرعة تحوّلي؛ فسحبت خشبة كانت مُلقاة على الطريق كأنّ أحدهم- ربّما يكون الخضر- جهّزها لي لمباشرة ما يليقُ بي مع مثل هذا النّطع.

أحكمتُ قبضتي على الخشبة معلنًا إحراقَ آخر سفنِ صبري البارد الباهت، ودنوتُ منه مستعدًّا لأقصى التّطورات، ولتذهب شربات والحلم والحبّ والشيخ راجي والجدّ إلى الجحيم:

- لي ثمنُ عجل أيها العجل.

- ماذا تقول يا قليلَ الأدب!؟

ثمّ تقدّمت أواجهه تكادُ جبهتي تلامس جبهتَه، وبخرُه العفنُ يقتحم أنفي الكبير:

- ولن تتحرّك السيارة إلّا إذا دفعت مالي أو أعطيتني العجل.

دفعَني بذراعه الغليظة للوراء وهو يصيح ليزيدَ المعركة اشتعالًا:

- ابتعدْ يا ابن الرّفضي.

لم يحسبِ الوغدُ لجنوني حسابًا، وأنا كذلك لم أعملْ لما في قلبي حسابًا؛ فاستوثق الجنّ منّي أو أنا الذي أوثقته منّي؛ فدفعت اللّوح الخشبي السّميك المهيأ لإصعاد العجول إلى السيارة معلنًا إنهاء الصفقة، وعليه تأخّر التّاجر وصبيانه مُبْتعدين عن ساحة المعركة، ثمّ لوّحت بالخشبة في الهواء:

- مالي الآن يا لصّ.

كان عمّ صبحي وعمّ عسران قد وصَلَا مسرعين، فتدخّلا لوضع حائلٍ بيننا قبل التصعيد، وصرخت عمّتي التي لا تريد أن يتطوّر الأمر لدماء.. خاصّة أنّ الشرطي عيد قد يخرج الآن ليدعم أباه.

واصل شعبان موجةَ سِبابه:

- أنتَ عيِّل واطٍ ابنُ واط.

سحبتُ يدي من كفّ عمّتي بقوّة، فكادت تسقط على الأرض، وتوجّهت إلى شعبان الذي تأكد أني سأستعمل الخشبة وليست فقط للاستعراض؛

فتلفّت حوله يبحثُ عن شيء يواجهني به فوجدَ حجرًا ملقًى من آثار بنايتِه الجديدة فانْحنى ليخطفها لكنّ كرشَه الضخم عطّل مهمّته فضربته بالعصا على مؤخّرته؛ فأمسك بها مبتعدًا مُتواريًا خلف مَن حضر مِن رجال العزبة الذي أمسكوا بيدي وخطفوا الخشبة:

- اسْتهدِ بالله يا هاشم.

أخذَنا الرجالُ إلى دار الشيخ راجي الذي اسْتيقظ لتوّه من النوم متفاجئًا بالحال مصدومًا، وأنا أهزّ له كتفي مستسلمًا، ولسانُ حالي يقول: (إنها ترتيبات الخضر).

تعاطفَ معي الجميع لا لشيء إلّا لأمْرين: يتمي الذي خسرتُ معه كلّ شيء وكسبت شفقة الناس على الدوام، وبغضهم لخصمي اللّص شعبان.

حاول نداء شربات الذي أحسّه ولا أسمعه أن يفتح نافذة عقلي وقلبي يذكرني بالحلم الجميل الذي أوشك على التّحقق وقد عادَ الآن خطوات، ينبهني أنّ بيت شعبان كلّه يدْعمني؛ فالأمّ الطيبة تحبني، وعيدُ النبيلُ اعترفَ لي أنّ أباه لصّ كبير ويلعنه علنًا، بل أنا واثقٌ أنّه شاهدَ المعركة من مقاعد المتفرجين وتعمّد ألّا يدافع عنه، وخالها مرحّب وسعيد، وهي رفعت الراية البيضاء للقلب الأسمر، فلمَ تحرق أملك بلهب حُمقك! لمَ لا تفاوض حتى يمرّ الأمر، وبعدها اركبْ ظهر شعبان إن أردت!

كلّ هذا كلامٌ منطقي يشبه كلام الجدّ عبد الباسط، لكنّ عقلي وقلبي والخضر والجن الذي يركبني يأبون إلّا المواجهة.

أخرجَ شعبان علبةً معدنية بنيّة اللون فيها تبغٌ ودفتر ورق «بفْرة»، فصنع لفيفة في عجالة وأشعلها ليخفي خلفَ دخانها ارتعاشته، وتلاحق أنفاسه بعد النّزال الساخن الذي لم يتوقّعه، وجلسنا في انتظار الشاهد الرئيس على لصوصيّة أبي كرش، وربما كان ذلك سبب ارتعاشته.

حضرَ الفتى «عيد» إلى مندرة خالِه باستدعاء رسمي، أكّد النّبيل بحزم وقول صريح أنّ أباه سبق وأقرّ أن لنا حقًّا؛ بل لنا أكثر.. قال الشيخ راجي:

– تقسِمُ على ذلك.

– أقسمُ يا خال.

حكمَ الشيخ راجي– ووافقه الحاضرون– أنّ شعبان أمامه خياران لا ثالث لهما، إمّا أن يسلم أحد العجول لي وأختارُه أنا بنفسي، أو أنْ يعطيني قيمتَه من المال الذي قبضه الآن لينتهي النّزاع «ويا دار ما دخلك شرّ»، وقبل ذلك يقبّل رأس عمّتي.

لكنّ شعبان لم يكنْ ليسلم بسهولة، وصاح:

– عيد ابني.. كلبٌ جبان.

ثمّ مدّ يده إلى بلْغَته وألقاها في وجهه..

فالتفتَ له عيد وعينُه تنفث شرارًا، بل أوشك أن يردّ عليه البلْغة.. لكنّ الرجال أمسكوا به.

ثمّ استطرد الوغد:

– والعجل المذكور فطسَ من زمان.

صاح الشيخ راجي:

- أنتَ تكذب يا شعبان.. احترمِ الرجال ونفّذ الحكم.

نهضَ شعبان مغاضبًا:

- لسْنا في محْكَمة يا شيخ.. ولن أصرفَ على هذا العويل، وأبوه (بيتسرمح) في البلاد؟

رعشةٌ سرتْ في قدمي، فانتفضتُ واقفًا وسحبتُ عصا الشيخ راجي المعلّقة على الجدار؛ فأنا لا أقوى على شعبان بغير مُساعد، واندفعت نحوَ الباب أمنعُه من الخروج مقررًا أنّ المشهد بعد ذكر أبي على هذا النّحو (يا قاتل يا مقتول) ونسأل الله العوضَ في شربات:

- أنتَ فاجر ابن فاجر يا شعبان!

استغلّ الوغد توتّري الزائد وعدمَ توقّعي لفعلته، وأطلق ذراعه الأسطوانيّة الغليظة من مناخها وصفعني صفعةً مدوّية براحته المرزبة جعلتني أهتزّ في مكاني كمَن مسَكَ سلك كهرباء.. أمالتني الضربة على جانب الباب، فدفعني وخرجَ من جواري يمدّ الخطى ليلتحم مجدّدًا بتاجر المواشي وصبيانه قبل أن أدركه.

أحكمتُ قبضتي على العصا وجاوزت درجاتِ السلّم بقفزة فاختلّت قدمي ودرتُ على الأرض وسقطت «زرع بصل» كيوم الحمار الرّفاص، لكنّني قمتُ سريعًا والتقطت العصا لأدرك المجرم.. قَفز الجبان خلف الحاجزِ البشري الذي حاول أن يصنعَه صبيان تاجر المواشي ليمنعوني عنه، وأنا أصِيح:

- يا بن الـ... يا شعبان.

وأمامَ ثورتتي المجنونة وأمامَ عدم احترامِه لجلسة الرجال لم يتدخّل أحدٌ من رجال العزبة ليمنعوني عنه بل وقَفوا يتابعون على الحياد، واستمرّ عيد في بيت الشّيخ راجي لم يخرج ليواجهني أو حتى لينقذ أباه.. حاول شعبان أن يتلقّف العصا براحته السّمينة قبل أن تهوي عليه لكنّني كنت أسرع وزادني الغضب قوّة وشراسة؛ فناولته على جبهتِه المسْتديرة ضربةً موفّقة فتدفق دمُه متحررًا من رأسه الضّخم وسقط على الأرض ممسكًا بجبهته:

- دم..

بالغَ في تمثيله مُنتظرًا المغيث؛ فانتهزتُ فرصةَ تكوّمه على الأرض وهجمتُ على جلبابه فمزقته ودسست يدي في الصّديري، وأخرجت حافظةَ النقود وأخذت ما قدّرته ثمنَ العجل، وأشرت به للواقفين وللشيخ راجي:

- ألفان جنيه.. هذا حقّ أبي مؤقتًا يا شيخ.

أفاقَ شعبان مجددًا، وقفز على ظهري، وكنت أخفّ منه ولو طالني لقتلني، فانفلتّ بخفّة من بين يديه فاختلّ توازنه، وكاد يسقط فعاجلتُه بضربات متتالية بالعصا في أنحاء جسدِه الضّخم، ولم يتدخّل أحد من الرجال ليمنعني.

وعلى طريقة الدّراما السوداء، تدخّلت الحمقاء تمنَع عن أبيها الأذى بعد أن بعثرت كرامته في الأجواء، وكانت تظنّ أني سأتوقّف فوْر رؤيتي لها باعتبار ما تمّ تقريره لدى الشيخ راجي، لكنني تحت وطأة هياجي لم أستطع التّمييز، فدفعتها للوراء بقوّة حتى قبل أن أنظرَ في عينيها، فسقطت الصبيّة

سقطة مدوّية فارتطمت رأسُها برأس أبيها، وانكشف شعرُها وانحسر ثوبها عن ساقها.

انقلبَ المشهد رأسًا على عقب، وأطلق الحكمُ صافرته معلنًا نهاية المباراة بخسارتي خسارة مدوية، ووضع الشّيخ راجي يدَه على وجهه مصدومًا مما آل إليه الحال.

كلّ الشّكر سيد خضر!

أنحني لكَ تعظيمًا! تخطيط لا يخرّ الماء!

في هذه اللّحظة خسرت كلّ شيء مجدّدًا.. كلّ شيء.. بل خسارة مصحوبة بعار التعدّي على أنثى، وليست أيّ أنثى، بل والتسبّب في كشف ساقها ورأسها أمام الرجال.

انفجرتْ بالونة ثورتي وتناثرتْ أشلاؤها في وجهي بعد تمييز ما ارتكبته من جرم فألقيت العصا من يدي وتجمّدت مكاني مخذولًا تاركًا الرجال يُنْهضون الوغدَ وابنته.

رأيت "عيد" قد خرجَ من بيت الشيخ راجي متقافزًا بعدما سمع صرخةَ أخته، فالفتى لم يحاول طول هذه المناوشات أنْ يمنعني إيمانًا منه بأنّ أباه يستحقّ الحرق، لكنّني تماديت حتى تورطت.

وبدوْري لم يكنْ لي وجهٌ للمواجهة بعد جريمتي فلم أنحنِ للعصا لأمسكها ثانية، وتجهّزت لأترك له نفسي ينتقمُ لأخته، لكنِ الحمدُ لله استطاع النّاس أن يوقفوه.

***

(٤٢)

في الضّحى، اشتعلت معركةٌ بين عيد وأبيه انتهتْ بصفعة على وجْه عيد، ثمّ خروجه من البيت لاعنًا إيّاه.

وفي الظهيرة، أرسل لي الشّيخ راجي ولده، الذي كان مرسالًا لشربات بالأمس، كي أذهبَ معه لمحْو ما ارتكبته من عارٍ قبل أن يستغلّها الموكوس لتكون قعدةَ عرب، ويكون فيها ما فيها من الخسائر، خاصّة وأنّ الجدّ قد سافر القاهرة ببركة، ولعلّ الشيخ يُفلح في صناعة خطّ رجعة إلى جنة الأمس.

في الطريق، أقسمتُ للشيخ راجي أني حاولت من البداية غلقَ باب الشّر معه، لكنّه..

قاطعني:

- لعلّه خير.

وسطَ سبابٍ وألفاظ قبيحة بلعتُها رغمًا عني، رفض شعبان أيَّ صلح، وأبدى إصراره على «قعدة عرب» أو عمل محْضرين ضدّي؛ فقد تسبّبت دفعتي لشربات في كدمة بجبهتها، وتسبّبت عصاي في جرح بوجهه وسحْجَات في جسده السّمين، ما يجعل قعدة العرب مستوفية الشّروط وسيترأسها الشّيخ راجي ويطلب فيها تعويضًا مناسبًا (يخرب به بيتي) أو على الأقلّ بيت الجدّ عبد الباسط وليي بعد أبي والمتحدّث باسمي والذي سيُصدم عندما يعرفُ ما آلت إليه الأمور، ويكفي أنّ في المعركة أنثى ضحية؛ لتكون الجلسة كلها لصالح الوغد.

وزيادةً في الدراما أدخلَ علينا شعبان شربات ليهيّئ الشيخ راجي لحكمٍ قاسٍ على مَن فعل هذا ببنت أخته.

ومع ظهور شربات بجبهتها التي احتلّ اللّون البني نصفَ أراضيها الزاهية ووجهها الغاضب القاسي الذي انقلبَ إلى وجه جنيّة حرقوا أوْلادها.. ناوب الشيخ النّظر بيننا دهشًا من المفارقة متذكّرًا ما كان بالأمس ثمّ ما جرى اليوم.. لكنّه لا يعرف الخضر ومضحكاته المبكيات!

وقفتْ واجمة تنظرُ اتّجاهي تكاد تحرقني بالعين نفسها التي كانت أسْكنتني فيها بالأمس، ولسان حالها يقول: (يا وغد.. بالأمس تطلبني واليوم تضربني!)

- يا وقعة سوداء.. أنا مَن فعل هذا بشربات!

انضمّت شربات لجلستنا وقرفصت متنمّرة في أحد الأركان منتظرةً الحكم القاسي على الغلبان، وأظن لو كان الأمرُ بيدها في هذا التّوقيت لطالبت بحبل المشْنقة لشاب غبي يبالغ إذا استحى ويبالغ إذا غضب..

استفتح الشيخ راجي كلامَه بإفْحام شعبان بأنّ سبابه لعمّتي وتعديه عليَّ بالصفع وعلى أخته أمام الرجال؛ كفيلان بإهدار حقّه كاملًا بل يجعلانه متورّطًا، مستدركًا أنه لولا دفْعتي لشربات غير المقصودة.. لما كان له عندي حقّ.

كرّر الشيخ راجي جُملة (غير المقصودة) نحو أربع مرّات وهو يوالي النّظر للجميلة المتحفزة هناك.. محاولًا امْتصاص غضبِها وزفراتها المسْموعة،

وصرتُ على يقين أنها إنْ عذرتني في معركتي مع أبيها وستعذرني، لنْ تغفر لي سقطتي معها، فحينَ أراجع المشهد وتوابعه وكيف ظنّت شربات أنّ مجرّد ظهورها أمامي يستطيعُ أن يوقف موجةَ غضبي ويرفع أشرعة قاربي فأتجمّد محملقًا في عينيها وتتخدل مفاصلي وأغلق عيني خجلًا متذكّرًا هتافها يوم الكرة وإنقاذها يوم الكلب وأغانيها يوم الغيط ودعمها يوم الشتل وقولها (موافقة) وهي كلمة لا يحلمُ بها أوْسَم فتيان العزبة والعزب المجاورة.. فأنسحبُ بنُبل كما تشاهد في المسلسلات والأفلام، لكنّها صُدمت بردّة فعل حمقاء وسط هياجي الأشبه بهيجان ثيرانهم لم ترَهُ قبل ذلك في حواديت الدّراما.

لكنْ عليها أن تعذرني؛ فأنا ليس عندي تلفاز!

بعد مداولات قال شعبان:

- إذنْ يعيدُ ما أخذ.. ويقرّ أنْ ليسَ له ولا لأبيه حقّ عندي.

تنفّست الصعداء، فهذا الاقتراح هيّنٌ للغاية، يا ليته يكون شفيعًا لي لدى الجميلة وأستطيع أن أهدم به السّد الذي بنتْه مفاجآت اليوم لنضعَ النقطة ونكتب من أوّل السطر، ونلقي بسواد الصباح في كوة القاعة، ونستكمل ما بدأناه بالأمس، ويا دار ما دخلك شعبان.

يكْفيني أنّ إطلاق شعبان للمبادرة يعني أنّه متهيّئ للتصالح لو دفعتُ له المال.. وقبل أن أنطق بالموافقة، سعَل الشّيخ راجي معْلنًا أنّ له خيارًا مختلفًا، فأضاف على طريقته في المفاجآت:

- بلْ يدفع ما أخذَه لك.. ويدفع مثلَه لغرام خاتون اعتذارًا عمّا فعل.

بشَّ شعبان للاقتراح، فقد ربحَ اللّص الصّفقة، وصار حرامُه حلالًا وقبضه مضاعفًا كلّ ذلك لأجل غلطة حمْقاء، ورغم عدم توقّعي للحُكم، ورغم أنّني سأضطرّ أن أدفع جلّ مدّخراتي في هذه الجلَسة الاضطرارية، لكنّني فهمت أنّ الشيخ راجي يريد أن يعيدَ المياه إلى مجاريها مع الحبيبة ويصفّي العكار الطارئ ليفتح المجال لجولته التي تعقّدت بفعل فاعل ربما أنا أو الخضر.

قلتُ بهدوء وأنا أتابع ردّة فعل تلك المتجمّدة في أحد الأركان:

- موافق، والمال يكون غدًا عند عمّ شعبان.

ابتسمَ اللئيم مُظهرًا نابَه الأصفر، وفعلتِ الصّفقة مفعولها المخدّر كما توقّع الشيخ ولم أكن أتوقّع، بل مدّ شعبان يدَه نحوي لمصافحتي كأنّني لم أفتح رأسه منذ قليل وأضربه على مؤخّرته.. ثمّ بادر الشيخ غريب الأطوار، ووضع يدَه على يدينا، وأبقاهما على وضع المصافحة:

- لكنّ "هاشم" له طلبٌ يودّ لو تقبله يا أبا عيد.

سكتَ الجميع وتوقّعتُ أنا- وأظنّ شربات- مفاجأة الشيخ، وقبل أن يسأل شعبان الذي نظر نحوه ونحْوي نظرة بلهاء مستغربًا من تصرّف صهره، قال الشيخ:

- هاشم يطلب يدَ شربات.. فما رأيك نقرأ الفاتحة الآن؟

جفّت الابتسامة من على وجْه الكئيب لا لشيء إلّا للمفاجأة، وتحرّكت خالة اعتماد في مكانها بشكل ينبئ عن سعادتها، فأنا عندها مثلَ ابنها عيد، ثمّ قالت تحفّزُ زوجها:

- ومَن مثل هاشم؟

بلعَ شعبان لعابه يقلّب الأمر، وكاد يؤجّل الردّ ليأخذ فرصته، لكن الوضع الذي ثبتنا عليه الشيخ راجي يوحي أنّه يريد الردّ الآن وبالموافقة؛ وسحب نفسه ورجّ كرشَه، وكاد بالفعل يهزّ رأسه بالقبول؛ فالمتعجرفة سبقتْ ورفضت اثنين، وكوْن الشيخ راجي موافقًا فهي بالتأكيد موافقة، بالإضافة أني بالنسبة له لست سيئًا؛ فهو يريد أن يزوّج ابنته المتمنّعة على العرسان والسلام، وحسبة بسيطة لما أملكه الآن تثقل كفّتي لديه، فأنا صرتُ في نظره وارثًا، وعندي طينٌ وعندي دار، وعلى أبواب الجامعة، وأيضًا من أهل الفلاحة والشّقاء.

يا ألله! هل يفعلها الخضر؟ ويحول كلّ ما حدث من البداية للنهاية لصالحي، وأكون أنا الظالم له المتعجل في الحُكم على الأشياء.. ويكون ذاك الترّتيب المحكم البديع بدءًا من وكْزة عمّتي في الصباح وحتى جلستنا هذه غرضُها الوحيد أن تهيئ أجواءَ الخطبة على ذاك النحو المثير!

ما أروعَك يا خضر!

أنا أحبّك من البداية.. فقط هي وسوسات الشيطان اللعين.

أشْكرك.. تخطيط لا يخر الماء!

قطعتْ شربات مشكورةً الصمتَ الرّهيب والخواطر الناعمة بصوتٍ جادّ خشن:

- لا أريد اعتذارَه ولا ماله.. وطلبه مرفوض.

قذفتِ الراميةُ المُجيدة حجَرها في وجْهي بضمير الغائب، وكأنّني غير موجود، ثمّ همت مغادرة المكان تضربُ الأرض بقدمها مُعلنةً عن غضبها.. ارتخت يدُ شعبان وارتبكت ابتسامته الصفراء، وسحبت يدي ببطء مصدومًا أبلعُ حرجي وارتباكي وفجيعتي في الحبيبة، أو مَن كانت حبيبة.

قبضَ الشّيخ راجي على ركْبتي مثبتًا إيّاي موحيًا أنّ رفضها مجرّد انفعال، ثمّ قالت خالة اعتماد تعتذر منّي لتلك الطريقة في الرفض:

- بُكْره تروق إن شاء الله.

نهضَ الشّيخ راجي مشيرًا إليَّ:

- نستأذن الآن.

دارتْ بي الدنيا وهبطتُ عن سلم الفراندة متعكّزًا على الدّرابزين؛ فأنا قد صالحت الوغد، وتنازلت عن حقّي واستعددتُ لأدفع المزيد، لكن الغبيّة صفعتني على قفاي من حيثُ لا أدري، وبالغت في تقدير الموقف العابر، واعتبرته اختبارًا فشلت فيه ككلّ اختباراتي مع الخضر.

أعادَ الشّيخ طمأنتي بأنّ المسألة مسألة وقت، وبعد أيام ستصفو نفسُها فما كان مني ليس سهلًا.. وبالفعل حزمت حقائبَ الفراق قليلًا وأجّلت الأمرَ إلى حين، أمّا هي فأمعنت في الجفاء وواصلت مبالغاتها وتركتِ العزبة إلى بيت أختها خضرة في قرية المسين لتقضي عندها آخرَ أسابيع العام الدراسي وتهرب من الشّاب اللّعين الذي تسبّب في جرحها.

***

(٤٣)

غاب عني وجهُها ولم يغبْ طيفها؛ فقد كان اختفاؤها المتعمّد أوْقع أثرًا في من صفعة أبيها ودفعتي إيّاها.. أندهشُ كيف شقّت هذه الرقيقة طريقَها لهذه القسوة، هل كانت غلطتي غير المقصودة بهذا القبح!..كانت قبل ذلك تختفي عنّي أيامًا وأسابيع دون أن أنتبِه، لكنْ علّمتني التجربة الجديدة أنّ وهج القلب يُغذَّى بحطب البعاد أكثرَ من زيت القرب.. وربما لأنّ قلبي قبل أسابيع كان معلقًا بين السماء والأرض لا يدري له صاحبًا ولا مستقرًّا، ثمّ عندما حطّ في أرضه، جاء الغدر من تحت قدمه.

بل طرقني خاطرٌ مُزعج، كعادتي مع الخَواطر، أن تعود من غيبتها، وقد تعاقد مع قلبها ساكنٌ جديد، فمبروكة قبلها عادت من إيتاي البارود بعريس.

***

الليلةَ كانت أكثر إرباكًا فتسلّلت من قبضة طيفِ شربات، إلى قلقي على بركة والجدّ عبد الباسط اللّذيْن تأخّرا أسبوعًا في القاهرة، وكان غيابهما لا يطول فوقَ ثلاثة أيام، بل حتى لم يتصل الجدّ على تليفون عمّ عسران أو الشيخ راجي ليطمئننا.

كلّفتني عمّتي أن أذهب لعمر، ربما عادَ من عند خطيبته أستنبِئه لعلّ عنده خبرًا.. وجدتها فرصة للهروب من أجواء الدّار وحجرة القاعة.. فتح

لي السيّد عمر باب شقته الجديدة المجاورة للكوخ، وفي يدِه الكمان الذي لا يفارقه كما لا يفارقني طيفُ شربات، فبادرني بهدوء قبل أن أسأله:

– اتّصلا.. سيأتيان غدًا.

– ولِمَ لم تخبرنا يا بارد!

– نسيت يا أخي.. ادخل أريدك.

– أريد الجلوس في الكوخ.

سحب بابَ شقّته خلفه، وسحبني مع كمانه إلى الكوخ كي نبدأ ليلتنا، وبعد دقيقةٍ من عزفه الذي يترقّى يومًا بعد آخر.. نسيت همّي بالنتيجة، وقلقي على بركة والجدّ، وأقلعت مجددًا إلى دولتها.

– الزّفاف بعد شهرين.

انتفضت:

– زفافُ مَن؟

– زفافي يا ابن آدم.. أين ذهب مخّك؟

تنفّست الصعداء هازًّا رأسي، فجهاز الاستقبال عندي صار مشوّشًا للغاية.. عدتُ لصمتي كأنه لم يقلْ لي شيئًا، ثمّ تذكّرت أنه أخبرني بزفافه، فقلت برتابة:

– مبارك يا سيدي.

– يا ساتر!

أخذَ يراقبني، ثمّ يحرّك كفّه مازحًا أمام وجهي كأنه يختبر صحْوي من نومي.. ثمّ أشار إلى فمِه يقول لي (تكلّم).. لكني واصلتُ شرودي بينَ النظر إليه والنظر من باب الكوخ إلى الطريق المظلمة.

- فضفضْ يا بليد.. عينك تفضحُك.

بعدَ قليل سألته وأنا أعرف أنّ عنده إجابات، سواء أقنعتني أمْ لم تقنعني فعمرُ يملك لكلّ سؤال أكثر من إجابة:

- لماذا تعقّدت القصة بهذا الشكل؟

- أخيرًا نطقت.

أخذَ شهيقًا عميقًا، ثمّ أشار براحتيه وَثَنى شفتيْه ورفع كتفيه، وقال بهدوئه المعتاد وصرامته القاسية ضاغطًا على الكلمات كأنه يتعمّد إيجاعي:

- ربماااا.. لتنتهي.

نظرتُ له منزعجًا متمَلْملًا في مكاني، أنا أعرف أنّ هذه إحدى الإجابات المحتملة، لا سيما لديه، لكنّني أضعف الآن من أنْ أتحمّل لكماتِه، فاستطرد مضطرًّا:

- وربما لتكون أجمل.

انتبهتُ له معجبًا بالـ(ربما) الأخيرة مُتجاهلًا الـ(ربما) الأولى، ثمّ أسند ظهره إلى مسند الأريكة واستأنف حديثه بلهجةِ فيلسوف متحذْلق كعادته:

- المناوشات التي يصنعها القدر، أوْ مَن تسمّيه أنت الخضر، في حياة الأشخاص على اختلاف ألوانهم وأفكارهم (مازحًا) وأطوالهم.. تؤهّل

شخصًا ما أن يكون بطلًا لحكاية ما، وتؤهل آخر أن يكون ظلًّا له في الحكاية نفسها.

وضعت ذقني على راحتي، فلأوّل مرّة أستوعب كلامه المعقّد الذي لا أدري تحديدًا مِن أين تعلمه؛ فالجدّ لا يقول مثله، والمعهد الذي أهّله لوظيفة بمستشفى المركز بالتّأكيد لم يكن يدرس الفلسفة، لكنها بالتّأكيد تلك الكتب.. أضافَ شارحًا معجبًا بإعجابي:

- لكنِ انتبه.. لا يعني هذا الكلام أنْ نختزل الناس في صنفين إمّا فرسانًا نجومًا مشاهير أو ظلالًا عبيدًا مجاهيل! لا.. بل كلّ شخص حتى لو كان ظلًّا في عينِ آخرين أو قصتهم؛ قد يكون هو نفسه فارسًا نجمًا في ذات ذاته، أو في عين أمّه، أو في قلب حبيبته، أو بين لمّة ذريته أو في سكته الطويلة نحو الحياة أو نحو المقبرة.. أتفهمني يا سيد هاشم؟

هززتُ رأسي بالإيجاب راجيًا أن يستمرّ على هذه الوتيرة المحايدة دون أن يأخذه لسانه إلى أسواطه اللّاسعة.

- يا هاشم، العاديّون يموتون مبكرًا.. النّجاح العادي فشل هادئ.. العاديّة طعام بلا ملح.. شراب بلا سكر.. منافسة بلا خوف.. (ثم مازحًا) بطيخ بلا بذر.

لم أضحكْ مع ضحكته، بل ظللتُ متجمّدًا على حالي مقتنعًا بما يقول، فبادرته:

- وأنا عادي.

- لست كذلك.

سكتُّ مضطرًّا عائدًا لشرودي؛ فليس بي طاقةٌ لأطاول هذا الفتى؛ فتفكيرُه وبديهته والتّغيرات التي اجتاحته ظاهرًا وباطنًا تجعل مناقشتي له صعبة، فهو يقرأ كثيرًا ويتفلسف أكثر، واستطاع أن يجمع بين روح الجدّ عبد الباسط وتفكير المهندسة روضة.

ضرب على الكمان يصنعُ خلفيةً للابتهال الذي بدأ يعلو صوته في المذياع، وتركني أبحر مجدّدًا في سكوني الباهت البارد.. خطرَ لي خاطرٌ اندلق مباشرةً على لساني، فقلت بصوتٍ مرتفع لأوّل مرّة كأنني ألقي حجرًا في وجه خجلي:

- أحبّها.

توقّف عمر عن عزفه، ونظر إليّ ودقّق، وبدا عطوفًا جادًّا أمام نظرة عيني التي غطّتها سحابة بارقة صادقة:

- أشعرُ بك يا صديقي؛ فَلِي تجربة.

سكتَ قليلًا يفكّر، وليس من عادته التّفكير قبل الكلام، فقاموسه دومًا حاضر تندلق منه المعاني اندلاقًا:

- أمامَك خياران إيّاك من ثالثهما.. الأوّل أن تخلعها فورًا من قلبك وتلقي بها على ناصية الذّكريات.. الثاني أن تخطفها من دارهم إلى دارك بمأذون وزغاريد اليوم إنِ استطعت قبل غد.. الثالث حيرة وغباء و(بين بين) ورقص على حبال السّفه.

أعطاني وقتي حتى أبلع الكلامَ الذي نصفه حنظلٌ ونصفُه سكر.. ونظرت إليه أتحسّس احتمالات ردّه إذا سألتُه السؤال التالي، رغمَ أني تقريبًا أعرف ردّه:

- أشرْ عليّ يا بن عمّي.

اعتدلَ وقال بجدية وهو محتضنٌ الكمان:

- تطيع مشورتي؟

- لا أشتري سمكًا في ماء.

- أحسنت.. أختار لك الأوّل.

حدجتُه مستنكرًا جوابَه الذي لا يزال مصرًّا عليه رغم كلّ ما جرى، فهزّ رأسه بالإيجاب مؤكّدًا أنه يقصد ما يقول، وتابع:

- دعْني أصدقك.. صحيح شربات تشبه هاشم في أشياء.. وتليق به إلى حدّ كبير، وبها مواصفات يرجونها الرجال.. لكن دائرتها محدودة، عالمها دارٌ وغيطٌ وبطّ وخبيز وعجول أبيها السّمين؛ لذا فهي أليَقُ بحودة، أو بحبشي، وربما أنور، وربما أنت تدرك أنّ قفزها للثانوية كان ضربة حظّ.

- أنتَ لا تعرف شربات.

لم يعطِني فرصة لمقاطعته فاستطرد يحشد الأدلة:

- لكن هاشم، أمامه فضاء، نجوم، سماء، أحلام تحتاج لإنجاز، وعقل ينتظر إعصارًا لم يأت موعدُه بعْد لكنّه آت.. تليق بك أنثى ترفعك.. تدفعك

للأمام.. تنافسك.. وتحمّسك، تكون أذكى من شربات.. أجرأ من شربات.. أرقى من شربات.. أعلم من شربات.

- أنت لا تعرف شربات.

فقال غاضبًا:

- بلْ أنت الذي لا تعرف غيرها.

ثمّ شعر بنفسه فعاد لهدوئه:

- أعطِ لنفسك فرصةً أن ترى الجديد، أن تقارن.. يا هاشم، أنت هربت يوم خطبتي خوفًا من مواجهة امرأةٍ افتراضية حدّثتك عنها؛ لأنك فقط خشيت على موقع شربات في قلبك.. بل لا داعي لترى الجديد، ولكن فقط دعِ القديم، أسْقِط غطاء الذكريات والحنين والطين.

أسندتُ ظهري إلى الجدار أتنفّس بصعوبة أمام كلماته المسدّدة بمهارة، واستمرّ هو في فلسفته يريد مَنْطَقة محبّتي لشربات كما يمنْطق غالب الأشياء مستغلًّا قدرته الفريدة على الصياغة والكلام.

- هاشم، أنت لستَ موظّفًا غنيًّا مطمئنًّا صاحبَ مزاج وكمان مثلي، ولا أُكريًّا مجتهدًا حياته من الغيطان للغيطان مثل الفتى أنور.. أنت صاحبُ مرحلة لا بدّ أن تقفز إلى غيرها.. نقودُك بالكاد تبقيك على مستوى مستور، وفأسك أداةٌ مؤقّتة لن تمسكها عندما تنتقلَ للمحطّ الجديد.. اعتبر ما حدث بابًا للهروب.. دعْها وراء ظهرك وتفرّغ لطريقك الطويل؛ فأنت بعدَ أيام ستصير ابنَ الجامعة.. وأمّا هي فسترسب وتتهيّأ لحودة النّفر.

هززتُ رأسي ممتعضًا سادًّا كلّ منافذي وتوجيه أسلاك إرسالي واستقبالي بعيدًا عن الخيار الأحمق الذي قاءَه السيد عمر في الهواء، مبديًا حزني أنّ هذه الخطبة الجافة المالحة يقولها شابّ كثيرًا ما أسمعني معزوفات الشّريعي وميشيل، وأشعار حجاب، ومقدّمات الحبّ والهيام والوئام والخصام؛ فما قاله كلام مَن لم يذقْ شوقًا ولا عشقًا، ولم يعرف معنى التعلّق بطيف أنثى، والجوْب في أرجاء المعمورة بخيالِ خيَّال.

قال مُستسلمًا وقد أدرك أنّي لن أسلم له:

- إذًا، اقفزْ إلى الخيار الثاني يا أحمق.

نظرتُ له مسْتمعًا لعلّه يعيد حسابه، ويقول كلامًا أكثر حنانًا:

- غامر مجددًا.

قلتُ له باستياء:

- الكلامُ سهل.

هزّ كتفه:

- إذًا، افعل السّهل.. كلّمها.. اقطع عرقًا وسيّح دمًا.. وقد فعلتَها من قبل.

شردتُ مجدّدًا، وواصل عمر عزفَه مع الابتهالات، ثمّ عدت أدقّق في ملامحه أقرأه من جديد، وأقارن بين حاله وبين حالي.. الشابّ الجميل غيّرته الدراسة والمدينة والاحتكاك بناسٍ غير الناس، وأنا لا أزال ابنَ جرابي

وسجين صندوقي رغم التّجربة ومرار الشقاء.. لكن إن كان التغيير سيحمل هذه القسوة وسيجمّد العواطف؛ فالأفضل حبسُ الذّات في الذات. لا، لا.. بل الأفضل ما هُم فيه.. أنا أحمق لا أزال رضيعَ الذّكريات وأحد مريدي الأوهام والخيالات.

سألته:

– لماذا تغيّرت أنت، وتغيّرت مبروكة، وتغيّر عيد، وبقيت أنا كـ(جحش السبخ) لم أتغير؟

توقّف عمر مجددًا وقد عاد يربتُ على قلبي مُدركًا أنّ حالتي لا تحتمل المزاح ولا تحتمل حتى جدّه الذي أطلقه في وجهي في خياره القاسي، فردّ بإجابةٍ جاهزة ولا أفهم كيف يستدعي هذه الإجابات:

– ربّما لو تغيّرت لما هفا قلبُ الجميلة إليك.. أنت بحالتك هذه الأجمل في نظرها.

ثمّ ضرب قوسًا على الكمان كفاصلٍ في الكلام، ثمّ ابتسم واثقًا:

– وستتغيّر يا بن عمّي.

ثمّ ضرب قوسًا على الكمان:

– الزحام كفيلٌ أن يغير أي ثابت.

ضربَ قوسًا على الكمان:

– ويقلب الخيارات.

وقبلَ أن أعود ثانية لكآبتي، لعبَ على أوتار صوته، واستدعى البهجةَ من أركان المكان، وقال يمازحني ليخرِجَني من مطبّي الذي أوقعني فيه وقد جئت لينقذني:

– ما رأيك أن أجسّ لك النبض؟

استجبتُ له هاربًا من حالٍ لحالٍ لعلّ الوغد يقول جديدًا:

– كيف يا أيّها المتحوّل؟

– أطلبُها لنفسي فإنْ رفضت فهذا يعني أنها لا تزال على الغرام.

ألقيتُه بالوسادة فمالَ ضاحكًا.. وشردت بعيدًا مسترخيًا مع صوت قارئ القرآن.. بعد لحظات، أفزعني عمر بانتفاضة من مكانه كأنّ مسًّا أصابه.. ألقى الكمانَ وألصقَ أذنه بالمذياع، انتبهت معه إلى الصوتِ الملائكي الصغير المتدفّق، ثمّ قفزت صارخًا:

– هو.. هو.

خطفتُ المذياع وانطلقت نحو دارنا أبشّر عمّتي وأصيح وأنا في الطريق إليها كطفلٍ صغير عثر على خمسة جنيهات، وعمر يجري خلفي:

– بركة في الراديو يا عمّتي.. بركة في الراديو يا عمّتي.

***

(٤٤)

كان اليومُ التالي حفلًا ساهرًا بطعم اللّحم والشّحم والمغات والشّربات على شرف الشيخ بركة الذي عاد مع الجدّ مظفرًا بعد أن وفّى الطبيب الحبيب بوعده، واستقبلناه استقبال الأبطال بأفواج من النساء والرّجال.

ذبحتِ السيدة الكريمة كلّ دجاجها وبطّها وإوزّها، وأنفقت ٣٠ جنيهًا من صندوق مدخراتنا الذي بدأ ينتفخُ من جديد، ودَعَت رجالَ العزبة والأقارب والأباعد حتى يتّسع مسار الخبر بقدر الإمكان، فكان يومًا كيوم التلفاز، بل أجمل وأكثر حشدًا، ويومًا كيوم جوائزي المدرسية أيام أمّي بل أكثر مجدًا، وذهبت بنفسها لتأتي بالسيد عيد واللّص شعبان، وبالطبع حضرت قبلهما الخالة اعتماد.

لحظة صمتٍ قصيرة انشغلت فيها الأفواه بلوْك الأطْعمة، قطعتها عمّتي باعتذار لمجموعة السيدات عن ضعف مستوى (الظّفَر) المقدّم قائلة:

- لو كان خاله بيننا لذبح جملًا.

كأنّ الكلمة وقعت في حلقي؛ فأوقفت مسيرةَ اللّقمة الأخيرة إلى مستقرّها في جوفي، فأخّرتها قليلًا في فمِي معلقًا المضغَ شاردًا بعيدًا أفكّر في كلمة عمّتي، ليس ذكرها لأبي على هذا النحو؛ فقد اعتدت على ذكْره وبجواره (كان) أو إحدى أخواتها.. لكنْ أثارني ذكرها للجَمَل.

فلأوّل مرّةٍ أرى الأمور بشكلٍ مغاير دون تدخّل من أحد، ودون كبير تركيز.. إنهما مشهدان متّصلان سريعان في رحلةٍ بركة الطويلة القصيرة من عضّة الجَمل إلى ميكروفون الإذاعة.. فهل خطط الخضرُ لذلك؟!

أهزّ رأسي مستنكرًا:

- وحتى لو خطط؛ فقد ظلم الصغير؛ فلماذا لم يوصله للإذاعة دون وجعٍ لم يكن يستحقّه.. ألا يكفيه عماه!

ثمّ هبطت من شرودي في مطار صينية الفتّة التي أمامي مع ربتةِ عمر على كتفي يهنئني، ويمازحني كأنه يعتذر عن قسوته بالأمس:

- أين (شربات)ـي؟!

أشرتُ له أن يخفض صوتَه هذا الجريء الأحمق.

انتهى الناس من طعامهم مباركين مهنّئين، وقمتُ أصبّ عليهم الماء لغسل أياديهم.. لكزني عمر في جانبي ينبهني إلى آتٍ من مدخل العزبة.

إنها هي.. اعتدلتُ في جلستي رافعًا معي إبريقَ الماء منتبهًا إلى البدر الذي ظهر مجددًا في كامل بهائه وجماله يخطر في عباءةٍ فضفاضة تنبئ أنها صارت ضمنَ صفوف الكبيرات والعرائس ولا ينقصها إلّا فارس.

- صُبّ يا هاشم.

أفاقني نداءُ عمّ عسران؛ فأمَلْتُ فمَ الإبريق مُحرجًا، وأنا أتحرّك في المكان لأعطي عيني الزائغة فرصة لرؤيتها دون أن يُفتضح أمري.. قابلتها عمّتي

بحضن وأربع قُبُلات.. يا بختك يا عمّتي!.. وألقتني هي من على كتف عمّتي بنظرةٍ مُغمَّسة بسبابٍ ربما.. أو باشتياقٍ ربما.. أو دلالٍ ربما، أو زهادة أو بلادة أو لا شيء ربما.. لكنّها نظرت ومضت.. ثمّ ظهر السيد حودة آتيًا من بعيد كأنه كان يراقبها، وربما كان معها وافترقا مؤقّتًا لدفع الرّيبة، وربما جاء صدفة.. ومَن في مثل حالتي تكثر عنده «الربَّمات».

بعد انصراف الضيوف، جذبني عمر هامسًا:

- أنْهِ مهمّتك!

***

دار الشروق للثقافة والعلوم

(٤٥)

رغمَ حصولي على درجةٍ جيّدة في الثانوية تؤهّلني بارتياح إلى آداب دمنهور ما يعني أني سأصير أوّل جامعيّ حقيقي في عزبتنا، ورغم حصولي على النّهائية في الإنجليزية ما يعني أني سأصير أوّل أستاذ لغةٍ أجنبية في عزبتنا، ورغم بهجة عُمَر الذي وضعني تحت جناحه وذهب بي مسرعًا إلى عمّتي كأنني ولده النّجيب؛ لكنْ عكّر فرحتي رسوبُ شربات في سنتها الأولى كما توقّع عمر، وكما رَجَا حودة، وربما تمنّى أبوها.

الغريب أنها كانت قد نجحتْ في النّصف الأوّل، ما يعني أن ورطتنا الأخيرة كانت سببًا مباشرًا في عثرتها التي سيكون ثمنُها غاليًا، إذًا.. فأنا كما كنتُ سببًا في صناعة المعجزة بقفزها إلى حوش الثانوية، أيضًا كنت سببًا في رسوبها.

لم أكنْ مهتمًّا بنجاحها لمجرد النجاح، لكنّني أعرف- وأكّدت لي هي قبل ذلك- أنّ حسم خطبتها أو زواجها صار مرتبطًا بمسألة دراستها؛ بل أقسمَ عليها أبوها لو لم تنجحْ ليزوّجنّها لأوّل طالب، بل ما حدث بخروجها من الإعدادية، وفي الوقت نفسه، تعثّرها في الثانوية قلبَ الأمر كلّه ضدّها، وصارت إلى خيارٍ لم نتوقّعه ولم نحسب له حسابًا، وما زاد الأمر عكارة هو أنّ علاقتي بها عادت إلى المربّع صفر، وربما تحتَ الصفر، متأثّرة بوقعة يوم العجول.

تردّدت عمّتي في إذاعة خبر نجاحي بالطّريقة المعهودة، وفي الوقت نفسه لا تريد أن تضيع عليّ وعلى نفسها والدار مثل هذه الفرحة.

صاح بركة محتجًّا مغاضبًا وقد صار له كلمةٌ في الدار بعد ارتياده المدرسة، وبعد أن صار مقرئ إذاعة صاحبَ مقامٍ ومكان:

- زغردي يا أمّي.. هذه فرحتنا.

- اخرسْ يا قليل الأدب.

- عيب يا أمّي، أنا شيخ.

- اخرس.. جاءك خشَش في رُكَبك.

تدخّل عمر مؤيدًا لبركة:

- يا عمّتي، شربات في كلّ الأحوال كانت ستغادر الثانوية.

أوْجعتني كلمة عمر وأسلوبه المستخفّ بشربات؛ فانتبه لحاله:

- أقصد سيحزنون يومين، وينســ..

سبقتْ زغرودة خالة اعتماد ختامَ جُملة عمر؛ حيث اقتحمت السيدة الطيّبة علينا الدّار مُبدية سعادتها، ثمّ احتضنتني:

- أنتَ عندي أهمّ من شربات يا هاشم.

تجاوبتُ مع حضنها:

- تسْلمي يا خالة.

- هي في كلّ الأحوال كانت ستتركها.. المهمّ أنت.

لفتتني جُملتها الأولى التي تعني شيئًا مِن بين أشياء كثيرة كلها خطيرة؛ فكوْنها في كلّ الأحوال كانت ستتركها؛ فهذا يعني أنّ..

سألتُها مختصرًا على نفسي الطريق:

- لماذا تقولين إنها كانت ستتركها؟

- البنت مسيرها لبيت زوجها.. العقبى عندما نفرح بعرسك.

زادتِ البلّة طينة، وأوحلتني في تفسيرات أكثرَ ممّا كانت تحتاجها الإجابة الأولى، لكنها هربت منّي وتابعت كلامها مشيرة إلى عمر لأكون مثله:

- ألَا تغار من ابن عمّك العريس!؟

انخلعَ عمر سريعًا من حرجه مع طلّة الخالة أثناء ذكْره شربات، فبادر الجريء ممسكًا بتلابيب الابتسام:

- وهل تشبهينني يا خالة بهذا البليد؟

ضحكتْ خالة اعتماد ضحكةً عالية متناسية رسوبَ بنتها المقلق، وتهتُ أنا في كلامها الذي اختلطت ملامحه لكنّ ظاهره يقول إنّ قرارًا قدِ اتّخذ، وربما خطبها أحدُهم.. كدتُ أستأنف أسئلتي لها لكنّها خلعتْ نفسها من وسطنا مسرعة، واعدة عمّتي بالعودة ليلًا.

في المساء، حضر الجدّ عبد الباسط وحضر أهل العزبة يباركون ويمنحوننا أسباتِ السُّكر والشاي والجوافة؛ ليعيدونا مؤقتًا إلى ليالي أبي وحفلاتنا على شرف وقائع الخضر وأعماله معنا في الفرح والترح، لكنّني كنت لا أزال تائهًا هناك.

***

(٤٦)

أثناء انْهماكي مع أنور بحلّ خرطوم الماكينة عند حوض الأستاذ صابر بعد أن أنهينا ريّ فدانيْه اللّذين استأجرناهما وكانا فاتحةَ خيرٍ علينا، فوجئنا بها قادمةً مع زوجها وأبيها في سيارتهم الحمراء الزاهية، أسرعنا لنساعد في إنزال الأستاذ صابر إلى المقعد المتحرّك ونرحّب بالغالية روضة.

قفزَ توأمان جميلان من باب السيارة إلى جُرْن جدّهم يتصايحان في المكان.

قالت المهندسة تعرّفنا إلى الصغار:

– هذا أحمد وهذا زياد.

– ربّنا يبارك يا مهندسة.

قلتُها وأنا أضبط وضْعَ الكرسي بجوار بابِ السيّارة، وأنور يمدّ يده مع زوج المهندسة أسفل إبطي الأستاذ صابر لنقله من مقعد السيّارة للكرسي المتحرك، وهو يصيح مرحّبًا بنا:

– كيفكم يا أحباب؟

– تسلم يا أستاذ.

بعدَ مصافحةٍ وعناق، دفع المهندسُ الكرسي بالأستاذ صابر، وجرى خلفَهما الولدان، ودنتِ المهندسة منّا:

– كيف حالكم يا رجال؟!

- بخير.. حمدًا لله على السلامة.

- أخبرني يا سيّد يا هاشم.

أعرفُ ما تعني بطريقةِ الاستجواب هذه، فبادرتها باسمًا:

- كما توقّعتِ، وكما اخْترتِ.

- آداب إنجليزي؟

هززتُ رأسي بالإيجاب، فصاحت:

- أحسنت.

أعلم أنّ المهندسة كانت تتوقّع شيئًا أعلى من هذا، وموقعًا لي أفضل في الجامعة، لكن هذا ما كان.. قالتْ بصوت جادّ، وبطريقتها المعتادة في بثّ الحماس، كأنه تغرزُ حاقنة في الوريد:

- بدأتَ المشوار الأصعب يا هاشم.. لا تنشغل بغير الطريق.

هززتُ رأسي ورددتُ ببسمة خجلة كأنها بمثابة وعدٍ بتنفيذ الوصية، إلّا أن الجملة الأخيرة وكزتني في صدْري فقد أحسست أنها تؤيّد السيد عمر بشأن شربات.. انصرفت المهندسة وهي تلوح لنا:

- غداؤكم معنا.

- وراءنا أشغال.

- ليس خيارًا يا هاشم بك.

قلتُ لأنور ونحن نسحبُ خرطوم الماكينة المعدني من ترعة الأفندية، وأتابع توأمي المهندسة يتشاكسان حول جدهما في الفراندة المطلّة على الحوض:

- أتعلم يا أنور؟

- ماذا؟

- الخضر أحيانًا يكون مفهومًا واضحًا يأخذُ ويعطي ويعطي ويأخذ، وأحيانًا..

قاطعني:

- تقصد عمّ خضر الحلّاق؟

ابتسمتُ زاهدًا في الشرح:

- لا تشغلْ بالك.. اسحبِ الخرطوم.

وضعتُ الخرطوم بالجرن، وألقيت الفأس والغَلَق في مدخل الدار، وناديت الأنثى الأخيرة التي بقيت في دارنا:

- لقمة يا عمّتي.. أنا واقع.

قبل أن أضع حبّة الطماطم في فمي الجائع، فاجأتني زغرودة من دار شعبان خلعت قلبي وفجّرت أعصابي، وضربتني بمرزبّة على قفاي؛ فالزغاريد تعني أنّ الصاروخ الذي أخشاه في زمان الحرب الباردة هذه قد انطلق وسبقني

حودة أو غيره من «الحُودات» وقطع الشكّ باليقين، واستسلمت شربات مع وقع نتيجتها البائسة لرغبة أبيها في تزْويجها وانتهت الرواية والحكاية.

الحمدُ لله.. أخبرتني عمّتي أنّ زغرودة خالة اعتماد تأتي إعلانًا لقراءة فاتحة ابنها عيد على ستّ أبوها بنت عمّ صبحي، والتي سيكتب كتابها خلال شهرٍ من الآن.. تنفّست الصعداء.. فرغم أنّ الخبر ذكرني أنّ هذا الشرير الذي صار نبيلًا طيبًا قطعَ معظم أشواط سكّته؛ فأنهى دراسته، وصار معاون أمنٍ ذا قيمة وهندام، وبدأ يبني سمعةً طيبة بعيدًا عن أبيه، وهو الآن يتوّج خطواته بالخطوة الأهمّ على طريق الرجولة في عزْبتنا؛ أمّا أنا فلا أزال أزحف على المفترق وأعالج المطبّات، ومعلقًا من عنقي في حبلٍ مدلّى من سقف الوجَع والضباب، لكنْ لا بأس فليواصل الطيّب عيد النجاحات، المهمّ أنّ التّخمين الأول لم يصدُق.

جهزتْ عمّتي «سَبَت» الزيارة كعادةِ الأهل في مثل هذه المناسبات، خاصّة إن كانت صاحبة المناسبة هي السيدة اعتماد صاحبة الواجب وحبيبة الجميع بخلاف زوجها الوغد.

- ما رأيك تأتي معي.. ونصفّي العكار؟

بدا اقتراحُ عمّتي فرصةً جيدة، وتوقيتُه مناسبٌ للغاية، وأستطيع به أنْ أذيب الثليج وأفلّ الحديد وأقفز إلى مُرادي مستغلًّا حالةَ الرضا من جهة الخضر قبل أن يفاجئني بمناوشة جديدة، ومستغلًّا وضعي كشابّ يافعٍ كسب نقطة كبيرة لتوّه وصار على بُعْد خطوات من الجامعة، أي إنّ حالي

الآن أفضل من حالي يوم وقْعة العجول، وبالتأكيد نسيت هذه الجافية ما كان وتخلّت عن تمنعها وتأهّبت لأعاود الطلب.

هززتُ رأسي مرحّبًا بالفكرة، وقد غمرتني نشوة شجاعةٍ لم أعتدْها من نفسي، فتركتها تنصرف وأخبرتها أن تسبقني وأنا سأوافيها بعد ضبْط هندامي.. رفعْتُ «السبت» على رأس عمّتي، وصعدت مسرعًا إلى القاعة أجهز حالي.

ارتديتُ جلبابي الجديد «أبو رقبة» ورششتُ عطرًا من بقايا أبي الحبيب، ثمّ اتجهت إلى الكتلة الحجرية لأرقبَ من الكوّة الحالَ على الطبيعة والتوزيع الجغرافي للضيوف ومدى إمكانية مفاتحتهم مجددًا وسط حالة الهرج هذه..

قبل أن أتّجه للكتلة الحجرية كان عمر في ظهري:

– الله.. الله.

الحمدُ لله أنه لم يضبطني متلبّسًا وأنا أعلى الحجر.. قال وقد أدرك عزمي:

– نويتَ يا عريس؟

– إن شاء الله.

باسمًا:

– الخيار الثاني؟

هززتُ رأسي مبتسمًا منتشيًا.. وقدّر عمر حالتي بل بدا مرحّبًا بشجاعتي وحماسي، وأني سأقطع مسافة جيّدة من مشواري:

– موفّق يا أستاذ.. ربنا يهديها بنت شعبان.

اعتدلت لأتحرّك، وقبل أن أخرج من باب القاعة وافتنا خالة اعتماد بصرخةٍ مدوّية بقوة الزغاريد التي أطلقتْها منذ قليل وربما أشدّ؛ فتسمرّت أنظرُ لعمر كأني أنتظر منه إجابة على السؤال: (ماذا حدث؟).

دفعتُ عمرَ وانطلقتُ مرتاعًا ملتاعًا موقنًا أنّ الخضر نزع سكّينًا من جرابه؛ فربما أجد الآن شربات ممدّدة على صدر أمّها وهي تلفظ أنفاسها وتزبدُ من فمها بعد أنْ شربت زجاجة سمّ «جولييت» وذلك على إثر محاولة أبيها الوغْد أن يغصبها على قبول حودة أو الولد حبشي، وهي الآن في انتظاري للوداع الأخير.

لم أنزلْ عبرَ السّلم، بل قفزت من مكاني نحو البروز الخشبي إلى الجدار الطيني إلى جرننا ثمّ إلى فسحة دار شعبان.

تطلّعت بدايةً لأطمئن على شربات، ودرت بعيني كالرادار قبل ولوج الدار.. الحمدُ لله وجدتها تشارك أمّها في العويل ما أكّد لي أنّ سبب الصّراخ هو العجول الهائجة دومًا، التي بالتأكيد أصابت هذه المرّة الرأسَ الكبير؛ فأعطوه الطّريحة التي يستحقّها؛ فها هو الخضر يتصرّف على النحو الصحيح وينتقم ممن يستحقّ الانتقام.

ظهرَ الناس على أبواب بيوتهم كنتوءاتٍ في جدار، ينتظرون الصرخة الثالثة ليتأكّدوا أولًا من مصدر الصّرخة، وثانيًا من جديّتها وأنها ليست مجرّد إنذار كاذب كردّة فعلٍ تعوّدناها من خالة اعتماد على هيجانِ العجول، أو حينما يضرب شعبان كريمته شربات.

***

آه، بلْ آهتان وعشرة.. الضحيّة كان السيد «عيد».

صفعةٌ خضرية جديدة فرقعَتْ على أذني فتركتْ صريرًا وصفيرًا.. رؤيته وهو يُسحب مِن على طاولة العجول المبنية بالطّوب الأبيض غارقًا في حُمرة فاقعة أصابتني بشلل مؤقّت.

احتملَه أبوه والشّيخ راجي إلى بهْو الدار وسحبت الثّور السمين الذي هدأ بعد أن أنهى جولته وأكّد للحضور ثيرانيّتَه، لأعيده إلى مزْوَده على الطاولة، وعيناي معلّقة بوجه عيد الذي انطفأ كأنه يسدل ستار فاصلٍ مسرحي.. اللّقطة نفسها رأيتها مع صاحب العمامة الخضراء، والملامح نفسها رأيتها على وجه أمّي منذ سنوات.

إنّه الموت يحوم فوق رأس الفتى.

هربتُ من المكان مرتبكًا مرتجفًا أشعرُ أني سأصطدم بجسد الموت سأتعثّر فيه سأدوس على ذيله، سأسقطُ بين قدميه.. إنه هو ببشاعةِ رائحته، بأثر مخالبه، بقسوة حضوره، كأنني أسمع صوته في نقيق الضّفدع القادم من الغيطان، أو في رغاء جَمل عمّ صبحي، أو ربما شجن أذان عمّ عسران، رغم أن أمّي كانت تراه روحًا ملائكية بأجنحة ملوّنة وكفًّا من ريش النعام.

أسرعوا به إلى المستشفى وقد دخل في إغماءةٍ على إثر النطحة والنزيف، وتكوّرت أنا في قاعتي منتظرًا النّتيجة الحتمية؛ ضربة السكين الذي لا يخطئ، والذي صار لي معه حالٌ.. بل أحوال، وأعرف قوة نصْلِه وسرعة خرقه.

ضربَ السائق زمّارة السيارة كأنه يأمر الواقفين بالإفْساح؛ فمعَه الآن أحدُ الأشباح.. سمعت شهقات عجائز وضربات صدرٍ واستهلال نواحٍ، أو توهّمتها. لا أدري.. لكن جاءت الحقيقة والخبر اليقين مع إعلان خالة اعتماد النهاية بصرخةٍ رفعت ستار الليل وكوّرت أوجاعي الماضية كلها في صيحة وألقتها لي من كوّة القاعة كما كانت تلقي شربات الحجر؛ فصرتُ شريكًا للخالة في الصرخة بآهة وجعٍ طويلة وموجة بكاءٍ تشبه حالتي يوم أمّي، ولم أكن أتصوّر يومًا أني سأبكي بهذه الحرقة على أول خصوم الطّفولة.

اصْرخي يا خالة، الصّراخ براح، مسافة يخلقها الإنسانُ بينه وبين الوجع كأنه يدفعه للوراء بقدر ما يستطيعُ فيندفع لحظات.. لكنْ ستخور قواكِ مع نهاية الصّرخة، ستخور الآن، سيعود الوجعُ ليدفع بابك من جديد، وستعودين لتصْرخي ثمّ تخور قواك مجدّدًا، وهكذا حتى يكسرك الوجعُ وينال شهوة إيلامه ويغرس النّصل في فؤادك إلى آخره، وبعدما يطمئنّ أنّك نلتِ القسطَ الوافر ككلّ الموجوعين السابقين، سيغادر غرفةَ قلبِك، سيغادر ببطء مؤلمٍ بارد، لكنه سيغادر.. إذًا اصرخي.. واصلي الصراخ.

دفنتُ رأسي بين ركبتي..

يا للجبروت! يا للقسوة!

الخضر يذهل عن شعبان الفاسق، ويلقي بسهمِه في قلب اعتماد الطيبة وينحرُ أمامها زهرةَ عمرها «عيد»! ومتى؟! في ليلةِ فرحته بشبابه وفرحتها

به!.. ذبح الغلام مجددًا، لكن هذه المرّة لم يكن أبوه صالحًا؛ بل وغدًا كالحًا صاحب يمين كاذب حانث بآيات الله.

أين أنت يا معلّم عبد الحميد؟ هل ستجد وجهًا حكيمًا لهذه الجريمة أيضًا؟

أعرف أنّك ستخترع لها تبريرًا؛ فقد سبقَ وتستّرت مع الخضر على جريمة مشابهة.. بل هذه أشدّ منها.

لم ينمْ أحدٌ في العزبة ليلتها، وسهر الجميع على أنّات خالة اعتماد التي ظلّت تردّد آهتها وتحرك جذعها برتابة كأنها نخلة ميتة الجذورِ في ليلٍ عاصف، ومن حولها تحلّق نساء العزبة في فسحة الدار والرّدهة، وافترش بعضُ الرجال الحصائر في الجرن الفسيح الذي كان منذ قليل ميدانَ سمرٍ أمام التلفاز ومسلسل الصيف.

في الصّباح، صلى عليه الشّيخ راجي ولم يستطع أن يمسك دموعَه بين التكبيرات الأربعة، وتسربت نهْنَهته لتُعدي أغلبَ صفوف المصلين.

تحرّكت الجنازة في مهابةٍ عجيبة، وتحوّل عيد الذي كان مغمورًا فينا وكان عاديًّا في الأولاد إلى صاحبِ سيرة وحكايات وترحّمات مُبكيات، حضر جنازته جموعٌ كبيرة، توسّطها ضابط شابّ وسيم ذو هيبة وهندام لفتَ أنظار الناس، رآيناه يحتضن شعبان ليسكتَه عن البكاء، لكنّه هو الآخر لم يتمالك فأجهش بالبكاء.. معقول!

أكلّ هذا من أجل عيد؟ حتى الضباط قساةُ القلوب يبكون عيدًا!

في لحظةٍ ما في حياتنا ولحظةٍ ما من موته، صار «عيد» البطل وصرنا نحنُ الظلال.

***

عدتُ إلى ا لدار وحللتُ بهائمنا وركبت الأتان لأتحرّك هاربًا من هذه الأجواء.

قالت عمّتي:

- خذْ معك جاموسة عمّك شعبان.

سبقتْني عمّتي إلى زريبتهم وفتحتْ لي الباب، فحللتُ الجاموسة وأنا غاضّ بصري عن الخيالات الجالسة والمتحرّكة في بهو البيت والمتشّحة كلّها بالسواد، والتي لا تزال تئنّ وتبكي، خشيت لو رأيت النّساء على تلك الحال يقتحمني مشهد أمّي وليس لي طاقة أن أرتدّ إلى الماضي الآن.

ربطتُ «بدرًا» وبجوارها جاموسة شعبان على مربطنا في استثناء يحدثُ لأوّل مرّة منذ أن عرفت عيني الغيط.. هيّأت المكان ورفعتُ الرّوث.. ثمّ دخلت في خطوط الذرة الخضراء الكثيفة المدهامة، أقطع شواشي العيدان وأوراقها وأنا أشعر أنّ روح عيد تحوم في المكان فتنتابني حالة من الخوف وأخرى من الشّوق.

ألقيت أغمارَ الشّواشي والورق أمام البهائم، ثمّ ألقيت بنفسي على السّكة الصغيرة بجوار القناة أرسل نظري إلى مربط شعبان.. أقول لنفسي: معقول، ألن يظهر عيد مجدّدًا هناك؟! معقول رحل الفتى بلا عودة مثل أمّي؟ هل حمل

الآن لقبَ (كان) مثل أبي؟ لا عراك لا ضحكات لا مناكفات لا مباريات كرة؟!

أسقطتُ عنقي بين ركبتي ودخلت في موجةِ بكاء، وربما اعتذار أنّ الوقت وضيق النظر لم يسعفاني لأرى وجهَه الآخر كاملًا، ولم يتحْ لي من مشاهده في الحياة إلّا خصومة الصبيان.

ثمّ رفعتُ رأسي أعيدُ النظر إلى مواقع مهارجاتنا ومعاركنا.. كانت هنا.. هنا سقطت شربات على إثر لكمةٍ مبروكة، وهنا أصيبت مبروكة على إثر رمية شربات.. وهنا لكمتُ "عيد".. وهنا لكمني، وليته زادني لكمات.

في المساء، أدخلت الجاموسة إلى الطاولة المنفصلة عن الثيران، رأيت خالة اعتماد شدّت رباطًا على رأسها وقامت تعلفُ العجول بثبات مزوّر، ألقيت السّلام وتناولت من يدها شكارة التّبن لأكمل ملء مزاودِ العجول غير المأمونة، وبعد أن أنهيت مهمّتي وغادرت خالة اعتماد الزريبة، دنوتُ أكثر من طاولة العجول أنظر آثارَ دماء «عيد» على الطوب الأبيض والمستطيلات الإسمنتيّة، انقضبت منها كأنها ستتمثل الآن شبحًا؛ فانسحبتُ مغادرًا المكان.. لكنّني تعوّدتها على مدار الأسبوع الذي قضيته أدخل وأخرج من زريبتهم بالجاموسة وأعلفُ العجول حتى آنستها، ثمّ فكّرت أن أغسلها حتى لا تكسر قلب الخالة اعتماد كلّما رأتها.

بلّلت جلالًا قديمًا من الخيش ملقًى أمام العجول، وبدأت مسح البقع الحمراء التي بهتت؛ فصاحت شربات التي فاجأتني من خلفي:

– دعْها أيها الغبي!

أُخذت من ظهورها وإهانتها غير المتوقّعة أو ربما المتوقّعة.. توقّفت مكاني أفكر في كيفية التعامل مع الموقف ومع تطاولها، ولو كنّا في حال غير الحال لكان الحلّ بسيطًا، ولاستدرت وجذبتها من شعرها البنيّ، ولكمتُها في عينها التي تتباهى بها.

جاءت خالة اعتماد المجْهَدة مسرعة تحمل ابن خضرة الرضيع على ذراعها عاقدة طرحتها السوداء على رأسها؛ فنظرت إليَّ تستوضح الأمرَ فليس بها طاقة للأسئلة.

قلت:

- فكّرت أن أمسح آثار الدّماء؛ فهي تذكّر بالمرحوم وتوجعُ القلب وقد تفتح...

هزّت الخالة اعتماد رأسَها مستحسنة الفكرة قبل أن أكملها، مشيرة إليَّ أن أستكمل ما بدأته، مادحة إيّاي كعادتها معي:

- ربّنا يزيّنك بعقلك.

- تمسحين بقية عيد يا أمّي؟!

قالتها شربات وهي تبكي محتجّة، فأجابتها أمها بهدوء:

- أخوك لم تأكله السّباع حتى نأتنس بـ(بقعة دم) بقيت منه.

هززتُ رأسي مؤيدًا وآنستُ من شربات رضًا، فاستدرت لأتمّ مهمّتي فقفزت المجنونة نحوي دون تحْذيري، وكأنها تأخذ بثأرها فدفَعَتني بعيدًا عن بقعة الدّم، فتخبّلت في أحدِ الحبال وسقطت على قرن أحدِ السّادة العجول

فانغرز قرنُه في صدري أو كادَ فصرخت شربات.. فتراجعت متأوّهًا وجذبتني الخالة بعيدًا، وهي تلعن ابنتها الغبية التي انسحبتْ باكية، وحمدتُ الله أنّ العجول قدّرت أنّ المسألة مجرّد سوء تفاهم وسقوط غير مقصود.

أخذتُ قطعة الخيش وواصلتُ غسل مواقع الدّماء بقلبٍ منقبض، فمن جهةٍ أنا أمسح آثار عيد الأخيرة، ومن جهة أخرى أخشى انقضاض أحدِ العجول، خاصّة أني موليّهم ظهري! أصابتني رعشة عند البقعة الأخيرة كأنه تمثّل أمامي يودّعني؛ فتوقّفت قليلًا أدقّق في البقعة، لكنني أسرعتُ بمسحها، ثمّ توجّهت للباب منصرفًا هاربًا من الخيال.

بادرتني:

- هاشم.

ظننتها ستعتذر، لكنّها قالت:

- أتذكُر عراككما؟

توقّفت عند الباب بالعًا لعابي؛ فمثل هذه الذكرى تؤلمني، فهل تريد الغبيّة أن توبخني؟ ألم يكفها ما فعلتْه قبل قليل.

أردفت:

- كان جميلًا.. نعم كان جميلًا.. كان عراككما ملح أيامنا.

التفتّ إليها دهشًا من جملتها ومن تباسمها الذي أطلّ في وجهها الشاحب، وقد بدا لي أنها سبحت بعيدًا على ضفاف ماضينا ومواقع مشاكساتنا.

قالت:

- كان إحدى نوبات سعادتنا، كان مزاحمة لطيفة تؤكد أننا أحياء، بصمات تركْناها للذّكرى على أجساد بعضنا.. هنا تحت أنفي آثار ضربة مبروكة، وفي وجهها أثرُ رميتي.

ثمّ سكتت تلتقط أنفاسها التي زاحمتها عبرةٌ مخنوقة:

- وآثارُ ضرباتك كنت أراها على جسد عيد.. فأتأمّلها كأنها هديّة منك له، أو ربما لي.

تسرّبت الدموع من عينيها، وزممتُ شفتي متفاجئًا بكلامها المنمّق غير المنطقي.. صحيح هي تجيد اختيار الكلمات، لكنّ كلماتها بدتْ غريبة عليَّ، ربما أكثر عمقًا من خيالي، وربما كانت تحاول تبييض وقائعنا السّوداء.

استطردت:

- وأنت يا هاشم؟

انتبهتُ لها:

- تحسّس جسدك؛ ستجدُ مواضع لكْمات عيد، وربما تجدُ على ظهرك ووجهك مواضعَ عضّاتي وخمشات أظافري.

دنتْ منّي، وقالت وهي تمسح دمعها ورشحَ أنفِها بكمّها:

- أتعلم يا هاشم.. كان يحبّك.

ثمّ أجهشت بالبكاء وانصرفتْ إلى الداخل، تاركة إيّاي متجمّدًا في مكاني أستعيد اتزاني وأوقف دمعتي عند سدود جفني، ثمّ انصرفت.

***

في الأسبوع الثاني حضر شعبان يجرّ قدمه ساحبًا جاموستهم والحمار شاردًا شاحبًا.. ربطهما في المربط واستلقى خلفهما استلقاءَ مهزوم خائر مُتْعب رافض لأيّ نشاط يوحي بالحياة.. ورغم منظره البائس هذا لمْ تفلحْ مصيبتُه أن تكسر بغْضي له؛ بل ربما ضاعفته؛ فأنا كلّما رأيت سَحنته أتذكّر أنّه كان الأولى بالقتل، بل ربما قصده السّهم ثمّ طاش.

دنوتُ منه أعرض عليه خدْمتي مضطرًّا:

- أحشّ للجاموسة غمر «جراوة[1]» يا عمّ شعبان؟

هزّ رأسه بالإيجاب منكسرًا ثمّ أمسك بيدي دونَ كلام، وتجمّد نحوي يتفرّس ملامحي كأنه يراني لأوّل مرّة، أو ربما يرى فيَّ ولده الراحل:

- عيد مات يا هاشم.

برقتِ الدّموع على محْجر عينيه المنطفئتين من كثرة البكاء.. هذا شعبان جديد بالتأكيد.. أدركته قبل أن يدخل في موجةِ بكاء وجلست بجواره على حافة القناة:

- قدّر الله يا عمّ شعبان.. هو في مكان أفضل.

(١) نوع من الذرة الكثيف يذرع خصيصًا للبهائم.

لم يستطعِ الرّجل أن يمسك دموعه، فتركها تهبط دونَ صوت، واستطردتُ أنا في الحديثَ أحاول إبعادَه عن رحلة أشجانه وإبعاد قلبي عن الرّقة له؛ فليس لي القدرة على ربْتِ الأكتاف ومصّ الشّفاه والمواساة، خاصّة لو كان المُواسَى شعبان:

– اذهبْ أنت يا عمّ شعبان، وسأطعم أنا البهائم.

قام دون أن يردّ عليّ برفض أو موافقة، دنا من القناةِ وشمّر جلبابه، فتوضّأ بهدوء، ثمّ كبّر للصلاة.. وقفتُ أناوب النّظر لسعد الذي وقف مندهشًا مثلي، وفي يده كوزُ ذرة أنهى شواءه على قطع الأخشاب؛ فلأوّل مرّةٍ نرى شعبان يصلي.

فجأةً سقط الرجل السّمين مغشيًّا عليه.

رددتُ شعبان إلى البيت وقد أفاق في الطريق، وعليه قرّرت أن أستكمل ما بدأته وأظلّ هذه الأيام «كلّافًا» لديهم حتى يستعيد الرجلُ توازنه، وخرجت وأنا أفكّر في حاله وأحاول أن أرقّق قلبي عليه وأعيدَ قراءة بلائه من جديد.. فلعلّ..

وقبل (لعلّ) رأيت عند خروجي بلدوزر يتبعه سربٌ من الجرّارات والمقطورات محمّلة بكميات كبيرة من الرّمل والأحجار الصخريّة متنوعة الأشكال والأحجام وشكائر الأسمنت وأطنان الحديد متجهة إلى موْقع قصر الحاج فؤاد الذي بركَ على قواعده منذ يوم الزلزال.. وعليه لم أكملْ ما بعد (لعلّ)..

أجابتني عمّتي أثناء العشاء:

– جمعَ أضعافَ ما كان يملكه، وجاء ليعيد بناء القصر.

– مِن الرّبا أيضًا؟

– مِن الربا وغيره، المهمّ ليس من الحلال.

ضحكتُ بصوتٍ عال، فنظرتْ لي عمّتي دهشة، وسألني بركة:

– ما يضحِكُك يا هاشم؟

– تذكّرت المعلم عبد الحميد.. كان يقول سقوط القصر جاء عقابًا لفؤاد على جَمْعه الحرام.. وها هو الله يسّر له أموالًا مضاعفة.. فعاد الرجل وكأنه لم يخسر شيئًا.

قالت عمّتي وهي تضع أمامي طبقَ العسل الأسود:

– ربّما خسر يا ولدي أشياء.

رددتُ بغير اقتناع:

– ربّما.

***

في ليلة الأربعين تصدّر الجلسة الضابطُ الصغير بهيّ الطلّة الذي سبق وحضر جنازة عيد، يتحدّث عن محاسن المرحوم وأمانته وإخلاصِه، ويقارن بينه وبين سائر أقْرانه، وجلس الناس بين يدي الضابط يهزّون رؤوسهم ويمصّون شفاههم مترحّمين، وبعضهم تدمع عيناه.

في نهاية الليلة دلفتْ خالة اعتماد إلى المندرة في حضور رجالِ العزبة والضّابط الصغير، وشغلت التلفاز على نشرة التاسعة، ورفعت الصوت وسط دهشة الجالسين الذين تبادلوا النّظرَ مستنكرين.. انتهرها شعبانُ بصوتٍ هزيل على فعْلتها الغريبة؛ فجثمانُ ابنها لا يزال في أربعينه:

– انخبلتِ يا اعتماد!

حدجتْه بنظرة، وقد صارت أقوى منه بعدما أوْهنَ الحزن قواه؛ فسكت..

قصدتِ الخالة بفعلتِها هذا أنْ تعطي إشارةَ السماح للجيران بأن يفتحوا تلفازاتهم ويعودوا لحياتهم، وألّا يكون «عيد» سببًا في التّضييق على أولادهم؛ فكانت العادة ألّا يدير جارٌ مذياعًا أو تلفازًا حتى يأذن صاحبُ المُصاب أو يمرّ وقت مناسب، وقد بدأت خالة اعتماد بنفسها رغم أنّ الجميع يدرك أن في جوفها نارًا تضطرم لكنّها تستقوي بقوى خفيّة كالتي كانت تقويني.

رغم تأثّري بالمشهد الدرامي البديع لخالة اعتماد إلّا أنّ انتحاء الضابط بخالة اعتماد وشربات آخر الليل يراجع معَهما أوراقَ «عيد»؛ أثار انزعاجي؛ فقد يثير الوغدُ الوسيم إعجابَ ذات العيون الخضراء بتبسّطه ونبله اللّذين يبْديهما، بل ما المانع أن أجدَه في قابل الأيام منضمًّا إلى فريق حودة لينافساني متحدّين!

***

آنسَ الزمان بيتَ شعبان بأبناء ابنتهم خضرة التي تتعمّد إطالة المكوث في بيتهم منذ رحيل «عيد» إيناسًا لوحشة أهلها، فأعاد الطفلُ الجديد وأخته الكبرى روحَ الحياة للبيت الصامت، ورأيت شربات ذاتَ يوم متلبّسة بهيستيريا ضحك عندما بال الصغيرُ على رأس خالة اعتماد، ما يعني أنهم بدؤوا التّملص من قيود الوجع، كما فعلتُ أنا من قبْل.

مع بدْء الدراسة واستهلالِ موسم البرسيم، أخبرتني خالة اعتماد أنّ "شعبان" اتّفق مع «حودة» ليرعى الغيطَ بأجرته، فأنا لن أستطيع أن أكونَ متفرّغًا لحقلنا أصلًا فضلًا عن حقْل شعبان وبهائمه علاوةً على أنّ ذلك الوضع لم يعدْ يليق بي كشابّ سيرتاد الجامعة وسيصير صاحبَ مقام ومكان، وينادونه الجيران من الآن بـ«الأستاذ».

ألم تجدوا إلّا حودة! قلتُها في سري ثمّ بادرت أقترحُ شخصًا آخر:

- لكنّ حودة ليس صاحب زراعة، وداره في عزبة «عوض الله».. أنور أوْلى وجارُنا.

- حودة رحّب بالأمر.. كثّر خيره.

هززتُ رأسي بترحيبٍ كاذب بالفكرة، وأنا أهمهم مغتاظًا:

- كثّر خيره!

انصرفتُ من المكان إلى دارنا مُستاء من ذلك الختام.. وقبل أن أصل عامود الإنارة سمعت ضربة مداسِها خلفي:

- هاشم!

استدرتُ على صوتها المحبّب لكنْ بنظرٍ شارد مغضوض احترامًا لحدادِها الذي أوشك على الانتهاء.

- أعتذرُ إليك.. لم أكن أقصد.

فهمتُ أنها تقصد دفعتي على قرْن العِجل.. فتباسمتُ وأنا أسترقُ النّظر نحو عيونها التي أفتقدها، ثمّ أهرب:

- لا عليك.. واحدةٌ بواحدة.

وقبلَ أن أفكّر في أيّ إضافة أو أرتّب جُملة من جُمَلي البطيئة، كانت العجولة استدارت مُنصرفة دون استئذان.

***

(٤٧)

كانت وفاةُ عيد نفسًا طويلًا منحَني مُهلةً جديدة لإعادة النّظر إلى ذاتي، ومنحني وقتًا وافرًا لأتوقّف قليلًا عن اللّهاث وألتقطُ أنفاسي، ومنحني هدوءًا في علاقتي بشربات، وأجبرني على التفرّغ لأوّل منازلي في عالم الجامعة، وأولى بصماتي الحقيقيّة في دفتر أحوال الدنيا، بحسب تعبير المهندسة.

دعاني عمرُ للعشاء عنده أنا وعمّتي وبركة، ربما ليغيظني بطعامِ زوجته اللّذيذ، ويذكّرني بوحدتي البائسة، أو ربما ليفتح شهيّتي لأنهي معركتي مع نصفي الآخر بالخيار الأول أو الثاني.

دخول الجدّ كان أشبه بكبسةِ البوليس في مفاجأته، وأشبه بالعيد في بهجته، انتفضنا جميعًا عن المائدة سعداء بطلّته نستعدّ لعناقه الحار، رغم أنّه لم يغبْ أكثر من أسبوعين؛ فوجئت أنه تجاوز بركة وعمر وعمّتي وزوجة حفيده الحامل؛ وأقبل عليَّ يضمّني بقوة، ثمّ حملني إلى أعلى ودارَ بي كأنّ شيطانًا مسّه، ووقف سائرُ السّادة يتابعون دهشين، وصاح بركة الذي لا يرى، وأيضًا لا يسمع ما يدور:

- ماذا يحدث يا ناس؟

- أبْشر يا هاشم.

قالها الجدّ وهو يدعني على الأرض الباردة؛ فتركتُ نفسي لأقعد بسقوطٍ بطيء، وقد أدركت سببَ فرحته الغامرة من خلال رعشتي اللاإرادية التي صارت تلازمني كقرونِ استشعار مع كلّ محطّ للبهجة أو للأكْدار، قلتُ له مجيبًا لا سائلًا:

– أبي!

بادرني بصياحِ فتى كسبَ مباراة كرةٍ لتوّه، أو أحرز هدف الختام:

– عائد.

قفزتُ في الهواء وأعدتُ احتضانه، ثمّ انسللتُ من بين ذراعيه لأقبّل بركة وعمّتي وعمر، وكدتُ أحتضنُ نورا زوجة عمر.. يا للسعادة!

توقيتُك رائع يا خضر!

قبلَ أن تسأل عمّتي سبقتُها لأعلن انْفرادي به وحْدي في جُملته والقادم منها:

– متى يا جدّ؟

أجابَ واثقًا باسمًا:

– قال قريبًا.. وقريبًا تعني قريبًا.. وعبد الحميد إذا وعد لا يخلف الميعاد.

– أوه! ماذا يعني بـ«قريبًا»؟

قالها بركة وهو يضربُ فخذَه مغاضبًا، لكنّني واصلت تحرّكي في المكان لا أستطيع ضبط أعصابي، أمسك بتلابيب الفرحة التي أحتاجها وأتوقّعها في كلّ حين، ولم يكنْ يصدّقني المحيطون، حتى عمّتي كانت تتّهمني بالجنون؛ لأني أقول إنّ أبي موجود معافى يذكرنا وسيعود، صحت:

- قريبًا أو بعيدًا.. عامٌ أو عامان لا يهمّ، يبقى كما يريد، المهمّ أنه بخير أنه معافًى سعيد.

وقبل أن أواجه عمّتي، وأذكّرها أنّي تقريبًا كسبت الرهان وغلبتُها في ظنّها القديم، دخلت في نوبة بكاءٍ مفاجئ؛ فقد فجّرت المفاجأة مخزونَ الشّقاء الذي تراكمه منذ سنوات خلف تلالٍ من بقايا الشكّ والحنق والحبّ والشّوق وعلامات الاستفهام التي لا تجدُ إجابة عندها.

لأوّل مرّةٍ أرى عمّتى تبكي بهذه الحرقة كسائر النّساء، انكسر سورُ جفْوتها وتساقط طلاء المرار المتّصل منذُ رحلتها مع الضّرير، ثمّ وفاة أمّي، ثمّ عيون بركة، ثمّ غياب أبي الذي كان المسمارَ الأخير في نعش فرحتها.

كتمتْ طوال الأيام الخالية أسئلتَها المندهشة المسْتنكرة عن خروجه غيْر المبرّر من حياتنا واصفةً إيّاه بالهروب، بعد أشهر قالت في نفسها (يقينًا مات)، يستحيل أن يتركنا ليُفعل بنا هذا وهو على قيْد الحياة.

احتضنتُ عمّتي مشفقًا عليها، وأنا لا أدري تحديدًا هل بكاؤها لأنّه حيّ ورغم ذلك زهد في وصلنا وها هو يضيف إلى غيبتِه «قريبًا» مبهمة! أم فرحتها لأنه لا يزال على قيْد الحياة، وكفى بها نعمة!

شرحٌ وفرحٌ وأعصابٌ توشكُ على الانهيار من أثر البُشرى التي جاءت مؤكّدَة من الجدّ، والتي جاء معها بتفاصيل ملامحه وضحكاته وثيابه وأصحابه.

بعد أن سلمنا من منتصف القيام وأنا ذاهلٌ عن الآيات وعدد الركعات غائبًا خلف ستار فرحتي ونشوتي بخبر أبي، قال الشّيخ راجي في جلسة الاستراحة كلامًا كثيرًا مكرورًا يلاحقني في كلّ مكان عن الإيمان والأقدار، وأنا أبتسمُ منشرحًا مؤكّدًا إيماني الذي صارَ يعلو ويهبط بحسب نفحات الخضر ولفْحاته.. أرنو للمعلّم شعبان الجالس بجواري يهزّ جذعه كدرويش حاصرَه وجْدُه، تتساقط الدّمعات خفيّة من تحت جفونهِ الحمراء، وأقارن بين حاله اليوم وحالي، وحاله أمس وحالي.

أريدُ أن أقومَ فأحْتضنه وأعيد عزاءه كما ينبغي، أريد أن أبثّه بعضًا من فرحتي لعلّها تعيد فيه الحياة أو بعض الحياة، فأنا سبقته إلى الميدان نفسِه قبل سنوات، وأشعرُ بذاك الوخز الذي يضرب بشكلٍ رتيب على فؤاده.

سبحانَ الله! مَن يصدّق أنّ هذه الصخرة الصمّاء تتشقّق فيخرج منها الماء!

***

(٤٨)

بعد أشهرٍ مِن الانضمام لوفودِ الجامعة وضجيج المدرّجات وأبهات الأساتذة.. كانَ عليَّ أن أقرّ أمام ذاتي أنّ أشياء ما تعمّقت في عقلي، فمسحت أشياءُ أشياءَ وأحلّت مكانها أخرى، وحرّكت أشياء أشياء من فصّ إلى فصّ، أو من الزاوية إلى المخّيخ.

هل كان يعلم عمرُ الغيبَ عندما قال واثقًا (ستتغيّر)؟ أم هي قواعد خضرية علمها هو قبلي؟ هل صدَقَ عندما خوّفني الزحام أو ربما بشّرني به؟ هل ما أنا فيه الآن هو بداية تخلق خليّة الانقلاب على الذّات القديمة التي أصابت مبروكة وعمر و"عيد"، وربما شعبان.. هل أنا على وشكِ التّغيير؟

لكنْ إلى أيّ حدّ قد أتغيّر؟

بدأتُ لتوّي محادثة تلك الشّقراء، بعد خجل وتردّد وعرق وحشجرة تمنع خروج الكلمات، لكنني تكلّمت.. وجاءتني تلك البدينة لأترجمَ لها فقرةً من رواية (حلم ليلة صيف) التي اشتريت أصلها وترْجمتها، وحفظت أحداثها.

سألَ الدكتور ذاتَ يوم الحاضرين متحدّيًا: (مَن يترجمُ فقرة تحوّل رأس الفلاح إلى رأس حمار دونَ أن ينظر في الكتاب!) ففعلتها، وصفق الطلاب معجبين.

انتقالي المفاجئ من ثياب الأكَري العرقان في الغيطان إلى ذلك السيّد الوجيه كامل الأناقة– رغم أنّ الفارق الزّمني قصير للغاية– كان كفيلًا أنْ

يغيّرني.. أن يزلزلني.. أشعر أنني صرت مختلفًا رفعتني حالتي الجديدة عن واقع الأرض والطّين والدار والحنين، بل البنات بأطيافهنّ، يبدُنّ أحيانًا أجملَ من شربات.. بالكلام والعلم والزّحام والدّلال والملابس وأشياء لا تقال.

نزلتُ من السيارة المتّجهة من دمنهور إلى الدلنجات عند أوّل طريق «الاتحاد» فلم أجدْ سيارات تقلّني كعادةِ طريقنا الموحِش في هذه الأيّام، خاصّة وقد أوشكَ مدفع الإفطار على الانطلاق. سرتُ أكمل حديثي في الهواء مع الهواء.

رغم تغيّر الصّور، وتوالي اللّقطات وزحامها في الذّهن، وتغيّر مذاق الحياة، إلّا أنّ شربات لا تزال في موقعِها في الفؤاد؛ فأيّ سؤال عن حبّها إجابته لا تزال واضحة لديّ لا تعرف التهتهة ولا تريد مهلةً للتّفكير؛ لكن يراوغني سؤالُ عمر العقلاني:

- سنسلّم أنها في فؤادك، والحبّ قدرٌ كسائر الأقدار، لكن الاختيار منطق، الاختيار قرار.. فهل هي الآن كفيئتُك؟ ألم تشعر بعد أن المسافة تتّسع لصالحِك؟

هذا السّؤال كان ختامَ أسئلة عمر التي سألني إيّاها في رحلاته معي بسيارته منذ تقديم الأوراق، وبعدها سكتَ عن شربات منافقًا إيّاي، وإن كانت عيونه لا تزال تكرّر السؤال.

كادَ يخونني حذائي الجلدُ الجديد وأسقطُ على ظهري عندما غيّرت اتجاهي هابطًا من كوبري الشفيعي إلى سكّتنا الصغيرة المؤدّية إلى العزبة، لكنْ

تداركت الموقف الحرجَ مستندًا براحتي إلى الأرض ولم يرني أحدٌ؛ فالساعة ساعة إفطار، والليل قد واربَ ستاره.

عند مدخل العزبة صاح عمّ سنوسي الذي يسقي بهائمه من حوض الطلمبة وقد ميّزني في غبش المغربية من كتاب شكسبير المميّز بصورةِ غلافه (ملكة تحتضن رأسَ حمار) الذي أحمله آيبًا ذاهبًا ومعه أجندة المحاضرات:

- تفضّل يا أستاذ هاشم للإفطار.

لقبي الجديد هو أحدُ حيثيّات الحكم لدَى القاضي عمر، يستخدمه دومًا في محاولات جذبي إلى حيث يريد، فقد أدركَ بحاسّته التي قلّما تخيب أنّ (الأستاذ) هو ملخّص المرحلة، وفيه تكمن كلمة السرّ في حتميّة التغير والانقلاب، لا سيّما وأنا على وشك اجتياز أوّل الامتحانات.

وعلى ذكْر الفَصيح قابلني في الطريق عائدًا من الصّلاة، فأقسمَ عليّ ثلاثًا أنْ أدخل للسلام على رضيعه الذي لا يكفّ عن البكاء.

قبّلت الولدَ وسلّمت على زوجته الإسكندرانية وهممتُ بالانصراف لأدرك الإفطار مع عمّتي وبركة؛ فأقسمَ عليّ مجددًا أن أفطرَ معهم، فهو لديْه (كلام هامّ يريد أن يقوله)، وتلك جُملته دومًا إذا أراد أن يثيرَ شغفي، جلستُ مضطرًّا ودخل السيد إلى الحمّام.

سألتني نورا كأنها تأخذ مقعدَ زوجها في استجوابي، بعد أن تخلّصت من زنّه منذ فترة:

- كيف حال شربات؟

ارتبكتُ على ذكْرها على غير عادتي، فرغم أني أعرف أنّ زوجة عمر تعرف كلّ شيء عن قصتنا الغريبة، بل صارت صديقةً لشربات، وتتبادلان الزيارات، لكنني لا أحبّ أن أتحدّث عنها هكذا في الجلسات، بل ربّما قصدت نورا بالسّؤال: (كيف حالها في قلبي؟)

قلتُ لها هاربًا من الجواب:

- أنتِ أدرى.

قالتْ وهي تضع كرسيًّا إضافيًّا إلى سفرتها:

- ألَا تعرف أنها تركت الثانوية!

انتبهتُ منزعجًا، فأردفتْ زوجة عمر التي صارت تشبهه، وقد تعمّدت تهيئتي لأمرٍ ما:

- وفُصلت بعد تغيّبها.

وضعتُ كوب العصير إلى المنضدة وأنا أنظرُ لنورا لتتابع، لكنّها سكتت مكتفية بالمعلومة، وتركتني أهمس لنفسي.. (لماذا فعلتِ الحمقاء؟).. ثمّ التفتّ إلى نورا أسألها عن شيء أهمّ؛ راجيًا أن تفهمني دون أن تطلب تفصيلًا وقبل أن يخرج زوجُها:

- هل حدّثتك عن شيء آخر؟

هزّت رأسها نفيًا موحيةً أنها تفهم مغْزى السؤال.. فأعدتُ ظهري إلى المقعد متنهّدًا، فالغبية تزيد الأمر تعقيدًا، بل تشارك متعمّدة في دفع الإجابة على سؤالِ عمر بحَسب ما يهوى عمر وحودة وأبوها شعبان.

مثل عود الثّقاب عندما تشعله لتبحثَ عن شيء ضائع في عتْمة الظلام، خرجت أنثى بوجْهِ ملاكٍ تخطر في فستانٍ أحمر من إحدى حجْرات البيت كأنها حوريّة خارجة لتوّها مبلّلة بماء البحر بعد غياب طويل وسطَ القناديل.. اهتززتُ مكاني كأنّ زلزالًا وقع في حيّزي مأخوذًا من الظهور المفاجئ ومخطوفًا إلى ذاك الوجْه الساحر.

هل هي طيفٌ أيضًا؟ أمْ ربما تغيّب صاحب العمامة الخضراء لوعْكَة صحيّة فأرسل ابنته ذات العيون الحوراء.

نظرتُ إلى عمر الخارج من الحمّام أستعلمُ عن هويّة الضيفة؛ فرأيته متلبّسًا بابتسامة ماكرة يبديها من خلفِ منشفتهِ، تؤكّد أنّ الفتاة إحدى الإنسيّات وليست جنيَّة موفدة إليَّ بشكل خاص.

بادرتْ نورا:

- أختي إلهام.

انتصبتُ واقفًا كإجراءٍ مهذّب محرجًا كاسرًا بصري محاولًا ضبطَ أجهزتي التي عطبت منذ شهور، والتي زادها الماسُ الكهربائي الحاصل الآن عطبًا:

- أهلًا يا فندم.. أهلًا وسهلًا.

أدركتُ سريعًا أنها هي التي حادثني عنها عمر منذ عام، وربما جلَبني في هذه السّاعة متعمدًا أن يقذفني بها أو ليقذفها بي كما ظهرَ في ابتسامته، وذلك استمرارًا في رسم الطريق أمامي إلى مسارٍ واحد، مقتنعٌ هو به بعد أن أعياه

الإقناعُ بالكلام.. وكما توقّعت وجدته متسمّرًا على رأس مائدة الطعام يدّعي أنه يضبط مفرشَها ويراقبني ليستكشف- باستمتاعٍ- تغيراتِ ملامحي.

أردفتْ نورا وهي ترصّ الأطباق:

- تدرس بتجارة طنطا.. واليوم أنهت الامتحانات.

ثمّ مازحة:

- وتأوي إلينا من وقتٍ لآخر لنطعمها.

هززتُ رأسي معاودًا التّرحيب، وأنا مشيح عنها خوفًا من تكرار النّظر إلى وجهها الذي ينافس صبية أخرى لا تزال تشغلُ حيّزًا في ذاكرة الغلام، وقد عاودني خجلُ الأيّام الخوالي الذي كادُ يتبخر بعد نصف عامٍ في الجامعة.. ثمّ عرّفتني نورا إلى أختها وهي تشير نحْوي بطبق فارغ:

- الأستاذ هاشم ابن عمّ عمر.. كلية آداب.

طالتْ جلستنا وإن قصرت، وظلّ الكلام طائرًا على المائدة يتلاقفُه عمر وزوجته وإلهام وأنا صامت هاربٌ في طبق الأرز وشاشة التلفاز مدّعيًا الانشغال بعمّ «شكشك» الجالس دومًا في شباك حجرته ليناكفَ خلق الله.. صحيح لم أعدْ بخجلي القديم لكنّني لا أزال عاجزًا عن المسامرات والمجاملات والأسْئلة المنحوتة لتسلية الجلسات، لا سيما في حضور فاتنةٍ مثل تلك التي تجلس في مقابلتي.

بادرتْني إلهام:

- في أيّ الأقسام؟

بلعتُ حبّات الأرز بصعوبة ولم أصوّب بصري نحوها، بل أجبتُ بنصف نظرة ونصف صوت:

- إنجليزي.

- ممتاز. إذنْ نقول لك: مستر هاشم.

هززتُ رأسي متباسِماً شاكرًا.. أنهيتُ طعامي ونهضت مرتبكًا واستأذنتُ في الانصراف متحجّجًا بعمّتي وبركة اللّذين ينتظراني، حاول عمر إيقافي بأيْمانه الطائرة يريد أن يطيل جلستي ويؤكّد ورطتي، لكنني كنتُ أغلقت الباب خلفي.. أسندتُ ظهري ثواني على الجدار ألتقط أنفاسًا أصل بها إلى الدار.

عاودتُ الأكل مع عمّتي؛ فأنا لم أكنْ أستطيع أنْ آكل بطبيعة الحال في وجود ذلك الكائن الغريب العجيب الذي أظهرها عمر ليتحدّى بها شربات، وللإنصاف قد تكون الفاتنة أجملَ من..

قطعتُ على نفسي الخاطرة معتذرًا للغائبة التي لا تقبل المنافسات.

***

(٤٩)

جلستُ ساعةً قبل الرحيل إلى ساحة النوم أتقلّب على لوح ثلجي، متسائلًا: هل أوقعني عمر في الشَّرَك الذي نصبه بهذه السّهولة؟ وإن كانت الجميلة الإسكندرانية شكّلت لي خاطرًا حاضرًا من رؤية يتيمة عابرة؛ فكيف لو التقيتُها ثانية وثالثة ورابعة! هل يستطيع أن يفعلها عمر ويسحبني بحبل حريري من عنقي إلى شاطئها الجديد البِكْر ويسرقني من شربات؟

وإنْ لم يستطع أن يفعلَها عمر، فما غايةُ الخضر من هذه اللّعبة الهزلية، لماذا أظهرها إذًا؟!

لا، لا.. الطيفُ العالق بذهني مجرّد وهْمِ خيالٍ يشبه خيالَ صاحب العمّة الخضراء.. بل مجرّد حادث سير ارتطمتْ فيه ذكوريّتي بأنثى ليس لي عهدٌ بمثلها؛ فأصِبتُ بجرح سطحيّ سريعًا ما ستتبدّد آثاره مع ظهور الصّباح وذوبان اللّوح، وربما مع أوّل طلّة في وجه شربات.

***

يوم الثلاثاء لا بدّ أن أتحرّك إلى الجامعة بعد الفجر بقليلٍ كي أكون في دمنهور في موعد الامتحان، وأي تأخير يعني أنني لن أدركَ السّيارات بسبب زحام الفلّاحات المتّجهات بأسبتِهنّ إلى «سوق الثلاثاء»، هذا بالإضافة إلى أفواج طلّاب الثانوية الذين يخرجون في السّابعة متّجهين إلى الدّلنجات.

رأيتُ خضرة في غبش الشبّورة لا تزال بملابس الحدادِ تكنسُ جرنهم بمكنستِهم «البلح».. وجدتها فرصة جيدةً لدحرجة الهاجسِ العابر الذي زارني أمس، فلعلّي أرى المذكورة الهاجرة.

دنوتُ من خضرة مسلمًا، فردّت باسمة:

- أهلًا يا أستاذ هاشم.

صارَ اللّقبُ لصيقي، حتى خضرة التي كانت تصفُني بـ«الجحش» منذ سنوات لم تجدْ غضاضة الآن في تلْقيبي بالأستاذ.

سألتُها وقد منحني اللّقب ثقةً وحزمًا:

- لماذا لم تذهبْ شربات لدراستها؟

هزّت كتفَها لتقول إنها لا تدري.

- هل أرغمها عمّ شعبان؟

- كان سيفعل لكنّها بادرت بالقرار.

تنهّدتُ منزعجًا، وأنا أتلفّت حولي عل الموكوسة تظهر؛ فأكمل معها الاستجواب وأفتح نافذةَ هواء في حجْرتنا المغلقة الرّطبة ساقطة الطّلاء، والتي أغلقتها الحمقاء حتى تركتني فريسة لغيرها.

استطردتْ خضرة تصفُ حالة أختها، وبالمرّة تلمزني في الكلام:

- منذُ الحادث.. فسدَ مزاجها وانقلب حالها، وزهدتْ في كثير من الأشياء.. وجاءت نتيجة الثانوية لتزيد الطّينة بلّة.. وربما كان أحدُهم سببًا فيما آلتْ إليه الأحوال!

رأيتُها تتحرّك في الرّدهة متّجهة إلى الفراندة تسأل أمّها عن «سَبَت» السّوق.. يا فرج الله!.. تقدّمت نحو الفراندة بجرأتي العرْجاء التي اكتسبتُها حديثًا، ظانًّا أنها ستخرج لتقابلني أو ستتوقّف في الردهة أو على الأقلّ ستلقيني بنظرةٍ غاضبة من هواجس الأمس؛ فإن لم تكنْ علاقتنا على حالها القديم؛ فهي أيضًا ليست خصامًا واضحًا.. لكنّ الغبية استدارت لتدخل إحدى حجراتهم متعمّدة الهروب من وجهي.

***

في طريقي لمغادرة العزبة متعجّلًا، ناداني عمر من النافذة كأنّه كان في انتظار مروري، ولا أدري كيف تبيّنني وسط هذا الضباب:

- انتظر يا أستاذ.. خذِ الآنسة في طريقك.

أيّ آنسة! كما توقّعت، الوغد يورّطني علنًا، يتمادى في صناعة قدرٍ لا أظنّه بقدر، يدفعها أمامي متعمدًا، ويدفعني نحْوها ليوفّر لي بيئة جديدة لعلّي أستبدل جميلةً بجميلة على خريطتي الفارغة إلّا من شربات.

ودّعتْ إلهام أختها بقبْلَتين على وعدٍ بالعودة بعد الأجازة، وقفزتِ الحورية نحوي مسرعة بملابسها الضيّقة دون اعتبار لارتجاجِ بروزات جسدها أو التصاقِ قميصها بمنحنيات، بادرتني بدلال:

- أنت مُنْقذي.. سيارة عمر تعطّلت.. والشبّورة كما ترى.

مسحتُ عرقي الوهْمي في صباح بارد:

- أهلًا يا فندم.. تفضّلي.

(يا فندم) أوّل كلمة في قاموس علاقات الجامعة التي التقطتها من أحدِ الزملاء أثناء حديثهم مع الأساتذة فلصقتْ في لساني من يومها، ورغمَ أنها تثير أحيانًا سخريةَ البعض إلّا أنها من جانبٍ آخر تبرز هويتي الجديدة.

عاودَني هاجسُ الأمس فطفقتُ أدفعه، وكأنّني صرتُ في مواجهة مع الفتى عمر، اشتعلت المباراة في رأسي، وارتفع العفار والشّجار.. تسديداتُ عمر تناوشني من كلّ جانب، وأنا لا أستطيع أن أحمي مرْماي، أو أن أردّ تسديدة بأحسنَ منها أو بمثلها.

بالنّسبة لي، السيرُ بجوار أيّ أنثى مُرْبِك، فما بالك أن تكون الأنثى هذه الإسكندرانيّة الغازية ديارنا حديثًا، والجديدة مظهرًا وجوهرًا!

تقدّمت عنها بخطواتٍ غير راغب في السّير بمحاذاتها دفعًا للرّيبة.. ولم أستطع- أو لم أرِد- استهلال حديثٍ معها طيلة الطريق الذي لا يسيرُ عليه إلّا كلانا، بل كلّ همّي ألّا يراني أحدٌ من العزبة أو ممّن يعرفونني وأنا في هذا المشهدِ المُريب الذي لم أفعلْه من قبل، والكفيل بأنْ يفتح بابَ ثرثرة ساخنة بين نساءِ عزبتنا العَجائز عن الأستاذ ابن الحاج عبد الحميد الذي أفسدت الجامعة أخلاقَه وضبطوه متلبّسًا يسيرُ في غبش الضباب مع جميلةٍ غريبة ترتدي بنطالًا وقميصًا رجاليّيْن وطرحة (كلّ شيء كان)، تملك بؤبؤيْن

سوداوين ساحرين، وكأنّ الأسمر أبا طويلة مدّعي الحياء لم تكفِه ذاتُ العيون الخضراء، ومَن يدْرينا ربّما هامَسَ تلك الإسكندرانيّة بكلام غرام تعلّمه من رواية «شيخسبير» التي يتأبّطها في الذهاب والإياب، أو ربما تحسّس يدَها الغضّة، أو فعل أشياءَ أسْخم.. ربنا يسترها على «ولايانا».

قالتْ تفتح حديثًا بعد فقدانها الأمل في نطقي:

- رغم سحر المكان عندكم.. لكن الحشرات عندكم لا تطاق.

- صحيح.

أجبتُها باختصار، وسكتّ مؤثرًا عدمَ توْريط نفسي في حديثٍ معها مكتفيًا بما أنا فيه، عائدًا إلى خاطراتي مع بنت شعبان التي أتْعبتني، فأردفت:

- ظللتُ أحُكّ جلدي طيلة الليل حتى احمرّ.

ثمّ بادرتِ الجريئة الجميلة تكشف كمّها عن ذراعها لتريني آثارَ القرصات، لكنّها تراجعت عندما رأتني أشيحُ بوجهي فزعًا مستاءً من مبالغتها في التبسّط وتجاهلِ المكان الذي تسير فيه. وبناءً عليه اضطررت أن أسدّ فراغات الطريق بالكلام بدلًا من أن تسدّه الإسكندرانية البهيّة بأفعالٍ غير محسوبة، قد يكون لها أعراضٌ جانبية ليلًا، أو تُشعل بها منافستها لشربات.

قلتُ لها متقمّصًا شخصيّة أبي الذي حانت عودتُه بحسب وعْدِه للجدّ:

- لا شيء كامل يا آنسة إلهام.. لا حلو يخلو من المنغّصات.

ثمّ وجدت شهيّتي قد انفتحتْ للكلام؛ فاستطردتُ وأنا مطْلِقٌ بصري وسطَ الشّبورة كأنّني أحدّث ذاتي لا أحدّثها واثقًا من أني سأبهرها بصياغتي كما كانت تبْهرني روضة، وربما تصفّق لي بعد انتهاء الكلمات:

- أوشك أنْ أقرّ بما كانت تقولُه المهندسة دومًا؛ قرصة الوجع جسرٌ للابتهاج، ودفقةُ «الآه» خطوةٌ على طريق الفرح.. الألم يثير ضبابًا يشاغب الرؤية لكنْ لا يحجبها فيدفعنا للتّدقيق والتحقيق.. والخوف يوتر الأعصاب وينبّهها فلا يتسرب إليها الهدوء أو الاسترخاء فيندسّ خلفهما الملل.. و..

ضحكتِ الآنسة الإسكندرانية بصوتٍ عالٍ خارقٍ للشبّورة وزجاج القلوب الموتورة لتواصل استهتارها بقوانين عجائزَ عزبتنا، في التّوقيت نفسه الذي مرّ فيه الإنسيّان الوحيدان منذ أن خرجنا من العزبة إلى أن اقتربْنا من موقف السيارات.

- صباحُ الخير عليكم يا أستاذ هاشم.

يا صلاة النّبي!.. خالة اعتماد في زيّ حدادها، وبجوارها خضرة تحملُ على رأسها «السّبَت».. فضيحة مكتملةُ الأركان، وأمام أكثر سيدةٍ تبجّلني وأقربِ آنسة لشربات.. كدتُ أصيح خلفهما لأشرح لهما أنّها (أخت زوجة عمر، وهي إسكندرانية، وقد..) لكنّهما غابتا في الشّبورة مسرعاتٍ إلى موقف السّيارات، فتنهّدت أقولُ لنفسي.. يا الله بجملة الوَرْطات.

التفتّ إليها مستنكرًا:

- علامَ ضحكتِ؟

- كلماتك أضحكتني.

وقعتْ جُملتها عليَّ أقوى من صفعةِ شعبان يومَ (وقعة العجول)، خاصّة أنها ذكّرتني بجُملة أخرى سمعتها من جميلةٍ مثلِها مع اختلاف العيون.. عندما قالتْ بابتسامتها الذكية: (كلماتك فعلتْها).

شيء ما مفاجئ جعلني أكثرَ استرخاء أمام «إلهام»، شيء ما مفاجئ انتشلني من وحْلة توتّري غير المبرّر، شيء ما مفاجئ حوَّل فتنتَها الغلَّابة إلى «جمالٍ عادي».. نظرت إليها مدقّقًا أعاين ملامحها مجدّدًا.. أعدل عنقي وأثنيه.. شعرتِ الأنثى الجريئة بالْتفاتتي وتدْقيقي، فلم تقطعْ عليّ نظرتي ظنًّا منها أنها نظرة إعجاب من ذكر ابن ترعة لأنثى مبلّلة بماء البحر؛ فتركتني على حالتي واثقةً من بهائها الخلاب.. لكنّني غادرت وجهَها شاردًا باسمًا كأنّني أرى صاحبَ العمامة الخضراء متوسّدًا الضبابَ ملوّحًا لي بالكأس الحمراء.. ثمّ تسلّلتْ منّي ضحكةٌ بصوتِ خفيض؛ فالتفتت الجميلة نحوي مرتابةً وكأنّ ضحكتي إساءة لها، فأجبتها قبلَ السؤال:

- تذكّرت نسبيّة أينشتين التي صدّعني بها عمر.. هذا الفتى أحيانًا يقول دررًا.

لم تفهمْني بالطبع، وربّما لم أفهمْني أنا الآخر، فقلتُ زاهدًا في الكلام:

- معكَ حقّ يا إلهام. كلمات المهندسة مضحكة.. إنها مجرد سفسطة.

- لا لمْ أقصد.. فقط رأيتُك أعطيت للناموس أكبر من حجمه.

- بالفعل، أنا أعطي الأشياء أكبرَ من حجْمها.

ثمّ أردفتُ مبتسمًا، وقد غمرني هدوءٌ شامل:

- لهذا تصفُني مبروكة بـ«الأحمق».

ضحكتِ الجميلة مجدّدًا بصوتٍ أعلى من المرّة الأولى على وصفي لنفسي وطريقتي في الكلام؛ فهي لا تعرفُ مَن المهندسة، ولا مَن مبروكة، ولا النسبيّة، ولا تفهم طلاسمي الغبيّة.. ومع وقْع ضحكتها الجديدة تباسمتُ مستسلمًا للفضيحة بعدما انقشعَ جزءٌ من الضباب، واكتشفتُ أنّ فلاحين كثرًا منثورون من حوْلنا في الغيطان، وقد تمّ تسجيل الواقعة صوتًا وصورةً مغبّشة، وسيتمّ بثّها لعجائز العزبة آخر النهار. لكنّني أكملت المسيرَ باسمًا راضيًا عن شيء ما، كأنّني انتصرت لتوّي في مباراة قصيرة جدًّا بهدف غير مقْصود.. لكنْ على مَن؟ ربّما على عمر أو على الجميلة التي تسير بجواري الآن، أو ربما على هاشم نفسِه.

***

صحيحٌ الزحامُ مُرْبك.. قنابل متتالية سريعة الانفجار حول غِرٍّ منتقل لتوّه من شاطئ الترعة وجسور الغيطان.. صحيحٌ طعمُ النجاح يضبطُ المزاج ويفتح مسامّ الجلد لتخلق أجنحةً تؤهّل صاحبها للطيران.. صحيحٌ أنّ حضوري وسرعة استيعابي وإجاباتي السّريعة على أسئلة الأساتذة وأجندتي المنمّقة؛ جعلوني علَمًا وسط المدرّجات.

لكنْ.. لا أزال أنا هاشم، لم أشعر بزلزالِ التّغيير المفاجئ الذي رأيته تدريجيًّا في كلام عمر وتفكيره ومزاجِه وتقييمه للأشياء لا سيّما النساء، لم

أتخلّ عن شيء في طبعي لأتحوّل إلى شخص مقبولٍ محبوب كما فعلَ عيد، لم أفردْ جناحي للحياة بقوّة ديناصور جَسورٍ كما فعلت مبروكة.. بل بقيتُ هاشم الذي تهيمُ به صاحبةُ العيون الخضراء.. أو التي كانت.

أنقلُ عيني بين الفاتنات في ساعةِ الشّرود في المدرجات، وأتساءل والإجابةُ صارت معلومةً لدي: هل تستطيعُ الصائحة الخشنةُ الواقفة هناك أن تغنّي لي مقدّمات المسلسلات؟ هل تستطيع تلك الشقراء المتثاقِفَة التي تخلع نظارتَها وترتديها كلّ ثانيتَين أن تغلبني في دور السّيجة؟ هل تستطيع الطويلة الهيفاء هناك أن تطلِقَ زغرودةً كزغرودتها؟ هل تستطيع هذه البيضاءُ الناعمة أن تهتف باسمي وسط الزحام؟ هل تستطيعُ تلك البدينةُ المثيرة أن تبعد عنّي كلاب السكك برميةِ حجر؟ هل تستطيع إحداهنّ أن تقول (يا هاشم) كما تقولها الجافيةُ الغبية ذات العيون الخضراء؟

ما أغباكَ يا عمر!

***

(٥٠)

تفاديتُ مواضعَ المطر وتجمّعات المياه في الحفر على سكّتنا الترابية المتعرّجة، وخففت متعجّلًا الوصول إلى الدّار في هذا الظلام الدّامس قبل أن تعاودني زخّات المطر وأسقط من شدّة الجوع.

قبل أن أطرقَ بابَنا الخشبي العتيق سمعت نداءها الرّقيق الخارج وسط برودةِ يناير ليرشق في صدري كسهم ساخن، لكنّه كان موجّهًا إلى غيري:

- يا محمود!

يا بنت الـ!.. تنادين حودة، الذي كان منذ أسابيع بمثابة كلّاف عندكم، باسمه الحقيقي الذي لا يناديه به أبوه، وهكذا وسطَ الجرن لا تخشين رقيبًا ولا حسيبًا!

دنوتُ مِن دارهم على وشك الإعلان عن نفسي تحت ضوء القمر لأضبطها متلبّسة موقنًا أنها عندما تراني سترتَبِك، وستدخل مُسرعة إلى مندرتهم خجلةً من فعلتها السّخيفة، أو ربما تقف لتعتذر وتُفهمني أنّني أسأتُ الفهم، أمّا حودة فسينصرف خجلًا ككلّ مرّة، وربما يصافحني بابتسامته المعهودة مستغلًّا ضعفي أمام جميله القديم.

أجابها بصوتٍ أكثر نعومة كأنّه ليس هو:

- نعمْ يا شربات.

- خذِ الشّال.. الجوّ بارد.

اللّعينة.. يا لجرأتك!

وقبل أن ألجَ إلى جرنهم فوجئتُ بأنّ المنادى ليس غريمي حودة، يا ليتَه كان حودة، بل غريم آخر لم أتوقّعه ولم يخطرْ لي ببال، إنه الضّابط الصغير.. بادر بمصافحتي باسماً:

- هاشم.. صحيح؟

ما بال كلّ مَن أضبطه متلبّسًا بحديث مع شربات يصافحني مبتسماً! هززتُ رأسي خجلًا مرتجفًا مُرتبكًا أعالج المفاجأة وتداعياتها التي قد تنكشفُ بعد قليل مُسقطًا عن رأسي الخاطر السّاذج الذي يضع أيّ متحدّث مع شربات على مقعد العريس:

- نعمْ يا أفندم أنا.. تفضّل.

- شكرًا.. تصبح على خير.

وقفتُ متجمّدًا في مكاني وأنا أرنو إلى ضوءِ المصباح الذي تهتزّ ظلاله على سور جرنِ شعبان مدركًا أنّ شربات لا تزال في الفراندة ربّما في انتظاري، أو بالأحْرى في انتظار ردّة فعلي بعد ظهور الضابط في حلبةِ صراعي.. وكأنّ المشرحة ناقصة قتلى!

دنوتُ بهدوء، رأيتها واقفةً في فراندتهم تحمل المصباحَ الكيروسيني في يسراها.. إنها ساعة مسائيّة شتوية من ليلِ رمضان، وليست إفطارًا ولا

سحورًا، ماذا يفعل الضّابط الآن! وكيف تبيح السّافلة لنفسها أن تنادي شابًّا غريبًا بهذه الطّريقة!؟ بل كيف تجترئ على الصّمود أمامي بعد أن سمعتها ورأيتها.

كرّرتِ اللّعينة نداءها بجُملة أكثرَ استفزازًا، وبصوتٍ خفيض، كأنها تسمعني أنا لا هو:

- يا محمود باشا، سلّم على الحاجّة.

وأيضًا (باشا)! وأيضًا (حاجّة)! تسمّرت أسفل عامود الإنارة المطفأ بطبيعة الحال لانقطاع الكهرباء، أضغطُ بقبضتي على أجنْدتي أريد أن ألقيها في وجْهها، وهي وقفتْ في الفراندة تنظر إلى اللاشيء وقد فهمتُ بعد دقيقةٍ أنها تنتظر منّي كلامًا لتردّ عليّ بكلام، وربما جُملتاها كانتا لإثارتي، وربما لإهانتي، وربما للإخْبار أنّ شيئًا جديدًا قد حدثَ في حياتها يشابه ذلك الذي حدث في حياتي.

تقدّمت بجسارة لم أتعوّدها من نفسي إلّا حين يركبني ذاك الجنيّ المجنون، وربما شجّعني عليها الظلام المحيطُ بالمكان بالإضافةِ إلى أعراض ما بعد الجامعة:

- ماذا يفعل الضابط هنا؟

- ولماذا تسأل؟

- أجيبيني.

استغربتْ حالتي.. ربما، فأجابت قبل أن يعْلو الصوتُ ويسمع الجيران:

- يزورنا.

- لماذا؟

أرادتِ اللّئيمة أن تواصل دحْرجة كرةَ النار إلى صدْري مستغلّة ظهور رجلٍ بقوّة الباشا محمود، واستطاعتْ- بالفعل- أن تنقلني من حالة البيْن بَين التي كنت أتراقصُ فيها منذ أسابيع إلى سخونة الأيام الخوالي لتؤكّد أنّ موْقعها في قلبي مستقرّ، ليس مجرّد خاطر مراهق، ولن يخضع لخيار عمر، ولتوحي لي بأنّ موقعي في قلبها هو محلّ الخطر والتهديد.

قلتُ منزعجًا:

- تكلّمي.

بعد تكْراري السؤال بحدَّة، نزعت يدَها عن سور الفراندة، ولا تزال ممسكةً بالمصباح، ونصبت عودَها الفارع مُعلنةً التحدّي، وبدءَ معركة وشيكة:

- ليسَ لك شأن.. وانصرفْ قبل أن يخرج أبي.

طوّحت بالأجندة في الهواء مُعلنًا عن حالة كيوم (وقعة العجول)، وتقدّمت خطوةً وأنا لا أدري ماذا سأفعلُ بعدها، لكنْ فعلتي كانت كافيةً لإرْهابها.. فأجابتْ تخشى التّصعيد وخروج أبيها:

- يسعى لإلغاء فصْلي من الثانوية.

- ستعاودين الدراسة؟

- ربّما.

خرجتْ خالة اعتماد على حوارنا، لكنّها توقّفت عند باب الفراندة، وتعمّدت أن تنحني إلى اليمين دالفةً إلى المندرة مدّعية أنها لم تَرَنا، وحسنًا فعلت.

- وما دخله بالموضوع؟

- أبي يسمع كلامه.

قلتُ لها مستفيدًا من أوّل حسنات الجامعة، وبشكلٍ مُختصر واضحٍ لأنهي المسألة التي صارت مُتْعبة مُرْهقة:

- شربات! أنا أريدك.

تبيّنت ملامحها على ضوء المصباح الذي تحملُه، جفلتْ عيناها، بلعتْ لعابها، ارتخى كتفاها وعلا وجيبُها.. لا تزال هيَ هي، رغم ما تحاول أنْ تبديه وما تزيّفه بشأن حالها وتبالغ بغباوة في تشويش علاقتنا.. لا تزال هيَ هي رغم الإلف وطول العِشْرة، عصيّة على الملال، ريّها عطش، وعطشها ماء.

قالتْ بتوتّر تحسم معركةً بداخلها:

- ربّما فات الوقت.

كأنها ضربتني بالمصباح الذي في يدها، أو سكبت جازَه على رأسي، ثمّ أشعلت في خصلاتي الناعمة النارَ، ثمّ أكملت صبَّ الجاز بشكل متّصل دون أن تعطيني فرصةً للتملّص أو الإطفاء، مستفيدةً بكثرة ما تحفظُه من مشاهد الدراما والأفلام:

- مَن يردِ امرأةً لا بدّ أن يريها شغفه.. حرصه.. عجلته.. أنت مغفّل لم تفعل شيئًا.. أنت صفعْتَني في أوّل مواجهة.. أنت مرتعش.. أنت تعيد

حساباتك في مسألةٍ لا يصلح فيها حساب ولا كتاب.. أنت لم تعدْ أنت.. لا تتردّد يا أستاذ؛ اخترْ حياتك.

ثمّ استدارت لتنصرفَ إلى الداخل وتوليني ظهرَها، ثمّ عادت فظننتُ أنها ستعتذر عن انصرافها هكذا دون اعتبار لـ(درفة الباب) الواقفة أمامها، ولأنّ كلامها مليء بالمبالغات والإهانات، لكنّها قالت تتمّم جريمتها:

- أنا اخترتُ يا هاشم.

أدركتُها قبل أن تقفزَ للدّاخل بحجرٍ أرميه تحت أقدامها، وقلّما يسعفني لساني بأحجار الكلام:

- وأنتِ كنتِ خياري يا شربات.

توقّفت لحظة كأنّ قدمها علقت في الهواء.. ربما تشاور قلبَها الذي سيميل إليَّ يقينًا.. ربما ستقلّد أحدَ مشاهد النّهاية في مسلسلات الغرام! وربما تطمعُ في كلمة أخرى، فتابعتُ أكمل الجُملةَ التي انتبهت أنها ناقصةٌ بالفعل:

- ولا تزالين الخيار.

رغمَ جَمال صياغتي واجتهادي فيها، لكنّ القاسية الجافية كسرتْ عتبة قلبِها واقتحمت باب الخصام وقفزت إلى الدّاخل تاركة إيّاي مذهولًا كنعجةٍ حليقة نسيَها أصحابها في الطّلّ.. هل هذا هو المشهد الأخيرُ في الحكاية؟ بالتّأكيد هذا هو المشهد الأخير.

لا، لا.. إنّني أبالغ في تقديري للأمور.

لا، بل يبدو أنّه المشهد الأخير.

قلتُ بغضبٍ مكتوم لم يسمعه سوى أذني ملوّحًا بيدي:

- غوري.. في ستّين داهية!

أفقتُ على موقعي الجغرافي الخطأ، فلو رآني أحدٌ على هذا الوضع أمام بيت الناس ستكون الفضيحة الثّانية خلال أسابيع.. انحنيتُ وسحبتُ أجندتي التي طُليت بالطّين سابًّا مَن كانت السبب، وهربت مِن المكان.

***

(أنا اخترت).. سهرتُ أتقلّب على جمر حروفِها رغم قطراتِ المطر المتساقطة في الأركان، والتي تحدِث دقًّا رتيبًا مُربكًا، خاصّة في الركن الذي وضعت فيه صينيّة القلل.. الجُملة ترنّ في أذني، ولا أجد لها إلّا أحدَ معنييْن؛ أقربهما الأسوأ.

لكنْ ربّما أخبرتها خضرة بمشيي «البطّال» مع الآنسة الإسكندرانية.. بالتّأكيد أخبرتها وربما أضافت مِن عندها مشهّيات الحكايات، فهي تبغضني منذُ أزمنة العِراك.. لكن لا تكفي هذه الزّلة غير المقصودة أنْ تكون سببًا كافيًا لتفجير بركانها وزهادتها فيّ وجرأتها عليّ بهذا الشكل!

ولِمَ لا! فالحمقاءُ سبقَ وخرقتْ مركبَنا قبل الإبحار بأشبارٍ بسبب زلّة مثلها.

***

(٥١)

بعدَ ليلة لم أذقْ فيها النّوم، جلست أمام عمّتي وقد قطعت كلّ خيوط الرّجعة وحرقت سفني وأشرعتَها وبضاعتَها حتى لا يأخذها أيّ ملكٍ غصبًا.. وأوهمتُ نفسي أنّ جُملة شربات وطريقة انصرافها من أمامي لا يعدو أنْ يكون دلالَ مُراهقات، وبناءً عليه توكّلت على الله وفعلتها.

- أريد التقدّم لشربات.

توقّفت عمّتي لحظة عن نوبةِ الغسيل التي بين يديها كأنّ يدها تعطّلت أو انفصلت عنها الكهرباء، ثمّ استأنفتْ وهي تقول بهدوءٍ وتضغط على حروف كلمتها اليتيمة:

- تأخّرتَ.

قذفتْها عمّتي في وجهي ببرودٍ تامّ، وهي تلقي بقفطان الشّيخ بركة في الطّست الألمونيوم الفارغ بجوارها.. انتفضتُ مفزوعًا واقفًا.. فألقتِ القذيفةَ الثانية إمعانًا في صدْمي:

- سبقَك غريمُك.

بلعتُ لعابي وتحسّست ذراعي المكسورة مرّتين كأنها تنكسر الآن للمرّة الثالثة ولكنْ بشكل ذاتيّ من فرْط الصدمة.. قلتُ وأنا أعرف أنّ كلامي بلا فائدة، وإجابته موجودة مُتاحة لو فكّرت ثانية، لكن أحببتُ أن أطيلَ المسافة

بيني وبين الحقيقة النّهائية قليلًا.. فقلتُ بنبرةٍ مستكينة كأنني أرجو من عمّتي أن تجيبني بشكلٍ أكثر حنانًا بعيدًا عن جبروت عمر:

- لكنّها سبق ورفضته.

دلقتْ مسحوق الزّهرة الأزرق وسط الماء وهي لا تزال على هدوئها غاضّة طرفها عني:

- لم أقلْ إنّه حودة.

وقعةٌ سوداء! قلتُ بصوتٍ مخنوق وأنا أسلم مقعدتي للأرض مجدّدًا لأخمن العريس الذي لا يحتاج إلى تخْمين:

- الضّابط إذًا!

هزّت رأسَها بالإيجاب وهي ترفع طستَ الغسيل على رأسها لتنقلَه قرب الحبل، قلتُ لها من مكاني وقدْ أصابتني مقدّمات شلل:

- مَن أخبرك؟

- أمّها.

بدأتْ نشرَ الملابس على الحبل الممتدّ بين الفرن الجديد وبسطة السّلم، وهي تقول مؤنّبة مطلقة كلمتها بصعوبةٍ من بين طرفي المشْبك المعلّق في فمها:

- كانت أمامك!

- لم تكنْ أمامي؛ كانت هاربةً.. داهمتني الثانوية.. مات عيد.. الظروف لم..

لم تشأ أن تدخلَ معي في نقاشٍ غبي، فقالت وهي تجلسُ لتبدأ نوبةً جديدة في الغسيل:

- خيرًا.. قسمة ونصيب.

ثمّ مردفةً كأنها تسخرُ من جُملتي:

- سامحَ الله الظروف!

- قومي الآن نذهب إليهم.

- عيبٌ يا هاشم.. لم يعدْ يصلح.

قمتُ أتحرّك في الرّدهة كالممسوس، أعطي نفسي فرصةً للتنفس، وقد أدركت التفاصيلَ الغائبة عن مشهد أمس، والتي أخفتها عني الكاذبة.

سألتُ عمّتي:

- هل وافقتْ أم أجبروها؟

- غريبٌ أنت! وهل ترفض مثلُها ضابطَ شرطة!

ردٌّ منطقي كردودِ عمر، فهي الأخرى ترى شربات كما يراها عمر، ولكنّ الضابط صياد الجواهر رآها كما رأيتُها أنا، رأى خفايا عينيها وذكاءَ بسمتها ولباقةَ جُملتها؛ فلم يتردّد كثيرًا، واختطفها.

استطردتْ عمّتي:

- مثلُ شربات لا تَرفُض مثل الضابط إلّا في حالةٍ واحدة.

أعطيتُ لها بصري لتواصل لعلّها تقول كلامًا توقِفُ به نزيفَ قلبي ولو مُخادعة:

- إذا كان قلبُها ليس معها.

وسطَ زحام الحاصل غابَ الكلام وانقطع حبلُ التّفكير، وعمّتي المحروسة صارت حكيمة كسائر الحكَماء؛ فجُملتها صائبة لكنْ مَن ذا يعلم أينَ ذهب قلبُ تلك القاسية! هذا إن كان لها قلب!!

عاودتُ سؤالَ عمّتي:

- لم تجيبِني.. هل وافقت؟

- مؤكّد.

- لماذا مؤكّد؟

- حدّدوا الموعد.

- أيّ موعد؟

- الفاتحة.

- فاتحة!

- في العيد، وربما قبله.

خرجتُ مسرعًا من الدّار إلى الجرن، ثمّ.. ثمّ عدت إلى الدار، ثمّ السّلم، ثمّ القاعة، ثم.. ثمّ عدت أدْراجي إلى السّلم.. إلى الجرن، ثم.. أدورُ كالملدوغ لا أدري ماذا أفعل، أتعثّر.. أكادُ أقع، أعتدلُ أستند للجدار.. هل أطرق بابهم وأناديها وأفعلُ بوصيّة عمر الحمقاء الرشيدة؟

لكنّني فعلتُ بالفعل، فكان جوابها واضحًا..

لا لم يكنْ واضحًا، كانت فقط تستثيرني وتسكب من حميّتها على برودي.. أشعر بدوارٍ.. بل بانهيار، أريدُ أن يصفعني أحدُهم، ماذا فعلتُ في نفسي؟ هل هذه نهاية طبيعية، هل هذا ما خطط له عمر فأفلح اللّئيم؟ لو ذهبتُ إليه الآن سيقول باسمًا: (حسنًا فعلت)، ويعيد خيارَه الأوّل البارد، وربما يستدعي لي إلهامَ البهيّة التي اختفت منذ (وقعة الناموس).

قرّرتُ أن أذهب للشيخ راجي، وآتي به هذه المرّة في يدي، ونقتحم عليهم الدار، وننهي المسألة ونذكّر شربات الغبيّة بموافقتها القديمة، وأنّي شبهُ «خطبتها» سابقًا.. ولا يجوز.

كلّا.. إنْ كان الضابط طلبَها بالفعل؛ فخالها يعرفُ المعلومة، وبالتالي لن يوافق على مساعدتي، ولعلّه التزمَ الصمت منذ حين لما يعلمه ومنعه الحرج من مصارحتي.

بلْ ما يدريني إنْ تقدّمت لهذه الغبية القاسية أنها ستوافق هذه المرّة، وتعود إلى رشدها الأوّل، وتتخلّى عن رجلٍ مُكتمل الحياة والميّزات إلى زاحفٍ مثلي في الطرقات! بل هي بحسب تصريحاتٍ عمّتي لم تعترضْ على عريس الغفْلة

المهنْدَم، وتصرّفت كأيّ فتاة جاءها الشّاب «اللقطة»، وأبوها يستحيل أن يفرّط في هذه الفرصة؛ فشعبان القديم كان مرحّبًا بالعسكري حبشي، فهل يمكن لشعبان الجديد- مهْما كانت تحوّلاته- أن يفرّط في الباشا محمود؟! أو يذعن لابنته إن رفضت!

(الجدّ عبد الباسط سينهي المسألة في حديثٍ ودّي بينه وبين شعبان الذي صار ضيفًا دائمًا معنا في صفّ المصلين، وقلبُه الذي ابتلي لن..)

يا لَلْحسرة! الجدّ سافر للعمرة منذ أسبوعين..

لم أجدْ لي منجدًا غيرها.. فهي الوحيدة التي تستطيع أن تواجِهَ شربات وتفحمَها وتقنعها بعكس مرادِها إن أرادت، أو على الأقلّ تعرف التفاصيل بوضوح، وتستطيع أن تصفعَها إن رغبتْ في ذلك؛ بل وتثأر منْها للنّدبة التي صارت غمّازة.

توجّهت إلى إيتاي، وبعد أحضانٍ وقُبُلات لعبد الحميد الصغير أخبرتها بنحْسي وتطوّرات قصّتي المملّة، وبعدَ تهنئتي بدخولي عالم الجامعة السّعيد وشاربي الذي قسمَ وجهي، باشرتْ وصلة ردح متوقّعة عن جبْني وخَوَري وقلّة حيلتي وتضْييعي للفرص، وأنّ مَن في سنّي تزوّجوا وأنجبوا، وأنت يا (درفة الباب) يا مَن تخطّيت العشرين لا تزال (تتسَرْمح) في الطرقات، وتستجدي خاطبةً لعروسك الحمقاء الشربات بعد أنْ وصل إليها مَن هو أجدرُ بها منك، فأعاد تعديل مسارها ورتّب عشّها وهيأها مجددًا للحياة بعد أن كانت زهدتها.

وبعدَ أن أفرغتْ زكيبةَ شتائمها وبعثرتْ كرامتي، قالت وهي تناولني ماكينةَ الكعك كي أساعدها في تشغيلها:

- سأحاول يا أستاذ.

ألقيتُ الماكينة على الطبلية وأشرتُ لها متعجلًا:

- هيّا الآن.

- غدًا ستجدُني في فراشها.. وسأنهي لك هذه المهزلة بضربةٍ قاضية.

- بلِ الآن!

- شغّل الماكينة يا أحمق.

***

(٥٢)

لم أذهبْ للجامعة متحجّجًا بالأمطار التي تواصل هطولها منذ الصباح، والتي بالتأكيد منعتها هي الأخرى من الذّهاب لمدرستها.. سلسلني هاجسُ ضياعها، وخنقني توقّع كئيب بأنها ذهبت بغير رجعةٍ، وأنها كانت حلمًا غضًّا يبَّسته الأيام وأحرقَه جبني وغبائي وتأخّري والخضر.

منّيت نفسي برؤيتها لعلّي أستطيع أن أدفعَ بابها كما سبق لها ودفعت بابي.. تشاغلت صباحي وضُحاي بنقل ما استطعتُ مِن أغمار القشّ فوق حجرة عمّتي، وفوق القاعة ثمّ إحكام فرد المفارشِ البلاستيك على القشّ؛ فنحنُ الوحيدون في العزبة تقريبًا الذين لم نُعد بناءَ بيتنا بالأسمنت والحديد رغم أنّ بيننا وبين الألفية ثلاث سنوات فقط.

تعمّدت إلقاء قطعة خشب على سطحهم الأسمنتي أو رفع صوتي وأنا أنادي على عمّتي لتناولني حبلًا، لعلّها تنتبه فتشعر أنّ المسكين يدقّ أجراسه مجدّدًا مناشدًا إيّاها فرصةً يفهم فيها سببَ الانقلاب غير المبرّر في معادلاتِ الهوى التي بثّته لي عيناها يوم أنْ قالت (موافقة) ويوم أنْ رفضت حودة، ويوم أن قالت: (وربّما تجدُ على ظهرك ووجهك مواضعَ عضّاتي وخمشات أظافري).

قضيتُ معظم النهار أدورُ في القاعة أسبّ مبروكة وزوجها، رغم أني أعلمُ أنّ المطر هو الذي أخّرهما.. أوشكَ المغربُ على الأذان، وشغّل عمّ

عسران بالفعل قرآنَ ما قبل الإفطار.. ذهبت إلى عمر مضطرًّا لعلّه يشفق عليَّ في هذه الحالة فهو الصديقُ الشفيق.. استقبلني مرحّبًا باسمًا، لكن جفّت بسمته مع بؤس إطْلالتي. اتّجهت مباشرةً لزوجته وهي تجهّز المائدة، وعمر يتابعني متوقّعًا شيئًا مجنونًا يناسب حالتي.

- أريد أنْ أرى شربات.

قلتُها كأنّه قرار لا بدّ أن ينفّذ.. رحّبت بي وهي تنظر ناحية عمر، وعينُها تقول: (ما هذا المجنون!).. دنا عمر يشاركني جنوني كما توقّعت، متجاوزًا رأيَه الفقهي في المسألة مُعتبرًا أن مسألة شربات فيها خلافٌ سائغ، لكنّني في قلبه ليس عليَّ خلاف.. وقال يدْعَمني:

- لا بأس يا نورا.

صمتا قليلًا يتبادلان النّظر، قالت:

- صارتْ لشخص آخر.

- لم تصِرْ.

قالها عمر يقطع عليها الحججَ المتوقّعة.. أصرّت على رفضها، اشتعل الحوارُ بينهما وأنا أتابع كغريب ليس له علاقةٌ بالموضوع، فاستسلمتْ أخيرًا لزوجها العنيد، وأخذا يتبادلان الأسئلة والإجابات:

- كيف أفعلها؟

- بركةُ يأتي بها.

- ماذا يقول؟

- إنّك تريدينها لمساعدتِك في الكعك.

- لكنّي أنهيتُ الكعك.

- كذبةٌ بيضاء يا مؤمنة.

- ستغضب.

- لا تعقّدي الأمور.. بل ستفرح.

- هذا عيب.. هي في مقام المخطوبة.

- لكنّها ليست كذلك.

- هذا لعبُ عيال.

- لا أجملَ من لعب العيال.

نفختْ نورا مستسلمةً للخطّة التي لم أشاركْ فيها برأيي.. سبقت إلى دارنا، وأرسلت بركة باسم نورا فأطاعني دونَ كثيرِ أسئلة فهوَ تقريبًا يعرف القصّة منذ فضَحني أمامه عمر.. بعد الإفطار خرجتْ شربات متّجهة إلى بيت عمر.. بعد دقائق طرقت الباب، فتح عمر.. نظرتْ شربات لثلاثتنا مُغْضبة.. اكتشفتِ الخطّة فانفجرت القاسية تؤكّد التّخمينات:

- هذا عيب.. كيف تفعلين هذا يا نورا!

نورا لم تكنْ مُقتنعة من البداية بهذا الاستدراج الطّفولي، فلم تجدْ ردًّا.. همّت شربات بالانصراف فأمسكتْ نورا بيدها.

- سؤالٌ واحد، وأيًّا كانت إجابتك.

صاحت:

- لا أسئلة ولا إجابات.. لم يعدْ يملك أحدٌ سؤالي.

فتحتُ الباب، وابتعدت عنه أفسحُ الطريق؛ ففهمتْ نورا أنها إشارة بترْكها؛ فالإجابة لم تعدْ تحتاج لسؤال.. انطلقتِ الثائرة وأغلقتِ الباب خلفها بقوّة الصّفعة التي تلقّيتها على يافوخي.. تبادلت النّظر مع عمر لم أجدْ شيئًا أقوله، فصاح من موقعِه كارهًا هذه النهاية:

- ماذا يا أحمق.. افعل شيئًا!

فتحتُ الباب وانصرفتُ أخبئ نفسي من نفسي، فهربتُ إلى المسجد مندسًّا في صفوف مصليي التّراويح.

***

(٥٣)

مضتْ ليلتان مظْلمتان ممطِرتان، وصار بيننا وبين العيدِ ليالٍ معدوداتٌ، وأنا أتوقّع في كلّ لحظة أن أسمعَ زغرودة خالة اعتماد تشقّ الآفاق لتعلن رحيلَ الحلم الأخير إلى مثواه البهيج بعد أن يضع محمود خاتمَه في أصبعِها، وأنا أتخيّله بجوارها أليَقَ بها منّي.. ضابطٌ صغير وسيمٌ، في بذلته البيضاء بارقة النجوم، وعن يمينه أنثى نديّة بهيّة كبدْر التّمام، تهمس له بكلماتها الذّكية وتجفل بعيونها الخضراء.

الانتظارُ أقسى من المصيبة كما أكّد السابقون.

هيّا افعليها يا خالة وارحميني.. أطْلقي زغرودة بقوّة صرختك على فقيدك عيد؛ فجنازتُه هي التي جلبتْ لكُم العريس المهنْدم ذا المركز الذي لا تحلم به أجملُ جميلات العزبة.. سامحَك الله يا عيد وكأنك تصرّ أن تلكمني حيًّا وميتًا.. لكن ما ذنبُك يا طيب! إنها ترتيباتُ الخضر المدْهشة الذي قبضك فأحال أباك طبيبًا، وأهدى أختك ضابطًا.. وأعطاني أنا على قفاي!

هيّا يا خالة، أسْدلي الستار.

في اليوم الثالث حضرتْ مبروكة ومعها زوجها ورضيعها، لم أعاتبها على عدم مجيئها في موعدها ولم أسألها عن السبب.

بادرتْ عندما رأتني متجهّمًا وظنّتْ أني غاضبٌ منها، فاعتذرت منّي لأوّل مرّة في حياتها:

- سامحني يا هاشم، عبده كان...

- لا بأس.

- اللّيلة إن شاء الله سـ

قاطعتها بهدوءٍ متباسم:

- لا داعي.

ضربتْ على صدرها:

- خطَبَها؟

- قبلَتْه.

نادتها أمّها لتنهي معها طعامَ الإفطار وتقطع حوارًا لا تريده أن يتطوّر إلى ما سيتطوّر إليه الآن.. فتجاهلتْها مبروكة مشيحة:

- انتظري يا وليّة.

ثمّ استدارت تستكمل استجوابي منزعجة:

- فسّرْ كلامك يا فيلسوف الغَبْرة.. هل خطبها؟

- وافقتْ عليه.

- هل قرأوا الفاتحة؟

- لا.

- إذًا، حاولتَ الانْفراد بها لتكلّمها بتخطيط من السيد عمر فصفعتْك على قفاك.. صحيح؟

هززتُ رأسي بالإيجاب، فقالت متبرّمة:

- غرّ، غبي.

ثمّ لكزتني في كتفي تطمئنني:

- لكنْ لا تبتئس يا أستاذ.. دعِ الأمرَ لي.

قالتْ عمّتي وقد سمعت حوارنا:

- الموضوعُ انتهى يا مبروكة؛ الأصولُ تقول...

قاطعتْها بعنفِها المعتاد:

- بلا أصول بلا فول.. نحن لن نخطفَها من عريس الغفلة، هيّ كلمة وردّ غطائها.

- قدْ تسيء مقابلتَك.

- نعم! نعم!! والنّبي أعطيها على وجْهها بالمداس.

ثمّ مُلتفتة إليَّ باسمة:

- لا مؤاخذة يا أستاذ.

أخيرًا ابتسمتُ مجبرًا بعد محاولةٍ بائسة لأبقى جادًّا أمامَها وأمامَ مرحلة حدادي على الفقيدة.. سحبتني مبروكة إلى زاوية الرّدهة بعيدًا عن أمّها التي تحدجها غاضبةً من التصرّف الأهوج والنتيجة المحتملة.

قالتْ هامسة:

- شربات كانت غريمي الأوّل فيك.. تعلم ذلك؟

هززتث رأسي بالإيجاب متعجّلًا لتكملَ دون فواصل، فأردفت:

- اسمعْها منّي.. شربات لن تفرّط فيك.

ثمّ مازحة:

- صحيح أنتَ فيك كلّ العِبَر، ولا شيء مقارنةً بالضابط الذي يريد أن يختطفها على حماره.. لكنْ تكون المقارنة لصفّه لو كانت العروس صبيّة غير شربات.. شربات لك أنت.

أعادتني مبروكة بسحْر كلامِها وقوّة روحها ونظْمِها للكلام وتخييلها السّاحر إلى مقعد (البين بين) مجدّدًا يلوّح لي الأمل من جديد، فقد عاد إليّ جمال الاحتمال بعد أن كان فقدُها يقينًا، ولا أدري هل ما فعلتْه مبروكة كان لصالحي أمْ ليتها لم تفعل! سأعرف الآن.

بعدَ إفطارٍ سريع، أقلعتْ مبروكة إلى الهدف ومعها زوجها ليبدو الأمرُ زيارةً عادية، وتهنئة باقتراب العيد، وتستطيع صاحبةُ الغمّازة التسلّل بشربات إلى الحظيرة وانتزاع القرار، أو إغواءَها عن عريسها المنتظر، أو لكْمها في وجهها الهلال.

أسرعتُ هاربًا إلى القاعة، متحمّسًا للخطوة حينًا، فأحاول أن أخدعَ نفسي بأنّ النتيجة قد تأتي على هواي أو قريبًا من هواي؛ ومحبطًا حينًا أعاتب نفسي على تفاهتي ومحاولاتي الصبيانية، وأن شربات الغجريّة قد يكون ردّ فعلها أسوأ ممّا كانت عليه عند عمر وتفضحنا جميعًا، وقد يستردّ شعبان ذاكرته القديمة فيعود وحشًا غبيًّا فيصفَع مبروكة ويضرب زوجها على مؤخّرته.

مضى الوقت بطيئًا.. دخل عليَّ عمر مقتحمًا القاعة كعادته، وقد علم بوصول مبروكة، فبادرني بسؤالٍ على هيئة جواب؛ فهو يعرف مبروكة مثلي:

- ذهبتِ الفتوة؟

هززتُ رأسي مؤكّدًا عائدًا إلى صمتي.. أخشى فتحَ أيّ كلام مع عمر الذي يستطيع أن يشوش على كلّ ما قالتْه مبروكة، ويقلِب الآمال كوابيسَ وأوهامًا، فآثرت الصمتَ حتى تأتينا النتيجة على أيّ شكل، وآثر هو تركي في سلامٍ مراعاةً لحالي.

بين ريح وأمواج متلاطمة

وأسود غطيس وأصفر رنّان

مين اللّي ما يحبش فاطمة

لو فاطمة طاقة نور وحنان

يا هل ترى يا نور يا بعيد

أنت بصحيح واللّا أنت سراب

وهعيش معاك في الضيّ سعيد

واللّا غريب ما بين أغراب

سكتَ عمر مؤتَنِسًا بضربةِ كمان ميشيل المصري السّائحة حول كلمات «سيد حجاب» الذي تدخّل مشكورًا ليجلس معنا في القاعة ليصفَ حالي

باختصارٍ بين «فاطمة» والسّراب.. دبّ النشاط في أوصالي مع ارتفاع صوتِ التلفاز، فقمتُ مُنتفضًا متهلّلًا أشير لعمر تجاه الكوّة:

- إشارة.. شربات وافقت.

- ما دخل «محمد ثروت» بموافقتها أيّها النبيه؟

لم يكنْ لديّ وقت لأشرح له ما أعنيه، فرقيت كتلة الحجر بسرعة، وتساوَرْت بلهفةِ طفلٍ صغير كي أنظرُ من الكوّة كما تعوّدت لأتأكّد مما صار راجحًا.

- عيبٌ يا هاشم.

استدرتُ إليه مصحّحًا:

- ترفع صوتَ التلفاز من أجلي.. إذًا، مبروكة حدّثتها فأبْدَت قبولًا، ثمّ قامت تبشّرني..

همهَمَ عمر بغيظٍ، يائسًا من حالتي:

- يا لَلْهبل!

ضبطتُ موقعي أمام الكوّة متوقّعًا أنها تقف الآن أمام الشّاشة الصغيرة لتؤكّد لي تخميني وتتحفني بابتسامةٍ كتلك التي قلَبَت كياني في مندرة خالها، وربما تشير بأصبعِها إلى قلبها، وربما تطلق زغرودة كتلك التي أطلقتها يومَ تركيب سلك الإرسال.. أيّ شيء من هذا القبيل؛ فهذه الماكرة قليلة الحياء تشاهدُ التلفاز كثيرًا، وتعرف ما لا أعرفه.

آآه يا خضر.

صفعةٌ أداخَتْني وعكستْ دوران الأرض تحت قدمي فجاءت لتضع لقطةَ النّهاية بشكل رائع، ربما أفضل مِن توقيت لكْمات عيد؛ فقد وجدتها جالسةً أمام التلفاز، وبجوارها محمود باشا في كامل هندامه المدنيّ تزيّن صدره رابطةُ عنقٍ حمراء، ويزيّن بزّته منديلٌ بلون رابطةِ العنق.. وثالثهم امرأةٌ غريبة ربما أمّه، ورابعهم خالة اعتماد.

آه..

دلفَ شعبان والشّيخ راجي إلى «الفراندة» عائدين من صلاة التراويح، وقابلتهما خضرة وهي توصل مبروكة الخارجة مع زوجها حاملةً طفلها.. سلّمت مبروكة وزوجها على الدّاخلين سريعًا ثمّ انصرفا.. لا توضّح حالتهما الحقيقة.. لكنّ الأمرَ واضح؛ فمبروكة دخلت فوجدتِ الضابط وأمّه على حالهما فهمتْ أنّ الفاتحة الليلة والحمدُ لله، فانسحبت بكرامتها.

شكرًا سيّدي الخضر..

انكسرتْ عيني وسحبتُ جسدي مهزومًا، وسقطت على الكتلة الحجرية أهمس:

- إذًا، هو الخيار الأوّل يا سيد عمر.

- ماذا؟

دنا عمر يستفهم:

- ماذا حدث؟

سكتّ ولم أجبْه، اعتلى الحجر ليستكشف ما جرى فحوّلني بهذه الطريقة، فرأى ما رأيته وخمَّن ما خمّنته بل تأكّد.. فغادر المكان ليتركني وحدي.. ثمّ وافتني خالة اعتماد بزغرودة صفعتني على الخدّ الآخر؛ فتركت جسدي آليًّا يهبطُ أو يسقط من على الحجر إلى الأرض في استسلامٍ تامّ، ثمّ تكوّرت في مكاني.

تلتْ زغرودة خالة اعتماد زغرودةٌ أقوى أطلقتْها عمّتي كأنها تتجاوب معها، حتى عمّتي تخونني! دفنتُ رأسي بين ركبتي وطوّقتها بساعدي كعادتي عندما تشتدّ الكربة أفكّر في الخطوة القادمة أو في تبرير منْطقي أو غير منطقي لفعْلَة الخضر، تحسّست جسدي بأناملي كأني أراجعُ مواضع عضّاتها وخمشات أظافرها.

توالتِ الزّغاريد كأنّ العزبة كلّها سعيدة بذهاب شربات، وكأنهم جميعًا تحالفوا ضدّي.

جرى شريطي الأسود سريعًا أمام عيني في الظّلمة التي غرقت فيها بين ركبتي كأنّني أراجع كشف حسابي مع السيّد خضر؛ رأيت مبروكة تسقطُ غارقة في دمِها، ورأيت أبي يسقطُ وسط البرج، ورأيتني أسقطُ أمام الكلب، ورأيت أمّي تسقط وسطَ اللّهب، ورأيت الأستاذ صابر يسقط في الحوش، ورأيت بركة يسقطُ من فم الجَمل، ورأيت البقرة تسقطُ في البئر، ورأيت "عيد" يسقط أمام العجل، ورأيت شربات تسقطُ أمامي.

اهتزّ جسدي كأنه يسقط مع كلّ سقطة، ثمّ تدفّقت مشاهدُ أخرى أُقحمت بفعلِ فاعلٍ في ذهني كأنها سرسوبُ لبنٍ لعجْلٍ وليد، وفي الخلفية

صوتُ كمان ميشيل المصري الحزين يسانده عودُ الشريعي الرّزين.. رأيت مبروكة تضحك بغمّازتها، أبي يصيح منتشيًا (ابعااات)، أنا أركب دراجة عمر وأحضن التّلفاز وأجتاز الثانوية، أولادُ روضة يلعبون أمامها، بركة يقرأ في الإذاعة، شربات!!! سراب.. لا شيء.

أفقتُ من رحلتي القصيرة بين ركبتي على صوتهِ يناديني:

- أينَ وصلت يا أستاذ؟

مكثتُ على وضْعي ثوانٍ خشيتُ إنْ حرّكت عنقي أن يرحلَ الطّيف.. إنه صوته الذي لم أسمعه منذ سنوات.. معقول! أم إنّ الصّدمة لعبت في منافذ أذني فاختلّت وظيفتها! رفعْتُ رأسي ببطء ملتقطًا قدمه ثمّ ذيل جلبابه الأبيض ثمّ يده.. إنّه هو.. لا ليس هو.. هذا طيفٌ كطيف صاحب العمامة الخضراء. لكن ظهورُ مبروكة خلف ظهره كان دليلًا كافيًا أنه عاد بشحمِه ولحمه، إذًا.. فالزغاريد كانت من أجله.

قفزتُ، بل طرتُ.. قطعت عرضَ القاعة في وثبةٍ واحدة كانت نهايتها في حضنِه، نحيب وضحكات وهمْهَمات بكلماتٍ غير مفهومة كعادتي عندما أفرح.. دار معي في القاعة تاركًا جسده لي، يهزّ جذعه الذي يحتضنُني كأنه يجهّزني للنوم على صدره.

***

تواصلتِ الزّغاريد من خالة اعتماد وعمّتي وخالة حمدية؛ بل زاحمتْهنّ شربات التي أميّز زغرودتها جيدًا.. أحضر عمرُ الشربات.. أسكرتني فرحةُ

عودة أبي، وحوّلتني إلى ملاكٍ أحتضن كلّ داخل وخارج، حتى عمّ شعبان قبّلت رأسَه دون مبرر.

خلال ساعةٍ واحدة، كانت العزبة في بيتنا أفواجًا في الحجرتين والرّدهة وأمامَ الفرن، وعلى بسطة السلّم وفي القاعة، ولولا المطرُ قريب العهد بنا لنصَبْنا حفلاً في جُرن الحفلات.

أدورُ كالنّحلة في المكان وأصعدُ وأنزل وأقفز، أرضي الجميعَ، أنشر الضحكات، إوزّع الهدايا التي جلبَها أبي، الكلّ له عطاء.. الكلّ له هدية.. حتى الضّابط المهندم الذي جلس في ركن القاعة على اسْتحياء لم أنسَه من المشروب؛ بل تعاليت على جرْحي الجديد، ولقّبته بـ«العريس» إجبارًا لنفسي على الانْصياع، وإعلانًا منّي أنّ نعمة أبي فيها الكفايةُ والغنى:

– هذه لك يا عريسَنا الباشا.

ابتسمَ وهزّ رأسه بالنّفي كأنّه قرأ داخلتي ويعرف قصّتي، أو ربّما حكتها له المخادعة شربات، فهمس يطمئنني:

– لستُ عريسًا.

اللهُ أكبر.. كدتُ أسجدُ في المكان، كدت أقفزُ من الكوّة إليها، إذًا رفضته، إذًا لا تزال تنتظر الأسمر أبا طويلة الخفيفَ على قلبها.. جذبتُه أحتضنُه كأنني أواسيه في حينِ أنّني أهنئ نفسي بالفرصة الجديدة، ثمّ قلتُ بصوتٍ مفضوح يدّعي الإيمان:

– الحمدُ لله يا محمود باشا.. كلّ عطائه خير.

بل فكّرت أن أحدّثه عن نظريات أبي وجدّي وعجائب الخضر ونسبيّة أينشتين تضميدًا لقلبه المجروح، أو فرحًا بقلبي الذي عوفي أو على وشْك.. أنهى كأسه، فبادرته بالثانية، فتمنّع، فأقسمت:

- والله لتشرب يا باشا.

ثمّ استدرتُ سريعًا لأخطفَ له هدية فاخرة من صندوق الهدايا عند عتبة القاعة تحت ضوء المصباح الكهربي الكبير الذي جلبه الجدّ عبد الباسط.. كان عمر في قفاي فوافاني بالهدية كأنّه سمع الحوار، فتمنّع الضابط معتذرًا فأقسمتُ عليه مجدّدًا، ثمّ انحنيتُ للمرّة الثانية أحتضنُه وأقبّله، وهو يتجاوب معي مجاملًا مدْركًا مغزى فرحتي المفضوحة.

عند باسطة السّلم بين الطابق الأول والقاعة، وفي المكان نفسه الذي كنت أرى فيه صاحب العمامة الخضراء يحمل أشياءَ عكس أشياء.. هنا توقّف الزمان للمرّة الثانية.. ناولتني شربات الصينية وعليها كأس واحدةٌ كبيرة تقدّمها لي.. تسمّرتُ أمامها وتسمّرتْ أمامي.. هي في انتظار أن أنطقَ، وأنا ملجومُ اللّسان، مهزوزُ الجنان.. يئستْ مِن حالتي؛ فبادرت هامسةً تضغط على كلماتها:

- الشّربات لك يا هاشم.

ظللتُ متصلّبًا أُفسح مكانًا في بؤبؤ عينيها يتّسع لحاجتي إليها وفرحتي بعودتها بعد ضياعها، انتبهت على صوتِ عمر الذي ظهرَ بجوارنا فجأة،

وقد تابع اللقطةَ كاملة وترجَمَ الكلمات؛ فالتقط الجريء الكأسَ من الصينية، وسكَبَها على رأسي، وهو يقول لها:

- عريسُك غبيّ لا يفهم الإشارات.

ضحكتْ شربات حياءً من جُملة عمر الشّارحة الواضحة، ومِن فعلتِه الحمقاء، وقفزتْ هابطة هاربة من عيني المتجمّدة، فاصطدمتْ بمبروكة الصّاعدة التي ناوبتْ بيننا النّظرات ضاحكة مبْديَة غمّازتها.

ووقفتُ أنا خاشعًا باسمًا أمام طيفِ صاحبِ العمامة الخضراء.. ألعقُ بلساني الشّربات المتقاطر من رأسي إلى فمي.

تمّت بحمد الله

***